حزب جبهة التحرير الـوطني
الحارس الامين للاستمرارية الثورية (*)



أيها الاخوة ، أيتها الاخوات ،

وفاء للعهد الذى قطعناه لشهدائنا الابرار ، ومواصلة لمسيرة ثورتنا الزاحفة ، وتتويجا لبناء صرح هذا الوطن المجيد ، ها نحن اليوم مجتمعون فى المؤتمر الرابع لجبهة التحرير الوطني ٠

وبهذه المناسبة التاريخية ذات الدلالة العميقة بالنسبة لمستقبل بلادنا والتى تكتسى أهمية بالغة من حيث القرارات المصيرية التى ستنبثق عن مؤتمرنا هذا يطيب لى أن أرحب بجميع الاخوة المناضلين والاخوات المناضلات ، الذين جاؤوا للمشاركة فى هذا التجمع النضالى العظيم ٠

ان مؤتمرنا هذا ، ينعقد بعد ان ودع الشعب الجزائرى منذ شهر ، قائده ورائد ثورته الرئيس الراحل هوارى بومدين ، فى أروع صورة من صور الاكرام والاجلال ، واحسن ما نخلد به ذكرى ابن الجزائر البار ، اخينا هوارى بومدين رحمه الله ، هو وضع اللبنة الاخيرة ى صرح مؤسسات دولتنا الفتية الا وهو انعقاد هذا المؤتمر ٠

(*)كلمة الاخ رابح بيطاط رئيس الدولة فى افتتاح المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطني ٠

وما التلاحم الشديد الذى شهدناه بين الشعب وقائده الراحل الا ضمانا لاستمرارية المسيرة الثورية ·

ان الارث الوحيد والتركة الحقيقية التى يمكن ان نتركها لابنائنا ، هو ان نبث فيهم روح العمل من اجل بناء بلد جدى ومحترم يقوم على أسس متينة لا تتصدع بزوال الرجال ولا تتاثر بالأحداث·

ذلكم هو الاتجاه الذى سعت فيه السلطة الثورية خلال السنوات الاخيرة من تاريخ ثورتنا المظفرة ، وذلك من اجل اقامة دعائم متينة لتنمية بلادنا اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ، من اجل ارساء قواعد راسخة لتنظيمها السياسى ·

وان بناء مجتمع اشتراكى لا يمكن ان يتحقق الا بتنظيم سلطة ثورية تنصهر فى الثورة وتتعهد بالدفاع عنها بكل عزم فعلى هذه السلطة قبل كل شىء ان تكون الضامن الامين لاستمرارية الثورة ، هذه الاستمرارية التى ينبغى أن تتواصل بعد زوال الرجال ، هذه الاستمرارية التى يجب أن تتجاوز أصعب الظروف واقساها ·

ـ اخوانى ، اخواتى :

لقد كان حزب جبهة التحرير الوطنى بالامس ، الضامن القوى لثورتنا المسلحة التى ستحتفل عن قريب بذكراها الخامسة والعشرين ، وسيظل اليوم وغدا والى الابد ، الحارس الامين والوحيد للاستمرارية الثورية ·

وستبقى ثورتنا المجيدة حية قوية على مر الزمن ، رغم الصعاب التى لا مناص منها فى طريق مسيرتنا نحو بناء المجتمع الاشتراكى ·

ان حزب جبهة التحرير الوطنى الذى استطاع ، فى أحلك الظروف التى مرت بها ثورتنا ، ان يتجاوز الصعوبات الظرفية العابره ، ليفتح من خلال الحوار البناء سبيل الوحدة والعمل ، هو وحده الكفيل فى نظرى بأن يضمن بقاء السلطة بين أيدى رجال مخلصين من أشد المناضلين صرامة فى أداء الواجب واقواهم حرصا على الوفاء بالالتـــزام ·

وبما ان الصراحة والوضوح الصفتان اللتان يتميز بهما كل حوار بين مناضلى هذا الحزب العتيد ، فانه يجدر بنا ، فى هذه المناسبة التاريخية ، ان نتعرض لذلكم السؤال الذى طالما تردد على ألسنة المناضلين ، الا وهو ... لماذا هذا الفاصل الزمنى الطويل الذى دام خمسة عشرة سنة بين المؤتمر الثالث الذى انعقد فى سنة 1964 ومؤتمرنا هذا الذى نعقده اليوم ؟

وللرد على هذا السؤال ينبغى قبل كل شىء ، التذكير ببعض الحقائق وبعض الظروف التى مرت بها ثورتنا .

فمؤتمر سنة 1964 ، كان ينطوى على بذور كل المشاكل التى شهدتها بلادنا بعده ، وبوادر مختلف اشكال المعارضة التى ظهرت ضمن قيادتها طوال تلك الفترة المؤسفة .

فعلا ، لقد تمكن انذاك رجل واحد من الانحراف بمجرى الثورة باللجوء الى المناورات الديماغوجية وبث البلبلة بين جهاز الدولة وهياكل الحزب والسعى من أجل استعمال الجماهير الشعبية لتدعيم حكمه الفردى .

ذلك هو الدرس القاسى الذى يمكن استخلاصه من تلك المرحلة الحرجة التى مرت بها ثورتنا .

اذ ان عواقب تلك السياسة المبنية على المغامرة الفردية ، قد أصابت حزب جبهة التحرير الوطنى فى صميم قواته الحية وقدراته التنظيمية .

واذا كان من المنطقى أن نتولى قبل كل شىء مهام بناء مؤسسات راسخة للبلاد وخلق هياكل عصرية لدولتنا الفتية ، الامر الذى تطلب طوال سنوات عديدة تعبئة كل طاقاتنا ، حيث تمكنا خلال هذه الفترة من تأسيس المجالس الشعبية على مختلف المستويات ، من المستوى المحلى الى المستوى الوطنى ، واستطعنا أن نعقد مؤتمرات كل المنظمات الجماهيرية ، لنصل فى نهاية المطاف لارساء قواعد سليمة ومتينة يرتكز عليها مؤتمرنا هذا الذى نعقده اليوم .

كما ان انعقاد المؤتمر الرابع لحزبنا لم يكن ممكنا الا بعد تحديد اسس عقائدية واضحة المعالم . وهو ما تم بالفعل منذ أن صادق الشعب على الميثاق الوطنى الذى أصبح الخط الفاصل بين من يقف بجانب الثورة ومن يعاديها .

ان الحديث قد يطول حول الاسباب التى حالت دون عقد المؤتمر قبل هذا اليوم وحول دور الحزب فى التوجيه الايديولوجى لثورتنا . لكن المهـــم والذى لا يستطيع أى أحد ان ينكره ، هو ان الطريق الذى اتبعناه قد ادى بنا فعلا الى استكمال بناء المؤسسات الاساسية للدولة وتتويجها بعقد هذا المؤتمر العظيم .

وهكذا يتحقق الوعد الاساسى الذى قطعه بيان 19 جوان 1965 ، رغـــم كل الصعوبات الناجمة عن بناء دولة قوية واقامة اقتصاد عصرى غايته تلبية حاجات الجماهير الشعبية ، ورغم كل العوائق التى ظهرت تم التغلب عليها بفضل وعى شعبنا وتبصره .

أيها الاخوة المناضلون :

ان القيادة الثورية التى تولت زمام الحكم فى البلاد برئاسة قائدها الراحل هوارى بومدين ، قد انهت اليوم هذه المهمة الخطيرة التى ادتها بكل كرامة وامانة ويحصل لها الشرف أن يتقدم اعضاؤها فى هذه اللحظة التاريخية . أمام المؤتمر كمناضلين من مناضلى جبهة التحرير الوطنى ، وسيشهد التاريخ على ان امتنا المجيدة قد استطاعت ان تواجه أصعب الظروف التى مر بها تطورها السياسى بخضوعها فى كنف الانضباط والوحدة لتلك القواعد المقدسة التى سنتها لنفسها .

وتلكم هى اهم عبرة يمكن ان نستخلصها بخصوص سلوك شعبنا وتصرف قادته خلال الاشهر الاخيرة حيث تكاتف الجميع من اجل الحفاظ على استمرارية ثورتنـــا الخالـــدة .

ـ أيها الاخوة ، أيتها الاخوات :

انه ليس فى نيتى ان اقيم الانجازات الضخمة ، أو استعرض الشوط الكبير الذى قطعناه على طريق تنمية البلاد منذ انعقاد المؤتمر الاخير . لان ذلك يبدو جليا لو تفحصنا ميثاق الجزائر وقارنا بين اهتمامات المؤتمرين انذاك وبين ما تم انجازه الى حين صدور الميثاق الوطنى الذى ارتقى بطموحات شعبنا الى اعلى المستويات .

ولم يتسن هذا التقدم الكبير الا بفضل تعبئة شعب باكمله ، وبفضل التلاحم القوى بين قادة البلاد ومواطنيها على كل المستويات .

واذا يحق لنا ان نعتز بالمرحلة التى بلغناها . فينبغى أن نتفادى التركيز على الجوانب الايجابية دون ان نتوقف عند اخطائنا لنستخلص منها الدروس المفيدة ، حيث ان التقييم الصحيح لما تحقق من تقدم ، والالمام الدقيق بالنقائص وبجوانب الضعف صفتان حميدتان يجب ان يتحلى بهما كل مناضل واع .

ان هذه المنجزات لهى احسن رد على اولئك الذين كانوا داخل البلاد وخارجها يتكهنون بحصول فوضى سياسية وتغيرات ايديولوجية اثر وفاة رئيسنا الراحل .
لقد رد الشعب بكل حزم واعتزاز على هؤلاء المغرضين بأنه لن يكون فى الجزائر اختيار آخر سوى الاختيار الاشتراكى وكما استطعنا ان نخيب آمال هؤلاء الشانئين الحاسدين بأن تمكنا من استخلاف القيادة السياسية للبلاد حسب الطرق التى املاها علينا الدستور ، فانى متاكد من ان المؤتمر سيعرف كذلك كيف يرد على هؤلاء بقراراته الحاسمة .

كما اننى متيقن من ان مؤتمرنا هذا سيؤكد من جديد تمسكه المطلق بالميثاق الوطنى ، الذى صادق عليه الشعب بالاجماع ، وعزمه على تعميق المبادىء والتوجيهات التى جاء بها .

فلا بد ان نثق بأن الميثاق الوطنى غنى بما احتواه من وعود صادقة ، وغنى بما سطره لابنائنا من طموحات كبيرة ، ولذا لا يمكننا أبدا ان نتخلى عما يأمرنا به ، دون أن ننكث العهود التى قطعناها على أنفسنا ٠

ان المهام الجديدة للحزب التى ستنبثق عن هذا المؤتمر ، ستحتم بدون شك على جميع المسؤولين ان يقدروا اهمية حزب جبهة التحرير الوطنى حق قدرها ، فحزب جبهة التحرير الوطنى يعد بحق الدعامة الاساسية لمؤسساتنا الوطنية ٠

اما تمكين الحزب من القيام بمهامه ووضعه فى المكانة التى خصصها له الميثاق الوطنى والدستور فذلكم اول واجب على كل واحد منا ان يقوم به ، حيث ان الوظيفة السياسية للحزب ، المتمثلة فى التوجيه والمراقبة يجب ان تمارس بصورة فعلية وجدية حتى يكون هذا الحزب الطلائعى فى مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقه ٠

وعليه فانه يقع على عاتق جميع مناضلى هذا الحزب أن يجعلوا منه حزبا قويا ، يرتبط مستقبله ارتباطا وثيقا بمستقبل الثورة الاشتراكية ، ويكون فى مستوى الامال التى نعلقها عليه ٠

ايها المؤتمرون الافاضل :

لا يسعنى فى ختام كلمتى هذه ، الا ان ابارك مؤتمركم الذى يعقد عليه شعبنا كل آماله ، فليكن فى مستوى الثقة التى وضعها فيه الشعب العظيم ، وانى بالنظر الى الدور التاريخى الذى سيلعبه مؤتمرنا هذا اهيب بكم ان يضل الوفاء لرئيسنا الراحل رائدكم ، والتفانى فى بغية الخير والحق مرشدكم ، والتجاوب والانسجام شعاركم ، لان من ورائكم شعب متلهف لسماع قراراتكم التى ستحدد مصيره وترفع كابوس الانتظار والقلـــق ٠

وهناك فى الجانب الآخر ، اخوة لكم فى الصحراء الغربية وبجبهة الصمود مشدودة قلوبهم اليكم ، مرهفة اذانهم للاستماع منكم ، وهناك أشقاء واصدقاء يهمهم ان تصلوا

الى ما أنتم عاقدون العزم للوصول اليه ، وكذلك كل الشعوب المحبة للسلام والعدل فى العالم تعلق أمانيها وتطلعاتها فوق ربوع بلادنا ٠

اننا ايها المناضلون والمناضلات ، هذه الايام نمثل محط انظار العالم ومجال تكهناته وافتراضاته ، لذلك علينا ان نكون مثلما كنا وسنكون ابدا ، رواد سلام وانصار حق ومحبى خير ، ولكننا ايضا حرب على التخلف ، حرب على الاستعمار وكل أشكال الاستغلال والعبودية وحرب على التمييز العنصرى والظلم ٠

يحيى حزب جبهة التحرير الوطنى ،

تحيى الثورة الاشتراكية ،

تحيى الجزائر ،

المجد والخلود لشهدائنا الابرار

والله ولى التوفيق ،

والسلام عليكم ٠

أعز ما يفخر به الجزائرى :
دينه ولغته (*)



الاخ رئيس المؤتمر ،
الاخ رئيس الدولة ،
ايها الاخوة المناضلون ، أيتها الاخوات المناضلات ،

ها هى ثورتنا المظفرة تنجز وعدها وتستكمل لبناتها التى شرعت فى ترسيخ دعائمها بخطوات ثابتة تحت لواء حزب جبهة التحرير الوطنى وبقيادة بطلنا الراحل هوارى بومدين ، قائد مسيرتنا وملهم طلائعنا النضالية ، فهو الذى سخر كل طاقاته لبناء المؤسسات الشعبية واجهزتها القيادية برؤية سياسية واضحة وبصيرة نافذة تستمد قوتها من روح الشعب وتعبر عن آماله وتطلعاته .

انه لوعد قطعه المناضل العظيم على نفسه فى بيان 19 جوان 1965 بأن نعمل جميعا بتفان وبروح من المسؤولية على بناء الحزب والدولة بعيدا عن الديماغوجية والشعارات الخلابة ولم يكد يمضى عقد من السنين حتى ارتفع البنيان متينا عاليا تحميه ارادة الشعب التى جسدها بكل وضوح الميثاق الوطنى والدستور .

(*) كلمة الاخ محمد الصالح يحياوى ، عضو مجلس الثورة والمسؤول التنفيذى المكلف بجهاز الحزب ، فى المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطنى.

لقد آلت القيادة السياسية للبلاد على نفسها أن تفى بالعهد مهما كانت الظروف لتبرهن لمن خامره الشك او تسرب الى نفسه الضعف والوهن ان الثورة بقيادة حزبها العتيد جبهة التحرير الوطنى ـ كانت وما تزال ـ شديدة الاصرار على المضى قدما على طريق تطبيق الميثاق الوطنى والدستور وشديدة التمسك باختيارات ومكاسب لا محيد عنها مهما كانت مصاعب الطريق ...

أيها الاخوة المناضلون ،

لقد شاء القدر ان ينعقد المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطنى بعد ان ودعنا قائدنا المناضل الذى كان يتطلع مع كل المناضلين المخلصين والشرفاء الى هذا اليوم العظيم الذى تستكمل فيه قمة الهرم السياسى للثورة ... فلم يدخر فقيدنا جهدا فى تعبئة الطاقات وتذليل كل العقبات وتوفير جميع الظروف والامكانيات لكى يلتقى هذا الجمع العظيم ويحقق مؤتمرنا هذا اهدافه المنشودة ، وانى لالمح روحه الطاهرة ترفرف حولنا الآن تبارك مسعانا وتحثنا على الالتزام بمبادىء الثورة واختياراتها الاشتراكية وتدعو المناضلين فى كل المواقع الى اليقظة والتعبئة وتلاحم الصفوف لحماية مكاسب الثورة ومواصلة المسيرة بعزيمة اقوى وايمان اعمق حتى تبقى الثورة من الشعب والى الشعب .

لقد أدرك قائدنا هوارى بومدين بأن ما عرفته البلاد من فوضى فى مختلف المجالات تميزت بها السنوات الاولى من الاستقلال نتيجة الصراعات الجانبية والمناورات المختلفة لا يمكن الخروج منها الا بتأسيس الهياكل واقامة دعائم دولة قوية تحكمها قوانين الثورة وتخضع لارادتها فى جميع المجالات وفاء للخط الذى سطرته قوافل الشهداء واستجابة لمطامح الجماهير .

وهكذا كانت حركة 19 جوان 1965 انتفاضة تاريخية اعادت الثورة الى طريقها الصحيح ورسمت معالم البناء الاشتراكى بكل وضوح .

وقد كانت القضية الهامة والعاجلة هي خلق الظروف السياسية وتوفير الشروط الضرورية والامكانيات اللازمة لانطلاق نهضة شاملة وحقيقية فى اطار دولة شعبية وديمقراطية عصرية تستهدف تحقيق تقدم سريع يستفيد من ثماره كل أفراد الشعب والاكثر حرمانا منهم بوجه خاص لان التنمية السريعة والحازمة التى خاضتها بلادنا لم تكن ـ كما برهنت على ذلك انجازاتها الكثيرة ـ مجرد تشييد مادى للهياكل والمؤسسات بل كانت فوق ذلك استجابة لتطلعات الملايين من الفقراء والكادحين الذين التفوا حول ثورة فاتح نوفمبر الخالدة وقدموا لها أعز ما يملكون فى انتظار ان ينجلى ليل الاستعمار والاستغلال وتشرق شمس العدالة الاجتماعية على الجزائر الحرة .

ان هذه المهام ذات الاولوية العاجلة التى تدخل فى اطار منظور شامل لم تنس القيادة السياسية ان دعم بنياتنا وحماية مكاسبنا الثورية وتعزيز سلطة الشعب تحتم استكمال حلقات البناء السياسى لحزب جبهة التحرير الوطنى على أسس واضحة وقوية بعيدة عن المزايدات الجوفاء والارتجال والصراعات الهامشية . ولترسيخ تلك الاسس وضمان انطلاقة جديدة سليمة كان من اللازم أن يبتدىء هذا البناء من القاعدة الجماهيرية العريضة المتمثلة فى العمال والفلاحين والشبيبة والجنود ، هذه القوى التى هى منبع الثورة الاشتراكية وحصنها المنيع وان يتواصل العمل على هذا المنهج وفق مراحل متلاحقة حتى يبلغ البنيان تمامه ، فبهذه الطريقة تضمن الثورة وجود رجال يعبرون باخلاص عن آمال الشعب ومطامحه وتكون هيئات حزب جبهة التحرير الوطنى الضمير الحى الذى يستوعب الاختيارات الكبرى لثورتنا الاشتراكية ويعبر عنها بصدق وامانة فى ميدان التطبيق وبذلك فقط نلتزم بتوجيهات قائد الثورة الهوارى بومدين التى أكدها فى عدد من المواقف وفى كثير من المناسبات وخاصة فى قسنطينة وتيزى وزو وتلمسان ، ان تلك التوجيهات كلها تحث على ان يضم الحزب بين صفوفه وفى مختلف درجات المسؤولية أشد الناس اخلاصا لمبادىء الثورة ووعيا لتاريخها المجيد وأكثرهم تجردا من الاغراض والاهواء وأقدرهم على المسؤولية

وأسبقهم الى التضحية ونكران الذات وهى صفات لا تعرف الا من خلال الممارسة النضالية وسط الجماهير والسلوك اليومى للذين ينهضون بالمسؤولية . فلا يمكن لاى شخص مهما كانت أهمية الموقع الذى يحتله أن يتجاهل حكم جماهير الشعب أو يقلل من قدرتها على التمييز بين المناضل المخلص والكفء عن غيره .

ان حدس الشعب لم يخطىء اطلاقا كما انه ان امهل فانه لن يهمل وتاريخ ثورتنا ملىء بالشواهد والعبر على مدى قدرة حزب جبهة التحرير على فرز الخبيث من الطيب والحكم على الرجال من خلال ما قدموه من أعمال وقد أوضح بطلنا الراحل هذا المنهج عندما قال : « بأن الثورة فى حاجة الى حزب تضم صفوفه خيرة المناضلين الاشتراكيين ... واذا كان هناك من يتعالى على الحزب فسيأتى يوم يطرق فيه أمثال هؤلاء باب الحزب ولا يفتح لهم بالسهولة التى يتوقعونها ... وسيكون الحزب طريقا نحو المسؤوليات القيادية التى لن يشغلها غير المناضلين . اننا لا نفرض على أحد الانخراط فى صفوف الحزب ولكن المناصب القيادية تحتاج الى الاحتكاك بالجماهير الشعبية ومناضل الحزب أقرب الجميع الى القيام بهذا الدور » .

هذه هى توجيهات رئيسنا الراحل التى تجد فى لقائنا هذا كل ابعادها ومغزاها وخاصة بعد ان تعاهد الشعب قاطبة وهو يودع القائد الى مثواه الاخير على مواصلة المسيرة بكل حزم واصرار .

فبقدر ما عبرت جموع الشعب عن حزنها العميق أكدت وما زالت تؤكد تمسكها بكل ما ناضل من أجله الرئيس الراحل من تعلق بالثورة واختياراتها الاشتراكية واستمراريتها بقيادة حزب جبهة التحرير .

أيها الاخـوة المناضلون ،

أيها الاخوات المناضلات :

اننا نستحضر فى هذه اللحظات التاريخية ونحن نضع اللبنة الاخيرة فى صرح مؤسساتنا الثورية تراثنا النضالى العريق . المتواصل عبر التاريخ .

ان شعبنا المكافح وقف فى صمود وثبات أمام كل موجات الغزو التى عرفتها المنطقة وقاوم باستمرار وبحد السلاح كل الطغاة فلم تستطع جيوش الرومان والوندال والبيزنطيين اخضاعه وتذويبه فى امبراطوريات أقيمت على التعسف والاستعباد بل قاوم الاحتلال ولم يتخل أبدا عن تطلعه الوطنى الى التحرر والانعتاق وقد كان الاسلام أبلغ تعبير عن المثل التى آمن بها شعبنا وأصدق تجسيد لمطامحه المتمثلة فى الحرية والعدالة والمساواة فانضوى تحت لوائه واعتنق مبادئه التى تحث على العدل والمساواة وتدعو الى الثورة على الاستغلال والتسلط ٠

وهكذا استند هذا التراث النضالى الضخم الى قيم وتقاليد أصيلة تمثلت على مر الاجيال فى الاقدام على التضحية والثبات فى المعارك وطول النفس فى المقاومة والثورة على كل أشكال السيطرة والاستغلال ٠

ولقد تجسدت هذه الخصال النضالية الرائدة على الاخص عندما اصطدم شعبنا بأشرس قوة استعمارية استيطانية وهى فى عنفوان طغيانها ٠

واذا كان عدم التكافؤ فى العدد والعدة قد مكن قوات الغزو من كسب جولة فى سيدى فرج فان ذلك الانتصار لم ينل من ارادة الشعب الجزائرى فى مواصلة المقاومة ورفض الهزيمة والاستسلام والدفاع عن كيانه وسيادته التى كانت تجسدها دولة قائمة البنيان تتمتع بهيبة وسيادة تجاوزت فى علاقاتها حوض البحر المتوسط الى شمال أوروبا وغرب المحيط الاطلسى والقارة الامريكية دولة مزدهرة اقتصاديا وثقافيا ظلت البعثات الدبلوماسية تتوافد عليها للحصول على القروض والمعونة أو لطلب الصلح والحماية تلك هى الجزائر التى التفت حول الامير عبد القادر ورفعت لواء المقاومة المسلحة طيلة سبعة عشر عاما لم يستطع خلالها الاستعمار الفرنسى على الرغم من سياسة الابادة والبطش والحقد العنصرى ان يخمدها ٠

ولقد بقيت راية المقاومة الشعبية مرفوعة طوال قرن من الاحتلال الاستبدادى دفع خلاله الشعب الجزائرى أكثر من ثلثى سكانه واجه ابشع اساليب التجهيل والتفقير

والمسخ وظلت تلك الراية تنتقل من قائد الى آخر ومن جيل الى جيل فلا يكاد الكفاح يتوقف فى منطقة ركز فيها الاستعمار كل قواه حتى يندلع على أشده فى منطقة أخرى فمن الامير عبد القادر مؤسس المقاومة الشعبية فى تاريخنا الحديث الى المقرانى الى أولاد سيدى الشيخ الى لالا فاطمة وما تخلل ذلك من انتفاضات أخرى · جسدت ارادة الشعب فى مقاومة الاحتلال ورفض الاستسلام ، ويتبين للملاحظ الفاحص ان هذه المقاومة الشعبية فى تاريخنا الحديث الى المقرانى ، الى أولاد سيدى الشيخ ، طاقاتها الحية من الريف وسكانه المحرومين والمضطهدين الذين لا يترددون فى تلبية نداء الجهاد من أجل الكرامة الوطنية ومقدسات البلاد ، كما تميزت المقاومة أيضا بقيادتها الشعبية التى كانت تتصدر الصفوف الامامية للمواجهة بفضل التجاوب الجماهيرى ولم يحدث هذا التجاوب الجماهيرى ولم يحدث هذا التجاوب لغرض آخر غير اعلان الجهاد وتنظيم المقاومة بل حتى العناصر التى ظن الاستعمار انه جندها نهائيا للسير فى ركابه عادت الى أصولها الجماهيرية فى اللحظات الحاسمة واندمجت فى الانتفاضات الشعبية ·

وقد بقيت هذه الصفة الجماهيرية ملازمة للمقاومة الجزائرية وتبلورت كذلك فى الحركة الوطنية التى ظهرت فى الفترة ما بين الحرب العالمية الاولى والثانية حيث توهم الاستعمار الفرنسى انه من الممكن ان يصل الى مخططاته الاجرامية بواسطة القهر والتجهيل والتفقير فى مرحلة أولى ثم الاحتواء والغاء الوجود الوطنى نهائيا فى مرحلة أخيرة وذلك عن طريق تطبيق مخططاته التى أتخذت محورين أساسيين : أولهما تجريد الفلاحين الجزائريين من أراضيهم وتمليكها للدخلاء من المستوطنين الاوروبيين · وثانيهما العمل باصرار على تحطيم البنية الاجتماعية للشعب وتقويض مقوماته الحضارية ·

واذا كان النيل من المقومات الحضارية قد اصطدم بمقاومة عنيفة لم تنقطع أبدا فان انتزاع الاراضى من أصحابها قد أدى الى اقتلاع جماهير الريف من منبتها الاصلى

وافقارها وجعلها تحت رحمة الملاكين الجدد من الدخلاء · وقد أدى كل ذلك الى اغتراب الشعب داخل وطنه وتفاقم البطالة واضطهاد **اعز ما يفخر به الجزائرى هو دينه ولغته** فاضطر عدد كبير من الريفيين الى البحث عما يسد الرمق بواسطة العمل فى مزارع الاوروبيين متجرعين مرارة الاستغلال والاستعباد ، كما فرض على عدد آخر من ابناء الشعب أن يغتربوا بحثا عن الرزق متحملين فى مصانع الرأسمالية أبشع أنواع الاستنزاف والاضطهاد ·

وقد تفاعلت كل تلك العوامل وساعدت على تبلور الحركة الوطنية فى تنظيمات استطاعت ان تعبر عن السخط الشعبى العارم ضد جراءات التجنيد الاجبارى وسياسة التجهيل والتفقير المنظم والاضطهاد وتغذية المنازعات القبلية تطبيقا لسياسة ···/فرق تسد/وقد تجاوبت تلك الحركة الوطنية بعمق مع الاتجاهات الاشتراكية وبوادر حركة التحرر العالمية كما تجاوبت الانتفاضات التى عرفتها منطقتنا مثل انتفاضة عبد لكريم الخطابى وعمر المختار وغيرهما ومع تيارات النهضة التى مثلها جمال الدين الافغانى ومحمد عبده وغيرهم ·

وهذا ما يفسر أن الحركة الوطنية لم تكن فى مجموعها تناضل من أجل تحرير الجزائر من نير الاستعمار فحسب بل كانت تستهدف على المدى البعيد تحقيق نهضة اجتماعية وثقافية شاملة تحرر الانسان من أغلال التخلف · ويتضح ذلك من خلال سلسلة المؤسسات التعليمية والاجتماعية الشعبية التى نشأت تحت سمع وبصر الاستعمار لانقاذ الهوية الوطنية وتحدى حالة الاختناق المدبر ·

وقد بلغت الهجمة الاستعمارية أقسى درجات الوحشية خلال أحداث ماى 1945 عندما تكالبت أجهزة القمع بعد ان ركعت أمام القوات الالمانية/على الجماهير الشعبية التى خرجت تهلل للحرية وتطالب بحقها فى تقرير المصير والاستقلال فكان جزاؤها أن صب الجيش المهزوم نيران حقده على الصدور العارية ودمر بطائراته ودباباته المدن والقرى فى استعراض للقوة لم تشهد له هذه المنطقة نظيرا ·

ولم يكن بد من ان يستخلص الشعب وطلائعه الواعية الثورية مـــن أحـــداث ماى 1945 وما سبقها النتائج الحتمية ... فالعمل السياسى وحده سواء أكان داخل ما يسمى بالشرعية أم خارجها قد وصل الى طريق مسدود ولذلك كان من الضرورى العودة من جديد الى صيغة نضالية عميقة الجذور فى تراثنا الا وهى المقاومة المسلحة التى تنطلق من قواعد شعبية تتسم بالبساطة والفعالية الثورية ، فكان ميلاد جبهة التحرير الوطنى هو المنطلق لتعبئة الجماهير وتنظيمها وتوعيتها وقيادتها فى معركـة المصير الفاصلة . وكان جيش التحرير الوطنى الذى تكون أساسا من أكثر فئات الشعب حرمانا وأشدها التصاقا بهذه الارض هو غضبة الشعب العاصفة على الطغيان والاستغلال ، ان انبثاق جيش التحرير من جماهير الشعب الكادحة فى الارياف والمدن جعله جيشا تعجز أمامه قوات الاستعمار الفرنسى المدعومة بالحلف الاطلسى .

فالانتصار التاريخى الذى حققه الشعب الجزائرى لانتزاع حريته من اعتى قوة استعمارية . كان بفضل التضحيات الضخمة والهائلة التى قدمها الشعب فى أعظم ملحمة عرفها التاريخ المعاصر من أجل استقلاله الا وهى مليون ونصف مليون مـــن الشهـــداء

وفى هذه اللحظة التاريخية نقف بكل اجلال وخشوع أمام أرواح شهدائنا الابرار ونحيى تضحيات المجاهدين من رفاق السلاح الذين قدموا أعز ما عندهم فداء لتحرير الوطن . ولما برهنوا عليه من ايمان لم يخامره ضعف وارادة لم يراودها تردد فى مواصلة معركة الشرف حتى التحقيق الكامل لاهداف الثورة .

أيها الاخـوة المناضلون ...

ان موقعنا كمناضلين فى أى مستوى كان لا يعفينا من النقد الذاتى وتقييـــم حصيلتنا النضالية التى تمتد الآن على أكثر من ربع قرن فليس من المفيد فى شىء أن نتغنى بالايجابيات ونغض الطرف عن السلبيات لاننا بهذه الطريقة قد نخفى على

أجيالنا الصاعدة ما يمكن أن يكون فيه عبرة ولا تنقل اليهم بصدق ما عرفته بلادنا من تجارب ان مثل هذا النقد والتقييم سيرفع بدون شك درجة الوعى والنضج السياسيين اذا اتصف بالنزاهة والموضوعية والتجرد النضالى ... فلا يربط بين الاشخاص والافعال ولا يصدر عن حسابات وأهواء شخصية ان أكبر خطر يهدد الحزب الثورى هو تكرار الاخطاء أو الاصرار عليها والتغنى بالايجابيات والاحتفاء بها ... واذا كانت ثورتنا التحريرية فى مسيرتها المظفرة قد تعرضت لازمات كثيرة فلانها تجربة انسانية لا تخلو من المحاولة والخطأ . وفى تقديرنا أن تلك الازمات تعود الى العوامل التالية :

1 ـ ان جبهة التحرير الوطنى انطلقت فى عملها الثورى بدون اطار ايديولوجى متكامل يتضمن حلولا مسبقة للمشكلات الراهنة وتصورات نظرية واضحة للمستقبل فقد كانت الممارسة العملية هى التى تفرض حلولا معينة للمصاعب المطروحة ولكن تلك الحلول كثيرا ما تقتصر على معالجة مؤقتة لوضعية يمكن أن تتجدد بشكل آخر وفى ظروف أخرى مشابهة أو مغايرة .

2 ـ أن هياكل جبهة التحرير الوطنى لم تتطور دائما فى تنظيماتها ومحتواها بالقدر الذى تعاظمت به الثورة واتسعت ميادينها وكبرت واجباتها مما جعل التناقضات تتراكم فى مستوى القمة التى جمعت عددا من الاتجاهات المتعايشة الى حد ما والمتفقة على قضية التحرير الوطنى فقط مع اختلافها فى المحتوى الايديولوجى الذى ينبغى أن يتخذه هذا التحرير فيما بعد .

3 ـ ان جبهة التحرير الوطنى باعتبارها التنظيم السياسى الذى قاد ثورة التحرير كانت تجمع بين صفوفها القيادية كل المؤمنين بالكفاح المسلح ولم يكن لهذا التنظيم قواعد انضباطية مفصلة تشمل القمة والقاعدة على حد سواء فقد كان المرجع الاول هو البيانات العامة التى لا تتضمن فى الغالب تفاصيل دقيقة تمنع التأويل والجدل حول الاساليب والاهداف . وقد أدى هذا النقص الى غموض مفهوم السلطة وعدم فهم حدود المسؤولية .

4 ـ لم يكن من السهل ممارسة المركزية الديمقراطية فى حزب خرج من حرب ضروس فقد فيها خيرة مناضليه وأقبل على مرحلة البناء وهـو ما يـزال فى دور التأسيس ولذلك لم تكن المراقبة والمحاسبة والمناقشة الديمقراطية البناءة تتم بطريقة عادية داخل تنظيمات جبهة التحرير الوطنى ومستويات المسؤولية من القاعدة الى القمة وضمن تقاليد مسطرة فقد كانت القرارات بتأثير أسلوب وظروف السريـة التى اقتضتها مواجهة العدو والاستعمار تتخذ فى أعلى المستويات أثناء حرب التحرير ولا تشارك فيها القاعدة الواسعة لجبهة التحرير الوطنى بالقدر الكافى بل قد تقتصر مشاركتها على مجرد الاعلام وهذا ما جعل الازمات تستفحل فى قمة الهرم وتبقى فى الغالب محصورة فيه ولا تؤثر على القاعدة لانها لا تعرف من تلك الازمات سـوى أصداء غامضة وقد ازدادت هذه النقائص حدة فى السنوات الاولى للاستقلال نتيجة التسرع والارتجال والاهتمام بالمشاكل الثانوية .

ان هذه الملاحظات العامة لا تستهدف نقد أشخاص أو تمجيد آخرين وانما هى محاولة مخلصة لتحليل أوضاعنا من خلال تجربة آن الاوان لتقييمها ودعم ايجابياتها وتفادى ما اعتراها من غبار وهى تشق طريقها طيلة سنوات حـرب التحرير ومـا أعقبها ... ونقول محاولة مخلصة لاننا جميعا كمناضلين سيأتى يوم يقيم فيه غيرنا ما نقوم به من عمل ويحكم التاريخ فيه لنا أو علينا وعندئذ ستجد الاجيال القادمة فى خلاصة تجربتنا النضالية تلك الروح الجريئة التى فجرت ثورة التحرير الكبرى وتلك المعانى السامية والافكار الرائدة التى استمرت منذ ذلك الحين تقود الثـورة وتحميها من الانكسار والتقهقر . وتمدها بعناصر القوة والاستمرار والتجديد .

أيها الاخـوة المناضلون :

لقد ادركت القيادة السياسية للبلاد ان تشييد حزب جبهة التحرير الوطـنى مرهون بشرطين أساسيين يتمثل أولهما فى القيام بفرز تلقائى يبـرز النخبـة الطلائعية للمناضلين الاكثر التزاما بالثورة الاشتراكية والاقوى ايمانا بالجماهـير

والاشد ارتباطا بواقعها وتجاوبا مع مطامحها لان النضال من أجل تعميق مكاسب الثورة واثرائها لا يمكن أن يكون الا عن اقتناع وطواعية ومن خلال الاطار النظامى وبروح الالتزام بقضايا الجماهير ٠

وأما الشرط الثانى فهو الانطلاق فى بناء حزب جبهة التحرير الوطنى ابتداء من القاعدة التى تمثل أساس كل بناء سليم وخلق تيار من التفاعل بين القمة والقاعدة وهذا بدل حصر السلطة فى القمة وعزل القاعدة وقد وجد هذا المفهوم الثورى تطبيقه الواسع فلم تمض سنوات قليلة حتى تعبأت كل قوات الشعب الحية فى المنظمات الجماهيرية التى جمعت بين صفوفها العمال والفلاحين والمجاهدين والشباب والنساء ومختلف القطاعات المهنية وقد عرفت هذه العملية جدلية منقطعة النظـير تجاوزت الحوار التقليدى بين مستويات المسؤولية ودرجات السلطة فقد كان كل مؤتمر مـن مؤتمرات المنظمات الجماهيرية منطلقا جديدا يجدد نفس الثورة ويحكم خطواتها كما تؤكد ذلك اللوائح والتوصيات التى صدرت عنها وعبرت عن اجماع المشاركـين فيها ٠٠٠ ان هذه الذخيرة العظيمة ستكون من بين المكاسب التى يحرص مؤتمرنا على التمسك بها وتمهيد الطريق لوضعها موضع التنفيذ فهى جزء لا ينفصل عن نضـال حزب جبهة التحرير الوطنى كما عبرت قواعده الجماهيرية وهو أيضا ترجمة أمينة لمشاكلها ومطامحها ٠

أيها الاخـوة المناضلون ٠٠٠

لم تكد تستلم القيادة السياسية زمام الحكم حتى اتجهت بكل قواها وحشدت كل امكانيات البلاد لوضع أسس الدولة العصرية ومؤسساتها القاعدية وانجاز التعهدات التى تضمنها بيان 19 جوان 1965 باقامة دولة اشتراكية ذات هيبة وسيادة لا تزول بزوال الرجال وتعمل على تحقيق الرفاهية لكل ابناء الشعب ٠٠٠ وبناء على ذلك تم ترتيب الاولويات ووضع فى مقدمتها تشييد دولة حديثة تضمن مكاسب الثـورة وتحمى استقلالنا الوطنى وتكون فى نفس الوقت الاداة الفعالة للتنمية الشاملـة ٠

وهكذا عملت القيادة السياسية باشراف المناضل الفقيد وتحت قيادته على استعادة السيطرة على ثرواتنا الوطنية فبادرت بتأميم المناجم والبنوك وشركات التامين واعادة التأمين والوحدات الصناعية وقطاع المحروقات وخاضت فى ذلك معارك قاسية خرجت منها منتصرة بالرغم من كل الضغوط والتحديات ومحاولة الحصار والتشكيك فى قدرة الجزائر على الاضطلاع بمسؤوليات هذه القطاعات الحيوية وقد سجل التاريخ بكل فخر واعتزاز صمود عمالنا واطاراتنا فى تلك المعركة الحاسمة ووعيهم بمسؤولياتهم الوطنية ودفعهم التحدى بالتحدى .

ولقد أعطت هذه العملية الثورية الجريئة استقلالنا السياسى محتواه الحقيقى كما اكد ذلك الرئيس الراحل على اعتبار ان الاستقلال السياسى بدون التحكم فى ثرواتنا الوطنية والتخلص من التبعية يظل مجرد استقلال شكلى .

فكما كان للثورة الجزائرية بعدها العالمى الملهم نضال الشعوب كان لهذه العملية صداها الواسع وأثرها الفعال على مستوى كفاح العالم الثالث فى القضاء على احتكارات الكارتيل العالمى واعادة تقييم المواد الاولية وتحقيق أقصى الاستفادة منها والمطالبة بنظام اقتصادى دولى جديد يقوم على تبادل المنافع وتوازن المصالح .

وهكذا فان الجزائر التى خرجت من الحرب مثخنة بالجراح قد وفرت الشروط الموضوعية وهيأت الارضية الصلبة لخوض معركة التنمية الشاملة ، فى اطار الاختيار الاشتراكى . ولم تكد تمضى بضع سنوات حتى أرست بلادنا قواعد الصناعة وارتفعت المداخن تبشر بفجر الثورة الصناعية وتحولت جميع مناطق البلاد الى ورشة عمل كبرى بفضل سياسة التصنيع الجهوى واعادة توزيع الدخل . فمن ارزيو وسكيكدة الى الحجار ورويبة الى الونزة ترتفع منارات الصناعة وتستثمر موادنا الاولية بفضل السواعد الجزائرية ولمصلحة الجماهير الشعبية .

ان حشد كل الامكانيات وتسخيرها للخروج نهائيا من مرحلة التخلف كان يستلزم حتما أن يحظى الريف باهتمام الثورة فهو الذى تحمل اقصى أعبائها وكان

مهدها الحقيقى الاول · وفضلا عن ذلك فان الاهتمام بالريف يندرج ضمن رؤية شاملة ومتكاملة لعملية التنمية · باعتبار ان الثورة الزراعية خلافا لبرامج الاصلاح الزراعى التى عرفتها بعض البلدان النامية تستهدف تغيير ذهنية الانسان ومحيطه فى آن واحد فمبدأ الارض لمن يخدمها والقضاء على رواسب الاقطاع واقتلاع جذور النزعات البرجوازية والطفيلية وخلق علاقات جديدة اقتضت تصفية (الخماسة) من ريفنا الى الابد فى ميدان الزراعة والرعى فلا يمكن فى مجتمع اشتراكى وفى الريف الجزائرى بالذات أن تعيش فئة قليلة من الناس فى بحبوحة من العيش فى المدن وتمتص عرق المزارعين والرعاة الكادحين لان الثورة فى هذه الحالة تكون قد تنكرت لنفسها وحادت عن سبيلها ··· ان الثورة الزراعية لم تكن مجرد اعادة توزيع الارض والغاء الخماسة ···

لقد كان ذلك مجرد بداية لتكوين الانسان الجزائرى الجديد الذى يتمتع بحقه المشروع فى حياة كريمة وفاء لعهد الثورة وارواح الشهداء وهكذا انطلق مشروع الالف قرية التى يربط عددا كبيرا منها اليوم حزام الرخاء فى الريف الجزائرى فالقرى الفلاحية التى تنتشر اليوم فى ربوع ريفنا انما هى المعالم الكبرى لجزائر الثورة الاشتراكية التى لم تلتجىء حتى فى أحلك الظروف واقساها الى اختيار الحلول السهلة ·

أيها الاخوة المناضلون :

ان تشييد هياكل الدولة وتنظيمها على أسس عصرية لا يحقق نتائجه المرجوة الا اذا استكمل ببناء الانسان الذى هو هدف كل تقدم وتنمية ولذلك سخرت الثورة كل امكانياتها لتطبيق ديمقراطية التعليم وتكوين جيل مؤمن بالثورة ومتشبع بأنبل ما فى تراثه من قيم ايجابية وازداد الاقبال على الثقافة والعلم حتى أصبحت الحاجة الى الكتاب لا تقل عن الحاجة الى الخبز وما انتشار المدارس فى أقاصى الريف وعلى

سفوح الجبال وفى كل شارع من شوارع مدننا وقرانا وتشييد الجامعات والمعاهد لتخريج اطارات فى أحدث التخصصات العلمية والتقنية الا دليل على ما حققته الجزائر فى هذا الميدان فى سنوات قليلة غير ان هذا الانتشار الكمى للتعليم ينبغى أن يدعم أكثر فأكثر بتحسين الكيف وربط التكوين بالتنمية واحتياجات البلاد · ولن يكون ذلك بالامر الصعب لانه اذا كانت بعض مؤسساتنا الاقتصادية لم تصل فى بداية الامر الى طاقتها القصوى . فانها فى طريقها الآن الى الرفع من كفايتها الانتاجية ، كما اننا لا نشك فى أن مؤسساتنا التعليمية تستطيع بفضل الحزم والعزيمة الصادقة ، ان ترفع مردودها ، وتحقق التوازن المطلوب بين الكم والكيف ، وتواصل العمل على ترقية لغتنا الوطنية ودعمها فى كل مجالات الحياة ، بدون ان ينسينا ذلك ما يحدث فى عالمنا المعاصر من تقدم ينبغى علينا ان نلاحقه وان نصل الى تحقيقه بأنفسنا فى أقرب الاجال ·

ان ما اشرنا اليه من اعمال عظيمة ، ليس سوى امثلة من الانجازات الضخمة التى حققتها بلادنا فى سنوات قليلة رغم المصاعب والتحديات التى واجهتها ·

ايها الاخوة المناضلون ،

ان المبادىء والمنطلقات التى تضمنها الميثاق وصادق عليها الشعب بالاجماع قد حددت بطريقة صريحة آفاق المستقبل وقطعت الطريق نهائيا على كل المتشككين والمتربصين بمكاسب ثورتنا الاشتراكية ··· من الطب المجانى الى التسيير الاشتراكى للمؤسسات الى التطوع والخدمة الوطنية والثورة الزراعية · فقد وصلت ثورتنا كما قال المناضل الراحل نقطة اللارجوع وبلغت أشدها وتسلحت بمؤسسات ومواثيق ساهم الشعب مباشرة فى وضعها واثرائها وهو أيضا قادر على حمايتها والدفاع عنها فى كل الظروف بواسطة مؤسساته الشعبية ·

ولقد جاءت هذه المؤسسات تكملة للعمل الواسع الذى قامت به القيادة السياسية فى مجال ارساء اسس المجتمع الاشتراكى واستكمال شروط بنائه اذ لا يكفى وضع

تلك الركائز المادية دون ان تتوفر لها وسائل حمايتها والاطر النظامية التى تستوعب جوانب هذه العملية الثورية الكبرى وتحافظ على ديناميكيتها فى خطها السليم . فكانت البداية بانشاء المجالس البلدية شروعا عمليا لتجسيد سلطة القواعد الشعبية باشتراكها فى مسؤوليات التخطيط والتسيير والتنفيذ وحين تواصلت هذه الخطوات بانشاء مجالس الولايات ومجالس العمال فى الوحدات الانتاجية الزراعية والصناعية والمجلس الوطنى فانما كان ذلك تحقيقا لمبدأ ممارسة الشعب للمسؤولية بواسطة ممثليه على مختلف المستويات وهكذا فان الثورة جعلت من القوة العاملة فى المدن والارياف المصدر الذى يصنع القرار الاقتصادى والسياسى من خلال تلك المجالس ويربط الجماهير الكادحة مصلحة ومصيرا بمكاسبها وانجازاتها ذلك ان شكل المؤسسات الاشتراكية ومجالس العمال الذى اختارته الثورة كأسلوب فى تنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية والذى حول من كانوا يعرضون قوة عملهم فى أسواق الاستغلال الى منتجين ومسيرين ان هذا الاسلوب قادر على أن يضمن لنفسه الاستمرارية والتجدد .

ونقول انه قادر على ذلك وعلى حماية نفسه بنفسه على الرغم من النقائص التى ظهرت فى ميدان تطبيق النصوص حيث فسح المجال لاجتهادات حاولت عن قصد احيانا وعن غير قصد أحيانا اخرى النيل من هذا المكسب العظيم .

ولابد فى هذا المقام من الاعتراف بأن حزب جبهة التحرير الوطنى هو الآخر قد تسبب فى توفير الجو الملائم لظهور تلك النقائص وذلك بتقديمه مرشحين لا تتوفر فيهم كل الشروط والمقاييس المطلوبة وسرعان ما يفتر حماسهم أمام الضغوط وبريق الاغراءات . غير ان كل النقائص التى عرفناها فى هذه التجربة من خلال الممارسة مهما كانت ومهما كان مصدرها لا ينبغى أن تأخذ فى الاذهان ابعادا وتفسيرات مميزة بل ينبغى وضعها فى اطار اثراء التجربة نفسها واعتبارها نتيجة طبيعية لتجربة فتية .

ولقد برهن التصويت على الدستور والانتخابات الرئاسية على مدى تعلق الشعب بثورته ومؤسساته الشعبية ومدى نضجه السياسى ووعيه بابعاد المعركة التى تخوضها الجزائر ضد التخلف والاستغلال ٠

أيها الاخوة المناضلون :

ان المعركة المتعددة الجبهات والمليئة بالتحديات لم تمنع الجزائر من القيام بدورها الرائد فى الكفاح ضد الامبريالية والرجعية والاستعمار بكل صوره واشكاله فقد عملت بلادنا فى كل موقع ودوى صوتها على كل منبر تدافع عن المضطهدين وتشد ازر المكافحين ولا تخاف فى الحق لومة لائم فلم تتردد الجزائر فى فتح صدرها للمناضلين من أجل القضايا الانسانية العادلة واعتبرت ان من واجبها كثورة اشتراكية ان تكون قبلة لكل حركات التحرير فى الوطن العربي وافريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية وحتى أوروبا ٠

وكما لم تخف بلادنا يوما من الايام ما قدمته وتقدمه من عون مادى ومعنوى لهذه الحركات التحررية ، فانها تؤمن بأن هذه المساهمة لا تعنى تصدير الثورة أو التدخل فى شؤون الغير أو المن على أى كان ٠ لانها تعتقد ان قضايا التحرر واحدة اينما كانت على وجه الارض ، وان حق تقرير المصير مبدأ انسانى أقرته المنظمات الدولية ونصت عليه المواثيق الامية والجهوية ، ومن هذه المنطلقات وتلك المبادىء ساندت بلادنا شعب الصحراء الغربية فى كفاحه العادل ضد النزعة الاستعمارية التوسعية وتبنت قضية شعب فلسطين الذى يكافح فى صمود ضد الاستعمار الصهيونى الاستيطانى ، كما رفضت سياسة الاستسلام والخنوع التى تدفع الامة العربية ثمنها من أجل كرامتها وحقها المشروع فى استعادة كل الاراضى العربية المغتصبة ، وهى لم تأل جهدا فى التنديد بالانظمة العنصرية الدموية التى تمارسها الاقليات البيضاء على شعوب ناميبيا وزيمبابوى وجنوب افريقيا تلك الاقليات المتواطئة مع الامبريالية العالمية لاستعباد الشعوب باسم التفوق العرقى ٠

ان مساندة هذه الحركات والتعاطف معها لا يرتكز على حسابات تكتيكية مؤقتة ولا يستند الى مواقف عاطفية عابرة بل هو مستمد من صميم تراثنا النضالى العريق وقيم شعبنا وتجاربه فى الكفاح ٠

فهذه المواقف الثورية والتحريرية تشكل منظورا يتجاوز الحدود والمصالح الخاصة ليتناول القضايا الانسانية المشتركة ، فلم تكن معركة تاميم المحروقات وكسر شوكة الاحتكارات العالمية والصمود بقوة أمام كارتيل الشركات المتعددة الجنسيات الا حلقة من حلقات النضال الاصيل والمنسجم مع منطلقاتنا السياسية فى الداخل ٠ لقد تصدت الجزائر بقوة ورفعت صوتها المدوى ضد جشع العالم المصنع الذى ينقل المواد الاولية من البلدان النامية بابخس الاثمان ليعيدها اليها مصنعة فيشتريها باضعاف تكلفتها الحقيقية ٠

ان هذه المعركة التى خاضتها الجزائر تنبع من ايمانها القوى بعدم الانحياز الى المعسكرات وبضرورة اقامة جسر من الحوار والتفاهم بين الشمال والجنوب ودعم التعاون بين الشعوب حتى يسود السلام والامن وتستطيع الدول بغض النظر عن حجمها ، أن تحافظ على استقلالها وسيادتها الوطنية لان عدم الانحياز لا يعنى البقاء فى موقف المتفرج بل العمل فى اطار السيادة الوطنية على اقامة تعاون دولى خال من كل الاحكام المسبقة والنوايا السيئة وفى هذا النطاق ما فتئت الجزائر تعمل بجد على بناء مغرب الشعوب ولم تتخل ابدا عن انتمائها والتزاماتها تجاه الاشقاء فى الوطن العربى فقد كانت فى مقدمة من لبوا النداء وستبقى وفية لهذه الالتزامات فى جبهة الصمود والتصدى غير معترفة بسياسة الانهزام والاستسلام كما ستبقى بلادنا منتمية الى القارة السمراء ومتضامنة مع شعوبها المناضلة لان هذه المواقف والانتماءات تطابق تجربتها الثورية وتعبر عن اختياراتها الشعبية ومسطرة فى ميثاقها الوطنى ٠

أيها الاخـوة المناضلون ،

لقد أتجهت العناية منذ سنوات الى بناء دولة عصرية قوية تتمتع بالاستقـرار الداخلي وتحظى بالاحترام على الصعيد الدولى وتعبأت كل القوى لتمهيد الطريق لكى يخرج مجتمعنا من وضعية التخلف الموروث ولذلك تركز الاهتمام على وضع دعائم الثورة الصناعية وتنظيم اجهزة الدولة والنهوض بالريف فى جميع الميادين والشروع فى السيطرة على التكنولوجيا وبناء المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والثقافيـة وتزويدها بالامكانيات الضرورية للعمل. الا ان هذه الهياكل والمؤسسات لا يمكن ان تعطى مردودها وتظهر فعاليتها ودورها الايجابى فى التنمية الا اذا وضعت فى اطار منظور سياسى متكامل وسارت وفق الاختيارات والمبادىء التى تتبناها البلاد .
أما وقد أستوفت الدولة أهم مؤسساتها القاعدية السياسية منها والاقتصادية والثقافية والاجتماعية فانه بات من الطبيعى أن تتجه الجهود المكثفة كلها نحو الحزب بغية تنظيمه واقامة هياكله انطلاقا من متطلعات المرحلة الحالية واستعدادا لمؤتمـر حزب جبهة التحرير الوطنى الذى يمثل قمة البناء السياسى والايديولوجى والحلقة الرئيسية فى سلسلة المؤسسات القيادية .

وقد جاء تنظيم الحزب واعادة هيكلته انطلاقة جديدة هامة فى مسيرته اذ أنـه ساعد على دعم العمل الحزبى واعطائه مفهومه الايديولوجى والتنظيمى المتكامل ذلك أنه لم يكن ممكنا بأى حال من الاحوال تصور انفصال هذا العمل عن الواقع السياسى والثقافى والاقتصادى والاجتماعى الذى تعيشه البلاد والذى ينبغى أن يكون انعكاسا لارادة الحزب باعتباره مصدر النشاط الايديولوجى الخلاق وباعتباره دليل الثـورة وأداتها فى مجالات القيادة والتخطيط والتنشيط .

ومن هنا فان الامر لم يكن يعنى اعادة تنظيم الحزب وهيكلته كهدف فى حد ذاته بل يعنى اعطاء الهيكلة والتنظيمات الجديدة الفعالية والحيوية اللازمة لكى تثبـت

وجودها فى مواقع وساحات العمل الثورى من أجل متابعة وتوجيه مهام البناء الاشتراكى وفق الاهداف التاريخية الثلاثة لثورتنا كما حددها الميثاق الوطنى وهى دعم الاستقلال الوطنى واقامة مجتمع متحرر من استغلال الانسان للانسان وترقية الفرد وتوفير أسباب تفتح شخصيته وأزدهارها ·

واذا كانت هذه الاهداف تجسد استراتيجية العمل السياسى فى المرحلة المستقبلية وعلى المدى البعيد ، فان المرحلة التى انطلقت فيها عمليات تنظيم الحزب والتى أولاها الرئيس المناضل هوارى بومدين عناية بالغة ، هذه المرحلة تعد على الرغم من قصرها مرحلة حاسمة فى حياة حزب جبهة التحرير الوطنى ، اذ تطلبت تجنيد كل الطاقات والكفاءات فى هيئات الحزب القاعدية والقيادية وفى المنظمات الجماهيرية من أجل مزيد من التعبئة والتوعية فى صفوف المناضلين ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان لابد ان نستعد لمؤتمرنا هذا بمراجعة هياكل وتنظيمات الحزب على المستويات المركزية والمحلية واقامة بنياته على كل الاصعدة ضمن منظور استراتيجى شامل يتيح تجديد الاعتبار للوظائف الحزبية واسترجاع الثقة الكاملة فى قدرة جبهة التحرير الوطنى على قيادة الثورة اليوم بنفس القدرة التى قادت بها فى الماضى معركة التحرير ، وبما أن البنيات كيفما كانت صلاحياتها للمهام المنوطة بها وكيفما كان تكيفها مع طبيعة العمل المطلوب منها ، انما تستمد قيمتها الكبرى أولا وقبل كل شىء من نوعية العناصر التى تمارس فيها الجهد النضالى ·

وهكذا تمكننا فى هذه الفترة القصيرة من جعل الحزب ساحة لقاء لكل الطاقات الحية فى البلاد ومركزا يستقطب الكفاءات ويصهرها فى اطار نضالى قوى ومتكامل يمكنها من استيعاب القاعدة النظرية التى تنطلق منها نظرتنا للمجتمع الاشتراكى وتمنحها وحدة التصور ·

وانطلاقا من هذه الاعتبارات كلها تم الشروع فى تنظيم الهياكل الحزبية ضمن منظور شامل لطبيعة المرحلة التى يواجهها العمل السياسى وقد جرى التفكير على

هذا الصعيد بحيث تكون البنيات فى مستوى المسؤوليات الجديدة متجاوبة مع ما يتطلبه العمل الحزبى من ديناميكية فعالة بعيدا عن أساليب التنظيم العقيمة التى تؤدى حتما اما الى الهامشية والعزلة أو الى الازدواجية وتداخل الاختصاصات الامر الذى يقضى على الجهود المبذولة ويحول دون تحقيق الاهداف المنتظرة ٠

واعتبارا لهذا التحليل ، فقد انشئت اللجان المركزية للحزب لتغطية مجموع النشاطات الوطنية ، وشكلت من متفرغين للعمل فى الحزب ومن عناصر غير متفرغة ممن يتولون مناصب المسؤولية فى أجهزة الدولة ، وقطاعات الانتاج أو يمارسون مهمات فى المؤسسات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية تدخل فى اطار صلاحيات اللجان المركزية

ولقد تعاونت عناصر الفئتين باخلاص على تحقيق استفادة قصوى من هذه الصيغة الجديدة للعمل وكان من ثمار ذلك الجهد المتكامل تلك الدراسات التى أعدت وقدمت الى اللجنة الوطنية التى كلفت بالاعداد لهذا المؤتمر وهى دراسات شملت قطاعات الاعلام والثقافة والتكوين والشؤون الاقتصادية والاجتماعية والقضايا التنظيمية والعلاقات الدولية ٠٠٠

أيها الاخوة المناضلون :

ان الاهمية الاستراتيجية لبناء حزب قوى يعكس فى محتواه الاجتماعى تقدم الثورة وينشر فكرها الى جميع القطاعات ويكون متواجدا فى جميع المجالات جعلتنا نحرص منذ التكليف بهذه المهمة وطبقا لتوجيهات المناضل الكبير هوارى بومدين على أن نجعل من هذه الحركة الطلائعية العتيدة اطارا للقاء جميع الطاقات المناضلة والارادات المخلصة الملتزمة بالميثاق فى وحدته وشموله ، ومن هنا كانت الصيغ التنظيمية التى أوجدناها على المستوى المركزى وفى القاعدة ، وهى صيغ مكنت من استيعاب جميع الطاقات الملتزمة والقادرة على المساهمة والاستفادة من امكانياتها فى تعزيز دور جبهة التحرير واداء المهام التى حددها الميثاق الوطنى ٠

ان توسيع القاعدة التنظيمية للحزب وانفتاحه على أوسع الطاقات النضالية وخاصة فى مؤسسات وأجهزة الدولة لا يعنى تغليب الكم على المقاييس الاساسية وانما هو استجابة لضرورة ايصال توجيه الثورة الى مختلف مواقع الفكر والانتاج والتسيير وتحقيق وحدة الفكر والعمل لان بقاء الاطارات المسيرة ـ فى تصورنا ـ خارج الهياكل النظامية للحزب ، خطر على الثورة وعلى الاطارات نفسها . فوجود الاطارات داخل الهياكل النظامية هو الذى يمكن من تفادى خطر الانحراف والانفصال عن فكر الثورة وسياستها ويتيح لهذه الاطارات بحكم موقعها المجال الطبيعى للابداع والتفاعل بين الفكر والممارسة والمساهمة الفعالة فى اثراء تجربة الثورة .

لان الاطار كما يؤكد الميثاق الوطنى « اما أن يشكل عائقا للجهود المبذولة فى سبيل التنمية واما ان يكون العكس من ذلك قوة دفع للثورة وعلى ضوء تصرفاتهم وسلوكهم تحكم الجماهير على مدى سلامة الحركة الثورية معنويا وسياسيا » .

فالاشتراكية لا يحققها الا وجود اشتراكيين فى مواقع المسؤولية ، هنا أوجه تحية تقدير لكل الاطارات التى عملت بجهد مخلص ، وبصمت ، ومن خلال مواقع المسؤولية والعمل ، على انتصار الثورة فى معركة البناء الاشتراكى ، وكسب التحدى الكبير فى مواجهة التخلف ودعم سياسة الاعتماد على النفس والاستقلال الاقتصادى ، وهكذا وكما انتصرت الثورة فى المعركة التحريرية بفضل عبقرية وتضحية أبنائها ، انتصرت فى معركة البناء الاشتراكى أيضا بفضل العزيمة والارادة المخلصة لابنائها المناضلين وغيرتهم الوطنية على مكانة وسمعة الجزائر .

وقد تواصلت الجهود خلال الفترة التمهيدية لمؤتمرنا هذا من أجل وضع تصور واضح للعمل ، وفق طبيعة المرحلة الجديدة ، بما يضمن اعطاء الدور الطبيعى والطليعى للحزب فى قيادة مسيرة الثورة ، والتحكم فى حركتها طبقا لما حدده الميثاق الوطنى من أهداف ، ويمكن من دفع أجهزة الثورة الاخرى فى عمل منسق متجانس يقضى على الميوعة والتواكل واللامبالاة وترامى المسؤوليات ويزيل التصور الخاطىء لدى البعض

لمهمة هيئات الحزب وعمل الاجهزة الادارية ، يثرى مفهوم اللامركزية واشراك القاعدة فى المسؤولية ، وحل المشاكل المحلية وتلبية احتياجات الجماهير وتكون فى النهاية موصلا جيدا بين القاعدة والاجهزة المركزية للحزب .

ومن هنا اخترنا الصيغة التنظيمية الجديدة المتمثلة فى اقامة مجالس على مستوى المحافظات ، وتشكيل لجان حزبية على مستوى القاعدة ، تكون امتدادا للاجهزة المركزية التى حرصنا كل الحرص على أن تكون ساحة لقاء ووعاء لاستقطاب جميع القدرات النضالية المؤهلة لاثراء ودعم مهام الحزب فى التوجيه والتكوين والرقابة والتنشيط واتخاذ التدابير اللازمة لحل مجموع المشاكل المطروحة على مستوى الولاية سـواء كانت ذات طابع سياسى أو اقتصادى أو اجتماعى أو ثقافى ، كل ذلك تم استجابة للمرحلة المتقدمة التى بلغتها الثورة وعظمت أفاقها المتعددة والواسعة بحيث لا تكون هناك قطيعة بين المهمة السياسية والادارية والمهمة التسييرية .

وهكذا اتاحت هذه الصيغة التنظيمية للاطارات الوطنية سواء كانت فى الحزب أو فى الدولة أن تمارس معا جهد التفكير والتخطيط والتصور فى اطار حيوى فعـال ، ومكنت من مد الجسور المتينة بين هياكل الحزب وهياكل الدولة .

وقد عملت هذه اللجان على المستوى المركزى كل منها فى اطار اختصاصها عـلى دراسة التدابير الهامة ذات الصبغة الوطنية التى تتخذها مختلف قطاعات النشاط الوطنى وابداء الرأى فيها قبل دخولها حيز لتطبيق .

أيها الاخـوة المناضلون :

لقد كانت المصادقة الشعبية على الميثاق الوطنى ايذانا ببدء مرحلة جديدة فى مسيرة الثورة وتعميق محتواها الديمقراطى من خلال تنشيط مؤسساتها وهيئاتهـا وتعبئة وتاطير طاقات الثورة وقواها الحية باعتبار ان هذه القوى هى وسيلة وغاية الثـــورة .

وبدون شك فان هذه التعبئة لا يحققها الا حزب طليعى قادر على استيعاب كل القوى المستعدة للنضال والملتزمة بالميثاق الوطنى ومبادىء جبهة التحرير الوطنى .

ومن هنا كان عقد مؤتمر الحزب هدفا بالغ الاهمية لما يعنيه من تتويج صرح بنائها السياسى واعتبارا لهذه الاهمية الاستراتيجية التى يكتسبها بناء حزب يكون القوة القائدة والموجهة لحركة الثورة كان علينا أن ننطلق انطلاقة سليمة ببناء الاساس فجاءت مؤتمرات المنظمات الجماهيرية التى تعد روافد تكمل وتدعم العمل الحزبى وتوسيع قاعدته النضالية لتشمل كل القوات الاساسية للثورة ، ولقد حرصنا كل الحرص فى اطار استعدادنا لهذا الموعد التاريخى العظيم على أن تجرى أشغال تلك المؤتمرات فى جو من الديمقراطية الحقة والتمثيل الواسع للقاعدة كما حرصنا على جعل هذه المؤتمرات لقاءا ملائما للحوار البناء والنقد الذاتى النزيه بغية الكشف عن كل الجوانب السلبية والايجابية والتعرف على طموحات وتطلعات الجماهير الشعبية وترجمتها من خلال التوصيات والقرارات ، الى برامج عمل واضحة الاهداف ولم يكن من الممكن تحقيق ما توصلنا اليه من خلال هذه العملية التجديدية التى أعطت دما ودفعا جديدا لديناميكية الثورة لو لم يتم التمسك بأسلوب الديمقراطية والانفتاح على القاعدة والاصغاء اليها وتاكيد الثقة فى نضجها ومسؤوليتها ، وقد أسندت مهمة السهر على تنفيذ التوصيات الى قيادات انبثقت عن هذه المؤتمرات وتعكس الاهتمامات الحقيقية وتكون فى مستوى مقتضيات البناء الوطنى .

وقد أردنا بعقد تلك المؤتمرات جعل المنظمات الجماهيرية لا مجرد واجهات تعيش على هامش القضايا الوطنية الكبرى بل تنشط كل فى ميدانها لتعبئة أوسع فئات الشعب والعمل باستمرار على رفع مستوى الوعى السياسى والثقافى لمناضلينا وترسيخ مفاهيم الثورة لديهم ، وجعلهم معبئين باستمرار من أجل انجاز مهام البناء الاشتراكى ، وكانت النتائج الايجابية المحققة فى مستوى ما كنا نطمح اليه .

وبخصوص تجديد الهياكل القاعدية للحزب التى شملتـها عمليات الفـرز والانخراط وانتخابات مجالس ومكاتب الخلايا والقسمات ، فقد تجنبنا الاعتماد على المفاهيم البالية التى تجعل النضال فى الحزب أو النهوض بالمسؤوليات فيه عمليـة انسانية أو مهمة شرفية ، بل التزمنا بتطبيق الميثاق الوطنى نصا وروحا الذى أكد على أن عضوية الحزب لا يستطيع الحصول عليها الا أولئك الذين يكافحون باصرار من أجل انتصار الاختيار الاشتراكي ، ومقتنعون بمبادىء حزب جبهة التحرير الوطنى، ويلتزمون بتطبيقها وينذرون انفسهم من أجل تحقيق مثلها العليا .

وقد أمكن بفضل تلك العمليات تنقية القاعدة النضالية من كل العناصر ذات الماضى المشبوه التى تمكنت بطريقة أو بأخرى من التسرب الى صفوف الحزب ، كما أمكن فى نفس الوقت فسح المجال أمام كل من تتوفر فيه مقاييس النزاهة والكفاءة والالتزام لتحمل المسؤوليات النضالية فى الهياكل القاعدية .

وهكذا فان الجهود التى بذلت فى اعادة تنظيم الحزب وبناء هياكله قد مكنت من ارساء أسس متينة لحزب طلائعى يستمد قوته من قوة تنظيمية وانضباط مناضليه وتحليهم باخلاقيات الثورة واستقطابه كل الكفاءات المخلصة الملتزمة لقضايا الجماهير.

أيها الاخوة المناضلون :

اذا كانت هذه لمحة سريعة عن الحصيلة العظيمة لما انجزته الثورة وقيادتها وفى فترة قصيرة لابد أن تستحضرها الذاكرة ونحن فى هذه الوقفة التاريخية حتى يدرك الجميع أن الثورة كما قال المناضل هوارى بومدين « قد كبرت وامتدت الى جميـع المجالات » ، وان التفاتة فاحصة للماضى لتبعث العزة فى النفوس وتعزز الايمـان والثقة بالمستقبل المزدهر لخير هذه الثورة .

ولكن كل ذلك أيها الاخوة لا ينبغى أن ينسينا ـ ونحن بصدد دعم قوة الدفع الرئيسية للثورة الا وهى حزب جبهة التحرير الوطنى ومؤتمره الذى ستنبثق عنه

القيادة السياسية العليا للبلاد ـ ان الاعتزاز والثقة لا تعنى الاخلاد للراحة والاستهانة بالمشاكل الطبيعية الناجمة عن سرعة التنمية ، وتعدد جبهاتها ، والاكتفاء بالتغنى بما تم انجازه لاننا فى هذه الحالة قد نقع صرعى الغرور والتوانى ، ويفلت من أيدينا زمام المبادرة فى وقت نحن فى أشد الحاجة الى تكثيف الجهد ومسابقة الزمن ٠

وفى هذا السياق تبدو لنا آفاق المستقبل جلية واضحة في محاورها الكبرى ومهامها الاساسية فقد رسم الميثاق الوطنى الاهداف وحدد الوسائل وجعل من الاشتراكية اختيارا لا رجعة فيه فى اطار من الوحدة الوطنية الصلبة والاستمرارية الثورية والديمقراطية المركزية ، واننا لواثقون بأن شعبنا الذى برهن دائما على نضجه السياسى وعبقريته الخلاقة سيكون أكثر تمسكا بتلك الوثيقة الايديولوجية التى ارتضاها ووضع فيها خلاصة تجاربه ، وانبل ما فى تاريخه النضالى من قيم وحدد فيها آماله ، ان هذا الشعب قد كذب بالتفافه حول حزب جبهة التحرير الوطنى كل التنبؤات الحاقدة على ثورتنا وحملات التشويه والتشكيك التى تروجها الرجعية وعملاؤها حول جزائر الغد بتضخيم النقائص التى لا يخلو منها أى عمل ثورى طموح خاصة اذا كان بهذا الحجم الذى حققته الثورة الجزائرية ٠

ان جزائر الغد لن تكون الا متدادا أفضل لجزائر اليوم وانطلاقا أسرع فى تحقيق الانجازات واستكمال الاهداف التى وضعت الجزائر أسسها وسارت فيها أشواطا بعيدة ٠

ففى المستوى السياسى تشير الدلائل الى أن تجديد هياكل حزب جبهة التحرير الوطني وتوسيع قاعدته النضالية وانتخاب قياداته من القاعدة الجماهيرية المناضلة وتاطير كل قوى الثورة ٠ سيكون دفعا ثوريا قويا لتحقيق الاختيارات الايديولوجية الكبري المحددة فى الميثاق الوطنى وتهيئة كل الظروف الموضوعية ليكون حزب جبهة التحرير الوطنى دليل الثورة والقوة المسيرة للمجتمع والكفيلة بنقل الثورة من المحتوى الديمقراطى الشعبى الى المحتوى الاشتراكى الكامل ولهذا فان حزب

جبهة التحرير الوطنى ينبغى أن يضم فى صفوفه أكثر المناضلين كفاءة ووعيا والتزاما بقضايا الجماهير ، ذلك أن قضية الكم والكيف تطرح اليوم بطريقة صارمة لا مجال فيها للخطأ ، وسوء التقدير ، فبقدر ما يجمع الحزب بين صفوفه من كفاءات ملتزمة ومدركة لابعاد المعركة التى تخوضها الجزائر ضد التخلف والامبريالية بقدر ما تحسم المشاكل وتبتكر الحلول ، وتظهر آثار العمل الجاد وتعطى مردودها المطلوب .

وفى مستوى مهام البناء الاقتصادى يجب أن يكون هدفنا الاول هو التحكم فى استراتيجية التنمية الشاملة فى جوانبها المادية والاجتماعية والثقافية واطلاق العنان لمواهب الخلق والابتكار والابداع والتجديد وتحقيق توازن كامل بين كل القطاعات واعادة ترتيب الاولويات فى اطار المخطط القادم ، اننا نعتقد جازمين بأن التنمية الاقتصادية ليست مجرد عملية تقنية تلخصها الارقام والاحصاءات فحسب بل هى أيضا فى نظرنا معركة اجتماعية وسياسية وثقافية لا تعطى ثمرتها الكاملة الا اذا ارتكزت على الجماهير المؤطرة باعتبارها الوسيلة والغاية ولانها صاحبة المصلحة الاولى فى التنمية .

وفى هذا النطاق يجب أن يتواصل العمل حسب توجيهات الميثاق الوطنى لتاكيد استقلالنا الاقتصادى والاعتماد اساسا على امكانياتنا الذاتية واحكام السيطرة على ثرواتنا الوطنية وكل موارد الطاقة وتنمية الصناعات الثقيلة والخفيفة والاستفادة الى أقصى حد ممكن من احدث ما توصلت اليه الانسانية فى ميادين العلوم والتكنولوجيا المعاصرة مع الأهتمام أكثر بتكييفها مع واقعنا الوطنى واحتياجاتنا الاساسية حتى تحتل بلادنا مكانها اللائق فى التنافس القائم اليوم فى مجال الاكتشاف والاختراع وتطويع التقنيات وتشكيل المحيط .

وينبغى أن يندمج التصنيع والتحديث التكنولوجى فى قطاع آخر لا يقل عنه أهمية الا وهو تعزيز مكاسب الريف الجزائرى وتوسيع منجزات الثورة الزراعية بواسطة مقاومة زحف الصحراء واحياء الاراضى واستغلالها والاستفادة القصوى من الثروة المائية

واستخدام التقنيات الحديثة فى العمل الفلاحى كلما تطلب الامر ذلك والوصول بهياكل التوزيع والتسويق والتخزين الى درجة من التنظيم والاتقان تمنع الازمات المفتعلة وتحقق لنا الاستقلال الغذائى الذى تتخذ منه بعض الدول والهيئات ورقة ضغط وأداة تهديد .

ان القرية الفلاحية وما يدور فيها من نشاط اقتصادى واجتماعى وثقافى سوف لن تكون فى المستقبل مجرد محطة بين مدينتين بل مركز اشعاع ونهضة حقيقية يصنعها نسان الجزائرى وتحمل ملامح شخصيته وتعكس مدى قدرته على التغيير والتعمير .

وفى مستوى الاجتماعى الثقافى ، يتعين على الثورة ان تواصل جهودها لرفع مستوى الحياة للفرد والجماعة والعناية الكاملة بالاسرة الجزائرية وحمايتها ماديا ومعنويا اذ لابد من اعطاء اهتمام خاص للجانب التربوى وبناء الاسرة الجزائرية فى اطار يصون قيمنا الاسلامية النبيلة وتقاليدنا الوطنية الاصيلة وينسجم مع المثل الاشتراكية ويتيح ازدهار شخصيه الفرد والمجتمع بدون جمود وبدون انحلال وتفسخ .

وبدون شك فان حجر الزاوية فى بناء الاسرة والخلية الاساسية للمجتمع هى المرأة التى بدون ترقيتها وترسيخ رصيدها ومكانتها فى الثورة يظل جهدنا التربوى ناقصا ومبتورا .

وهنا لابد من العمل وبدون انقطاع لاستئصال المفاهيم المختلفة تجاه المرأة والتى تؤدى أحيانا الى تعطيل طاقاتها وشل مساهمتها المطلوبة فى الحياة السياسية للبلاد وفى المهام التى تعود اليها بالدرجة الاولى ، كما يجب مكافحة مظاهر السلوك والتصرفات الانحلالية المتناقضة مع القيم الاشتراكية وشن حرب ضد جميع مظاهر الانحراف والتشرد لان الامر يتعلق فى النهاية بتحقيق انسجام وتكامل حقيقيين بين بناء الاساس المادى للمجتمع الاشتراكى وبين بناء انسان هذا المجتمع .

هذا وستاخذ مشكلات السكن والصحة والنقل طريقها الى الحل بمضاعفة الجهود المبذولة حاليا استجابة لما حدده الميثاق الوطنى من مهام عاجلة وينسحب هذا المجهود

المكثف أيضا على ميدان الثقافة والتعليم ويتجلى ذلك فى ضرورة توفير كل الشروط اللازمة لتعزيز الثورة الثقافية وتشجيع الابداع الوطنى فى الفنون والآداب وابراز أفضل ما فى تراثنا العربى الاسلامى من قيم ومآثر .

ان ترقية الثقافة وتحسين أدواتها المقروءة والمسموعة والمرئية وجعلها فى متناول الجماهير الكادحة يعتبر فى نظرنا استثمارا ستكون له نتائجه الايجابية على كل الفئات الاجتماعية ولا ريب ان هذه العملية تسير فى خط مواز لما تبذله الجزائر من جهود لتعميم التعليم ومحو الامية نهائيا بوسائل ينبغى ان تكون أكثر ثورية واعمق تأثيرا وأوسع شمولا ، فديمقراطية التعليم ورفع مستواه الكيفى واعطاء أهمية خاصة للتربية والتعليم المستمر والتكوين التقنى فى كل الاختصاصات التى تحتاجها البلاد ستكون شغلنا الشاغل اذ من خلال نصوص الميثاق وتوجيهات القائد الراحل هوارى بومدين سيعمل حزب جبهة التحرير الوطنى على وضع استراتيجية تربوية دقيقة ومفصلة تشمل كل مراحل التعليم وتثرى مضمونه وتجعله يتركز أكثر حول انشغالاتنا الكبرى ويعكس واقعنا ويعطى للثقافة الوطنية ابعادها الحقيقية باعتبارها أداة لاستعادة الهوية الوطنية وطريقا للاخذ والعطاء مع الحضارة الانسانية .

ان الطابع الاستيطانى للغزو الفرنسى كلف الشعب الجزائرى تضحيات لا تحصى، فقد تعرض المواطنون لموجات متلاحقة من اغتصاب الاراضى ، واجلاء أهلها عنها الى المناطق القاحلة ليعيشوا نهبا للفقر والحرمان وفى ظل هذه الظروف القاسية اضطر العديد من الجزائريين للسفر الى ما وراء البحر طلبا للرزق ، ولكن سياط الاستعمار والتفرقة العنصرية ظل يطاردهم فى ديار المهجر حيث واجهوا ابشع أنواع الاستغلال والاستعباد ، وبالرغم من تلك الظروف القاسية التى كانوا يعيشون فيها ظلوا مرتبطين ارتباطا وثيقا بوطنهم ومدركين بان محنتهم هى جزء من المحنة الكبرى التى يعانى منها الشعب باكمله .

ومن أجل ذلك كان عمالنا فى المهجر فى طليعة الذين لبوا نداء جبهة التحرير الوطنى للكفاح من أجل الاستقلال واستعادة السيادة الوطنية .

ولقد ظل مشكل الهجرة منذ التاسع عشر جوان 1965 من الاهتمامات الاساسية للقيادة الثورية حيث تواصل العمل على المستوى الوطنى من أجل توفير الشروط الموضوعية لعودتهم الى أرض الوطن وادماجهم فى حركة التنمية الاشتراكية التى تشكل الحل الجذرى لمشكلات التخلف والتركة الاستعمارية الثقيلة .

وفى هذا الصدد ينبغى مضاعفة الجهد لتوفير الامن لهذا القطاع الهام من شعبنا وحماية شخصيته الوطنية من اخطار المسخ والذوبان وهذا بطبيعة الحال يتطلب الاسراع بتوفير وسائل وشروط العودة الكاملة .

اننا ونحن نتحدث عن الانجازات العظيمة والافاق الواسعة لثورتنا ، نسجل بكل فخر واعتزاز الدور الطلائعى الهام الذى قام به الجيش الوطنى الشعبى ـ سليل جيش التحرير الوطنى ـ فى معركة البناء الاشتراكى وترسيخ هياكل الدولة الجزائرية

فلقد ظل هذا الجيش الذى يجسد بحق استمرارية ثورة نوفمبر وعبقرية شعبنا وفيا لاصوله الاجتماعية ولمهمته التاريخية فلم يكن جيش ثكنات ورتب وألقاب بل كان عليه أن يبقى فى طليعة المعركة لبناء الوطن ودعم وحماية الاستقلال ، انه جيش انبثق من الشعب وسيظل فى خدمة الشعب ولا يمكن ان يكون جيش الثكنات أو يبقى على هامش المجتمع .

واننى لفى غنى عن سرد المهام التى قام بها الجيش الوطنى الشعبى لان اسمه أصبح مقترنا بجميع معارك البناء التى خاضتها البلاد والمتمثلة فى ثوراتنا الثلاث الزراعية ـ والصناعية ـ والثقافية .

وفوق هذا كله أصبح الجيش الوطنى الشعبى مدرسة لتكوين الاجيال الصاعدة وتأطيرها وتربيتها وتغذيتها بايديولوجية الثورة وهذا من خلال الخدمة الوطنية التى تستوعب جميع ابناء الشعب .

ان ثقل واعباء مهام البناء الوطنى والدفاع عن الوطن والثورة ، لم تجعله يتخلى عن واجباته القومية ، وهكذا شارك جيشكم المغوار فى المعركة ضد الصهيونية ، فكان له شهداؤه الذين جسدوا بالتضحية وبالدم وحدة المصير المشترك ، كما أكد وحدة المعركة فى سبيل الحرية من خلال تقديم الدعم لحركات التحرير المكافحة ضد الاستعمار والعنصرية والغزو فى القارة الافريقية وحتى يعزز دور الجيش الوطنى الشعبى كدرع للثورة الاشتراكية فانه يتحتم مواصلة الجهد الكبير لتقوية قدرات الجيش الوطنى الشعبى وتكييفها مع التكنولوجيا الحديثة ، وامتلاك كامل القدرة على استخدامها ، وان ترقية القوى الاجتماعية للثورة وتوسيع قاعدة التعليم لابناء الفلاحين والعمال سيمكن من المحافظة على المنابع الاجتماعية لهذا الجيش ويمده بخامات هامة .

أيها الاخوة المناضلون :

لقد حرصنا بتوجيهات من الرئيس الراحل هوارى بومدين طوال الفترة القصيرة الماضية على وضع القواعد الاساسية لحزب جبهة التحرير الوطنى وعملنا على توفير الشروط الموضوعية لانطلاق حوار ديمقراطى بين المناضلين فى كل المستويات وتهيئة كل الاسباب الكفيلة بتوسيع القاعدة الحزبية وتقويتها . فاذا كنا قد ادينا الامانة كمناضلين على احسن وجه فان ذلك هو الغاية المثلى التى سعينا اليها ورجونا بلوغها ولقد ظلت الارادة الصادقة هى رائدنا فى العمل وظل تحقيق تطلعات الجماهير الشعبية الى حياة أفضل هو المشعل الذى ينير طريق نضالنا .

وها نحن بعد مسيرة من النضال الشاق تحمل فيه جيل نوفمبر مسؤوليات ثورة البناء والتشييد وتحدياتها الضخمة قد وصلنا الى هذه اللحظة التاريخية لحظة انعقاد المؤتمر الرابع لجبهة التحرير الوطنى ومعنا خلاصة الجهد الذى بذلناه خلال هذه السنوات الطويلة المليئة بالعمل من أجل تحقيق أهداف الثورة والتى تميزت

بالجهود المتواصلة لتجديد هياكل الحزب ومنظماته الجماهيرية قصد توفير شروط نجاح هـذا المؤتمـر ٠

أيها الاخــــوة المناضلون :

لقد توجت المسيرة بانعقاد هذا المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطنى الذى يعتبر ـ بحق ـ بداية مرحلة جديدة فى حياة الثورة وباعتبار مؤتمرنا هذا هو صاحب السيادة والسلطة المطلقة فى تقرير مصير البلاد والثورة فان انعقاده اليوم ينهى مهام مجلس الثورة كقيادة سياسية تحملت اعباء البناء الوطنى فى ظروف شاقـــة وصعبة منذ 19 جوان 1965 رغم المصاعب ورغم التركة الاستعمارية الثقيلة استطاعت ان تواجه مع كل المناضلين المخلصين وبحزم التحديات العديدة فى الداخل والخارج، وان تحقق مع كل المخلصين انجازات حضارية ضخمة ان لم تبلغ بعد كل طموحات الثورة فانها ارست صرح دولة اشتراكية ديمقراطية قوية بمؤسساتها متحررة من سيطرة الاحتكارات ونفوذ الامبريالية ، دولة مهابة ومسموعة الكلمة ٠

ويحضرنى فى هذه اللحظات الخالدة ونحن نتأمل مكاسب وانجازات 19 جوان العظيم رفاق لنا مناضلون أوفياء سقطوا شهداء الواجب الذى أدوه بكـــل أمانـة واخلاص وتفان ولم يكتب لهم ان يعيشوا معنا هذا الحدث العظيم ٠

وهكذا بعد ان انتهت مهمة القيادة السياسية فاننى أعلن من هذا المنبر عـــن انتهاء مهام رؤساء اللجان المركزية للحزب واعضائها وكل المعينين فى المهام السياسية بالجهاز المركزى للحزب وسيبقى الآن على الهيئات التى ستنبثق عن مؤتمركم الموقر اختيار الرجال الذين يتحملون مسؤولية قيادة البلاد فى المرحلة القادمة والانتقال بالثورة من ارساء بنياتها القاعدية الى تحقيق الاهداف المرسومة فى الميثاق الوطنى عبر آفاقه القريبة والبعيدة ٠

وفى هذه اللحظات التى تنطلق فيها أشغال المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطنى لا يسعنا الا ان نقف اجلالا وخشوعا لروح فقيدنا المناضل هوارى بومدين

الذى كانت أعز امانيه ان يحضر هذا الحدث الوطنى العظيم ليقدم عصارة جهـــده وخلاصة تجربته النضالية من أجل تدعيم مكاسب الثورة ، غير انه وان كان غائبا عنا ستبقى ذكراه تحثنا جميعا على التحلى باخلاق الثورة والتمسك بمبادئها والحرص على استمراريتها ٠

واذ اتوجه بالشكر لكل الذين ساعدونى على أداء مهمتى كمسؤول تنفيذى لجهاز الحزب وسخروا كل ما فى وسعهم من جهد ووقت ، فانى انوه أيضا بقيادات المنظمات الجماهيرية التى وجدت لديها كل العون والتفهم للتغلب على كل الصعاب التى واجهتنا ونحن نعيد بناء هذه المنظمات ٠

وأخيرا أحيى بكل حرارة هذا المؤتمر التاريخى وأتمنى مخلصا ان تكلل أعماله بالنجاح وتنبثق عنه قيادات تكون فى مستوى مهام هذه المرحلة الحاسمة لتواصل السير بخطى ثابتة وايمان راسخ لاستكمال أهداف الثورة وتطبيق الميثاق الوطنى ٠

عاش حزب جبهة التحرير الوطنى ،

عاشت الثـــورة الاشتراكيـة ،

المجـد والخلـود لشهدائـنا ٠

احترام الشرعية الدستورية
وتطبيق الميثاق الوطنى



ألقى المناضل الشاذلى بن جديد، اثر انتخابه من قبل المؤتمر الرابع لجبهة التحرير الوطنى أمينا عاما لحزب جبهة التحرير الوطنى والمرشح لرئاسة الجمهورية ، كلمة شكر فيها المؤتمرين على الثقة التى وضعوها فيه ، واعرب عن تقديره للمسؤولية التى أسندت اليه ، وقال :

سأعمل على مواصلة السير فى الطريق الذى رسمه الرئيس الراحل هوارى بومدين ، من أجل تعميق الاختيار الاشتراكى الذى لا رجعة فيه ، والحفاظ على استقلالنا الوطنى بمفهومه الواسع .

وأعرب الامين العام للحزب ، عن عزمه على تدعيم حزب جبهة التحرير الوطنى ، والعمل على تطبيق الميثاق الوطنى نصا وروحا .

وقال : ان اختيارنا الاشتراكى لحكيم وسليم ، والدليل على ذلك اليقظة والوعى بالمسؤولية التى تحلى بها شعبنا خلال الظروف الاليمة التى مر بها .

وقد برهنت مؤسساتنا الوطنية على أنها تقوم على قواعد متينة وصحيحة .

واختتم الاخ الشاذلى بن جديد كلمته مؤكدا عزمه على احترام الشرعية الدستورية وتطبيق الميثاق الوطنى الذى يعد الوثيقة الاساسية لايديولوجية حزب جبهة التحرير الوطنى ، ودعا المناضلين فى كافة المستويات الى مساعدته فى أداء مهمته .

عروبــــة واســـلام



اختتم الدكتور بوعلام بن حمودة رئيس المؤتمر ، وعضو المكتب السياسى ، ووزير الاشغال العمومية ، اشغال المؤتمر الرابع لجبهة التحرير الوطنى بالكلمة التاليــة :

ها نحن قد وصلنا الى نهاية اشغالنا بعد خمسة ايام من المداولات وبعد ان استنفدنا جدول اعمال المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطنى .

فماذا أزيد على خطاب رئيس الدولة والمسؤول التنفيذى لجهاز الحزب والمقررين الـ 41 والمتدخلين فى المناقشة العامة وعددهم 65 .

فاذا أردتم أن أضيف شيئا أقول : كلهم طالبوا بتطبيق الميثــاق الوطـــنى والدستور ، وكلهم أعلنوا الوفاء للخطة التى رسمها المرحوم الرئيس هوارى بومدين.
فيا بومدين ، كملنا المسيرة وبلغنا الهدف الذى كنت تسعى اليه وما زالت ترن فى آذاننا الكلمات التى كنت تقولها لنا فى مقابلات :«أريد أن أعطى الجزائر مؤسسات لا تزول بزوال الرجال ... » .

المكاسب الثورية لن يستطيع أحد أن يرجع عنها » .

« أمنيتى أن يتوصل المؤتمر الى انتخاب قيادة سياسية قوية منسجمة ترفع مشعل الثورة الاشتراكية لتسلمه تدريجيا من جيل الى جيل » .

ذلك ما كان يكرره الرئيس الراحل .

ومن العدل والانصاف ان ننوه بكل ما قام به رئيس الدولة السيد رابح بيطاط ، والمسؤول التنفيذى لجهاز الحزب ، السيد محمد الصالح يحياوى ، ومجلس الثورة وجهاز الحزب واللجنة الوطنية لتحضير المؤتمر من أجل عقد هذا المؤتمر .

ومن العدل والانصاف أن ننوه و نعترف بالجميل لرئيس الدولة والمسؤول التنفيذى لجهاز الحزب وأعضاء مجلس الثورة والوزراء والاطارات الذين عملوا جنبا لجنب ومنذ 19 جوان 1965 مع المرحوم هوارى بومدين ، لكسب المعارك الهامة لصالح الجزائر ولصالح الطبقات الكادحة .

والمؤتمر نجح أيضا بفضلكم أنتم أيها المؤتمرون والروح الديمقراطية التى سادت والجدية والموضوعية التى وسمت التقارير والتدخلات والمشاركة الفعلية فى نشاط اللجان إذ ساهم فيها 3000 مؤتمر تقريبا .

وقد عشنا لحظات مؤثرة حينما استمعنا الى النشيد الوطنى والى نشيد « من جبالنا » هذين النشيدين اللذين ذكرانا بالرفاق الذين كانوا معنا والكثير منهم الآن تحت الثـرى .

وفرحنا بالمؤتمرين وهم يتسابقون الى تسجيل أسمائهم للمساهمة فى اللجان أو النقاش ، كما تأثرنا بصراحتهم تأثرا عميقا .

باسمكم جميعا أشكر جزيل الشكر كل الذين عملوا ليل نهار لضمان أمننا وأكلنا ونقلنا وكتابة وتوزيع الوثائق ونشر الاخبار .

بفضل هذا المؤتمر أصبح لدى حزب جبهة التحرير الوطنى قانون أساسى منسجم مع الميثاق الوطنى ، قانون أساسى يحدد طبيعة الحزب وأهدافه ويخضع سيره للمركزية

الديمقراطية والجماعية ، التى تقتضى الجماعية فى المداولة والاغلبية فى القرار والوحدة فى التنفيذ ، قانون أساسى يصف تنظيم الحزب فى مستوى الحى ومكان العمل ، فى مستوى البلدية والولاية، وعلى المستوى الوطنى وقد بين القانون الاساسى اختصاصات كل هئة ، وأشار ان أن النشاط السياسى فى الجيش الوطنى الشعبى له نظـام خاص والى أن المنظمات الجماهيرية امتداد للحزب ومنبع تجنيد مناضليه ٠

ان مؤتمركم انتخب لجنة مركزية ستكون هى الهيئة العليا للحزب ما بين مؤتمرين وها هى اللجنة المركزية عادت اليكم بالامين العام الذى انتخبته وهو المجاهد المناضل السيد الشاذلى بن جديد ٠

كما صادق المؤتمر على عدد من القرارات السياسية والاقتصادية والاجتماعيـة والتربوية والاعلامية والثقافية والتنظيمية كلها منبثقة من الميثاق الوطنى ، ومن بين القرارات التنظيمية الح المؤتمر على ضرورة اتمام عملية انتخاب هيئات الحزب على أساس الاحكام الجديدة فى القانون الاساسى وذلك قبل تاريخ 19 جوان 1980 ٠

فهنيئا للمؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطنى الذى دعم استمرارية الثورة الاشتراكية وكان وفيا لشعاره « تطبيق الميثاق الوطنى والوفاء للخطة التى رسمها المغفور له الرئيس هوارى بومدين » ٠

باسمكم جميعا نقدم للامين العام ولاعضاء المكتب السياسى واللجنة المركزيـة تهانينا الخالصة بمناسبة انتخابهم ونتمنى لهم مزيدا من الانتصارات فى مسيرة الثورة الاشتراكيـة ٠

واذا راعوا فى تنظيم الحزب والدولة مقاييس الالتزام والكفاءة والنزاهة فلا ريب أنهم ناجحون ٠

وفى النهاية أرجوكم أن ترددوا معى معالم ثورتنا :

ـ عروبة واسـلام ،

ـ الميثاق الوطنى والدستور ،

ـ ثـورة اشتراكيـة ،

- من الشعب وللشعب ،
- ثورة زراعية ،
- ثورة صناعية ،
- ثورة ثقافية ،
- توازن جهوى ،
- طب مجانى ،
- خدمة وطنية ،
- تطوع لخدمة الثورة ،
- مجالس شعبية ،
- مجالس عمالية ،
- جبهة التحرير حزبنا الوحيد ،
- الجيش الوطنى الشعبى درعه العتيد ،
- المنظمات الجماهيرية سنده الشديد ،
- الجزائر مكة حركات التحرير ،
- الجزائر تناهض الامبريالية والصهيونية والعنصرية والرجعية والاستعمار ، والاستعمار الجديد والاستغلال ٠

أرى أمامى لافتة تذكر كلمة للرئيس بومدين منحه الله رحمته الواسعة فرددوها معى :

« لقد كنا ومازلنا وسنبقى مناضلين ، فى جبهة التحرير الوطنى واليوم أكثر من أى وقت مضى » ٠

- **رحم الله الشهداء الابرار ،**
- **رحم الله الرئيس هوارى بومدين ،**
- **يحيى حزب جبهة التحرير الوطنى ،**
- **والله أكبر ٠**

تأكيـــد أصالتنـا وانتمائـــنا
العـــربى الاســـلامى

قبيل الانتخـابات الرئاسيـة ، وبالضبط يوم الثلاثاء 6 فيفرى 1979 ، أدلى الاخ الشاذلى بن جديد ، الامين العام لحزب جبهة التحرير الوطنى والمرشح لرئاسة الجمهورية، بحديث الى وكالة الانباء الجزائرية ، ننشر فيما يلى نصه الكامل :

س : عاش شعبنا فى الشهور الاخيرة فترة عصيبة ، ما هى العبر التى نستخرجها من هذه الفترة الصعبة ؟

ج : كانت حقيقة فترة صعبة ، ولكنها اكدت بان الشعب الجزائرى يتمتع بالنضـج السياسى العميق الذى مكنه من تجاوز المحنة ، فاعطى بذلك برهانا جديدا على وعيـه وأصالته ، ودليلا ساطعا على فهمه العميق لمعنى الوفاء للمبادىء وللشهداء ، وكان موقفه هذا صفعة جديدة للذين استهانوا بالشعب الجزائرى ولم يقدروه حق قدره ٠

ومن جهة أخرى فان كل مؤسسات الدولة قامت بدورها كاملا ، فى اطار الشرعية ، وكان هذا دليلا جديدا على ان الجزائر ، منذ التصحيح الثورى بقيادة الرئيس بومدين رحمه الله ، قد نجحت فى بناء دولة حقيقية ، تتوفر على المؤسسات والهياكل الاساسية التى تضمن الاستمرارية ، رغم الاحداث وزوال الرجال ، وهذا مكسب كبير من مكاسب الثورة : اجتاز بنجاح ، المرحلة الصعبة التى مرت بها البلاد ٠

ورغم الحملات المسمومة والدعايات المغرضة فقد أثبتت القيادة السياسية بأنها كانت في مستوى المسؤولية التاريخية ٠ وهكذا ، ورغم صعوبة المهمة ، أمكن الوفاء بالعهد ، وعقد المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الذى كان بحق ، مؤتمر الاستمرارية الثورية ، والوحدة الوطنية ، وكان جديرا بالشعار الذى رفعه وهو : « تطبيق الميثاق الوطنى والوفاء للرئيس بومدين » ٠ ولقد قامت القوى الاساسية للثورة بدورها كاملا، وكان هذا دليلا على ان هذه القوى الاساسية من عمال وفلاحين ومجاهدين وجنود ونساء وشبيبة هذه القوى أصبحت فعلا الضمانة الرئيسية لاستمرارية الثورة ولحماية مكاسبها ٠

س : نحب أن نقف قليلا عند تعبير استمرارية الثورة ٠ ما هو مفهومكم له ؟

ج : لقد وضعت الثورة ايديولوجيتها من واقع مسيرتها الطويلة المظفرة ، وكان الميثاق الوطنى هو ثمرة المسيرة التى حققت الاستقلال ، ثم واصلت الجهاد الاكبر بعد انتهاء الجهاد الاصغر ٠

وكلنا يذكر المناقشات التى دارت حول الميثاق الوطنى ، الذى صادق عليه الشعب الجزائرى فى 1976 ، ومن هنا ، فان استمرارية الثورة تعنى بكل بساطة ، تطبيق الميثاق الوطنى نصا وروحا ، والخطوة الأولى فى اختيار الرجال الذين يتمتعون بالمقاييس التى نص عليها الميثاق الوطنى ، لان الاشتراكية لا يمكن أن يطبقها الا الاشتراكيون الاكفاء الملتزمون النزهاء ٠

استمرارية الثورة ، معناها ان نستكمل عملية التحويل الجذرى للارياف فى اطار الثورة الزراعية ، معناها ان تستكمل الثورة الصناعية بكل أبعادها لربح معركة الانتاج والانتاجية ، على أساس ان العمل حق وشرف وواجب ، معناها أن تتحقق الثورة الثقافية بمفهومها الشامل ، لنتمكن من بناء المجتمع الجديد ، مجتمع الرفاهية والعدالة والمساواة ، وتكافؤ الفرص بالنسبة لجميع العاملين ، ووضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ٠

معناها ان نضمن البيت للمواطن ، والمدرسة للطفل ، تسليم المشعل الى الجيل

الصاعد الذى تشبع بروح نوفمبر ، وبهذا نكون أوفياء لشهداء نوفمبر ٠

استمرارية الثورة معناها ممارسة النقد الذاتى الذى يمكننا من تصحيح أى خطأ ، وتلافى أى انحراف، واتخاذ الاجراءات اللازمة لكى لا يذهب النقد البناء صيحة فى واد ٠

استمرارية الثورة معناها ، ان نؤكد اصالتنا وانتماءنا العربى الاسلامى ، وتفتحنا على العالم من حولنا ٠ معناها أيضا الا ننسى التزامنا مع القضايا العادلة ، وان نؤكد تعلقنا بعدم الانحياز ، كاختيار رئيسى من اختياراتنا الثورية ٠ وبجملة واحدة ان نحقق الوفـــاء للعهـد بتطبيق الميثاق الوطنى وهذا هو الخط الذى رسمـــه الرئيس بومدين ، وهذا هو الخط الذى سنسير عليه ، طبقا لارادة شعبنا ٠

س : استعملتم فى كلمتكم القصيرة أمام المؤتمر تعبير الاستقلال بمعناه الواسع ، ماذا تقصدون ؟

ج : الاستقلال ليس مجرد علم يرفع ، أو نشيد وطنى يعزف ، ولكنه مفهوم عميق يشمل مختلف مجالات الحياة ٠ ولا معنى للاستقلال بدون استقلال اقتصادى ، ولا ضمان للاستقلال الاقتصادى بدون استقلال مالى ٠

ومن أهم ضمانات الاستقلال المالى ، ان يكون انتاجنا أكثر من استهلاكنا ، لان الاقتصاد ليس مجرد ادوات تقنية يستعملها الاختصاصيون بل هو حقيقة يوميـــة يعيشها كل مواطن ، ولابد من المحافظة على خيرات البلاد وتنميتها لتتمتع بها الجماهير الكادحة وليجد المواطن فى أسواق بلاده كل احتياجاته الاساسية٠

الاستقلال بمعناه الواسع يتنافى مع أى نوع من أنواع التبعية سياسية كانت أم اقتصادية أم فكرية ٠

الاستقلال بمفهومه الواسع معناه أن نتعامل مع الجميع واضعين نصب أعيننا مصلحة الشعب الجزائرى أولا وقبل كل شىء ، لا نخضع لاى ضغط ، ولا نستجيب لايـة مساومات حول المبادىء التى نؤمن بها ٠

كل شىء قابل للنقاش ، الا المبادىء ، ونحن من أجل التعاون مع كل من يرغب فى التعاون معنا على أساس الاحترام المتبادل وضمان المصالح المشتركة ٠

س : هل من كلمة للشعب الجزائرى ؟

ج : أعتقد ان الشعب الجزائرى يعرف واجبه جيدا ، واذا كان لابد من كلمة ، فهى كلمة تحية لهذا الشعب ، الذى أعطى العالم كله صورة رائعة للوعى ، والوفاء ، وروح المسؤولية ، واعطى للذين حاولوا التشفى فيه درسا لن ينسوه ٠

واننى اعتز بالثقة التى منحتنى اياها القوى الحية للامة من عمال وفلاحين وجنود ومثقفين ثوريـين ٠٠٠

والمهمة صعبة وشاقة ولكننى أعتمد على الله ، وعلى ثقة شعبنا ومساعدة الجميع لكى يكون شعار الوفاء للشهداء وتطبيق الميثاق حقيقة واقعة ، ولكى نبنى معا جزائر المستقبل كما نريد لها ان تكون ٠ ولكى نتكلم قليلا ونعمل كثيرا ٠

الرئيس الشاذلي بن جـديد يؤدي اليمين الدستورية (*)



« وفاء للتضحيات الكبرى ولأرواح شهداء ثورتنا المقدسة ، اقسم بالله العلي العظيم ، أن أحترم الدين الاسلامي وأمجده ، وأن أحترم الميثاق الوطني والدستور ، وكل قوانين الجمهورية وأحميها ، وأن أحترم الاختيار الاشتراكي الذي لا رجعة فيه ، وأن أحافظ على سلامة التراب الوطني ووحدة الشعب والأمة ، وأن أحمي الحقوق والحريات الاساسية للشعب وأعمل بدون هوادة على تطوره وسعادته ، وأن أسعى بكل قواى من أجل تحقيق المثل العليا للعدالة والحرية والسلم في العالم » .

(*) الاخ الشاذلي بن جديد ، رئيس الجمهورية ، والامين العام لحزب جبهة التحرير الوطني يؤدي اليمين الدستورية بعد انتخابه

كل من الغرب والشرق (الأوروبى) متخلفان (1)

رأي آية الله الخمينى فى دور الدين فى الدولة

ترجمة وتعليق :
مولود قاسم نايت بلقاسم



لقد سبق لآية الله الخميني ان عبر عن تصوره للمجتمع الاسلامي بطريقة أوضح مما فعل فى التصريحات الصادرة عنه فى الاشهر الاخيرة والغالب عليها طابع الحذر الدبلوماسي،وذلك فى محاضراته التي كان يلقيها اثناء منفاه العراقي فى رحاب كلية الشريعة فى جامعة النجف الاشرف فى الستينات والتي جمعت باذن منه وصدرت فى بيروت بالعربية كتابا تحت عنوان : « الدولة الاسلامية » ، وهنا ننشر مقتطفات منه :

● عن السيطرة الاجنبية يقول :

« ان الاستعمار يريد منا أن نقتصر فى عملنا على الصلاة حتى لا ندخل معه فى صراع سياسي » .

---

1) عن المجلة الاسبوعية الالمانية الغربية « المرآة » (دير شبيغل) فى عددها الصادر فى 22 يناير 1979 ، ونحن اذ ننشر هذا المقال نأسف أن نترجمه عن ترجمة المانية لاصل عربي،هو كتاب الامام الخميني ،،، غير الموجود فى مكتباتنا ،،، العامرة !

« ان الاستعمار يريد ، ويقول لنا ذلك بكل صراحة : « صل ، أيها المسلم ، ما شئت ، إننا لا نريد منك الا نفطك ، أما ما تقنت به من صلاة فى مسجدك فلا يهمنا فى شيء ، ولا نعارض فيه اطلاقا ، اذ كل ما يهمنا هي ثرواتك المعدنية وأسواقك لمنتوجاتنا واستثماراتنا » ·



● **وعن الدور السياسي للاسلام يقول :**

« ان الغزاة الاوروبيين فرضوا علينا قبول قوانين جديدة ، لان الاسلام ، حسب رأيهم ، غير قادر على تنظيم الحياة اليومية ، وعاجز عن تنظيم المجتمع ، وقاصر عن اقامة حكومة ، من أى نوع كانت · فالاسلام ، فى نظرهم ، لا يعنى الا بحيض المرأة ، أو بسلوك الرجل مع زوجته فى مخدعهما . وباختصار: يرون ان الاسلام غير قادر على تنظيم المجتمع » ·

وفيما يخص التقدم يقول :

« عندما تحقق دولة صناعية انجازا جديدا فى الميدان العلمي أو التقني يحس الكثير منا بعجزهم ويرون أن قصورنا ذلك آت من ديننا ، وبالتالي ان ليس لنا من

مخرج من ذلك الوضع الا الغاء الاسلام وشريعته ، لنلحق بركب الامم المتقدمة ، وعندما نزلت بعض الدول فوق القمر ، تأكد أولئك الضعاف المترددون منا ان ديننا هو الذي منعنا من الوصول الى القمر !

« اني أود أن أقول لاولئك الناس ما يأتي : ليست قوانين الغرب ولا الشرق (الاوروبي) هي التي مكنت أصحابها من الوصول الى القمر ، لانه من المعلوم أنها قوانين متعارضة ومتناقضة من كتلة الى أخرى » ٠

« وفيما يخصني ، فأقول ان لهؤلاء وأولئك جميعا ان ينزلوا على سطح الزهرة أيضا ، ان شاؤوا ، ومع ذلك سيبقون جميعا،أي مواطنو الغرب والشرق (الاوروبي)، متخلفين ، لانهم غير قادرين على ان يحققوا فى مجتمعاتهم الفضائل الاخلاقية ٠ ان التقدم المادي الذي حققته تلك الشعوب كان على حساب التقدم الروحي ، انهم لا يزالون عاجزين عن حل مشاكلهم الاجتماعية ، لان حل هذه المشاكل والقضاء على بؤس الانسان متوقفان على تلك الفضائل الاخلاقية التي تفقدها مجتمعاتهم » ٠

● وعن الدولة الاسلامية يقول :

« ان الدولة الاسلامية تمتاز على النظم الدولية الاخرى بكون كل من الدول الملكية والجمهورية تتلقى دساتيرها اما من الملوك أو من المجالس النيابية ، بينما الدولة الاسلامية تلقت سلطتها التشريعية من الله سبحانه وتعالى ٠ ان الدولة فى الاسلام معناها : تحقيق الشريعة التي أوحى بها الله الى الرسول ، والخضوع لها » ٠

« وإذا كان الرسول قد توفى ، وهو الذي كان على رأس الدولة الاسلامية ، فمن الذي خلفه ؟ انهم الفقهاء ! انهم الائمة ورثة الانبياء ! » ٠

● وعن دور رئيس الدولة يقول :

« شرطان أساسيان قبل كل شيء ينبغي ان يتوفرا فى رئيس الدولة :

1) ان يكون عارفا بالشريعة الاسلامية ،

2) ان يكون قادرا على ضمان العدل ، لان هذين الشرطين هما عمودا الامامة ، وسلطة الفقهاء فوق سلطة الملوك ، والفقيه يفقد طهارته الدينية بمجرد تواطئه مع السلطان أو اتباعه » ٠

وعن تبرير علو سلطة الفقهاء كقضاة على رئيس الدولة يقول :

« ان الاسلام يحـــرم أن يكون السلطان ظالما . ومن هنا فمن واجبات الفقهاء ان يكشفوا مثل أولئك الحكام ، ويطردوهم من عروشهم ، ويشحذوا وعي الجماهير حتى لا تهضم حقوقها . واذا كنتم اليوم عاجزين عن الاطاحة بمثل تلك الدول ، فيجب عليكم على الاقل الا تسكتوا ، ولا أن تغضوا النظر عنها . بل قاوموا،وكافحوا مثـــل ذلك السلطـــان » .

(انتهت المقتطفات التى أوردتها المجلة الالمانية المذكورة).

واننا لنظن ان القارئ يحس معنا ، بقراءتها وباستحضار جهاد قائلها ، وهـــو آية الله روح اللـــه الخمينى ، انه ممن يؤمنون حقا بما يقولون ، وانه ليس ممن يقولون ما لا يفعلون ، وانه يستحق فعلا صفته تلك ، الامام ، التي ورثها عن الامام عـــلي ، كرم الله وجهه ، أو سيد علي ، كما كنا نسمع ونقول ، عندما كنا أطفالا ، حول الكانون (الموقد) ، فى ليالي الشتاء القارسة ،،، ونحن نستمع بتلهف الى القصص التي كانت ترويها لنـــا جداتنا !

واني لاظن ان الامام الاكبر ــ وهو الوحيد الآن فى العالم الاسلامي الذي يستحق هذه الصفة ! ــ آية الله روح الله الخميني قد أزاح جلباب المذلة ، والهوان ، والمسكنة عن جميع الائمة فى العالم الاسلامي ، على مختلف المستويات !

وكم نأمل ان يمتد هذا القبس الالهـــي ، الرباني ، الانساني الـــى جميع الائمة فى جميع انحاء العالم الاسلامي الواسع ، ليهزوا هذا المليار من البشر النائمين ، ذوي الامكانات القصوى اليوم ... ولكن ذوى المنزلة الدنيا فى العالم !

واننا لنكاد نحلم ، ونحن نستمع الى أخبار ايـــران !

وبخصوص استحقاق تسمية الامام ، لاي امام ، عن جدارة ، واحتمال وجود هذه النوعية ، فكم يحلو لنا ان نتمثل هنا ونختم بكلمة سبـــق لنا ان قلناها بهذا الشأن ، كمثل أعلى نرنو اليه ، ونود لو تحقق فى كل احد منا ، اذ كل مسؤول امام ، أي راع ، مسؤول عن رعيته ، عـــلى مختلف المستويات ، وهو الذى يتقـــدم الصفوف ، ويمثل القدوة ، ويـــؤم النـــاس !

ففي لحظة غضب ، وتأثر ، وحزن ، وأكاد أقول : يـأس ـ استغفر اللـــه ! ، لانه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ! ـ قلنا منذ سنتين في اجتماع للائمة بوهران (2)، مما قلنا ، ما يلي :

« ... ينبغي اذن أن تدركوا عمق هذه المسؤولية ، تدركوا مدى أهمية الواجـب الملقى عليكم ؛ وان لا تبقوا هكذا سلبيين ، مرتخين ، مفككي الاجـــزاء ، منحـلي الاوصال . ان تلك النسوة اللائي يسمين « الاخوات » لدى النصارى ، « السورات » ، يركبن على الدراجة ، ويقفزن ، ويطرن ، وانتم نائمون ؟ وانتم قاعدون ؟ ولا تطردون حتى الذباب عن أعينكم ؟ تسيرون هكذا مهلهلين ، مخلخلين ، مزعزعين ، مهزورين ؟ لا ! بل ينبغي ان تقفزوا قليـلا ، ينبغي ان تطيروا ، أن تتحركوا ، ان تستيقظوا ! ان مجنوننا يطير في السماء أفضل من النائم المرتخي ! اني أفضل ان أرى كلا منكم بثيابه في الهواء على ان أراه **مرتخي الاوصال ، مفكك الاجزاء،لا يطـرد الذباب عن عينيه** ، في المسجد أو غير المسجد ! ينبغي ان تنتعشوا قليلا ! ان تكونوا طبق ذلك المثـل الذي قاله عمر بن الخطاب رضي اللـــه عنه لاحد الشباب ، كما روته عائشة ، عندما التقى بأحد الشبان ، قال له عمر بن الخطاب ، وما أدراك من هو عمر بن الخطاب ؟ عندما مر به في احد شوارع المدينة ، والشاب مرتخ، الاوصال ، مفكك الاجزاء ، مثل الكثير منكم ، فضربه بعصاه على أم رأسه ، بدرته المشهورة ، وقال له : « ما لك مرتخ هكذا ، مالك تتماوت في مشيتك ! فقد أمتم علينا ديننا أماتكم الله ! » ، وأعطاه بالعصا على أم رأسه.

« **هذا ما ينبغي ان نستعمله معكم ، مـــا دمتـم هكذا أمواتا ، مفككي الاجزاء ، مرتخي الاوصـــال ، محلولين . مهلهلين ، مخلخلين . ينبغي ان تحيوا قليـــلا ، وان تضربوا المثل ، أن تعطوا القدوة ، أن تكونوا في حزم الامام علي ! خذوا الصفات التي تتمشى ، التي توافق ، التي تاتي من هذا الامام ! خذوا من الاسم مسماه عنه ، بـل مسمياته العديدة ! خذوا تلك الصفات ، صفة الامام الحـــازم ، الجـــازم ، القـــافز ، النشيط ، الحي ، الذي يحي الاخرين ، الذي يحرك ، الذي يهز ، الذي ينغـــز ، الذي ينعش ، وعند الضرورة ، الذي يصدم الغير ليثير فيهم الرعب حتى يبعث فيهم الحياة !**

2) في ليلة المولد النبوي الشريف سنة 1397 هـ (1 مارس 1977 م) ، نشرت في عدد 46 ـ 47 من الاصالة بتاريخ جمادى الثانية ـ رجب 1397 هـ (يونيو ـ يوليو 1977 م) .

« هذا ما نطلبه منكم ، هكذا ينبغي ان تكونوا ، جسما حيا فى الامة ، ولهذا قلنا لكم : كونوا الرعاة الوعاة ، لا الغافلين ، النائمين ، الراقدين،مع الزردة ، والوعدة ، والقعدة ، والرقدة ! (3) تحركوا قليلا ، كونوا الرعاة الوعاة ، والدعاة السعاة ! » .

فاذا كان هذا الكلام الحاد صحيحا بعض الشيء بالنسبة لكثير من أئمتنا هؤلاء فى الجزائر ، لا بالنسبة لجميعهم ، وهم الذين لم يتلقوا تكوينا جامعيا فى كليات الشريعة أو أصول الدين ، مثل غيرهم من البلدان الاسلامية، والذين أدوا رغم هذا بالنسبة لاغلبهم دورا ايجابيا لا ينكر، فانه ينسحب أكثر وينطبق أكبر على تلك العمائم الغمائم، في هذه الامة الغمة (4)، من «شيوخ الاسلام» و «مفاتيه» في عصور الجمود، والخمود، والهمود، وخاصة « علماء » اليوم الذين يطوفون حول القصور الاميرية ، أو الملكية ، أو الامبراطورية ، أو الجمهورية،كالببغاوات ، أو « العلماء الدواجن » كما سماهم الاستاذ عبد المجيد مزيان ، فيما سمعت ، همهم اصدار الفتاوي الادارية ، وتحرير البرقيات المنمقة ، تاييدا لخطى وبوادر ، مهما كانت للامة خدعا غوادر ، ولولا طابعها المأساوي لكانت أشبه بالنوادر !

ومن هنا فاننا مهما مجدنا هذا الامام الخميني ، وسابقيه أمثال الامام الكاشاني ، فلن نفيهم حقهم . فالخميني خاصة قد رد الاعتبار لعلماء الاسلام ، وشيوخه ، ومفاتيه ، ورد الاعتبار لرجال الدين عموما ، ورد الاعتبار للاسلام فى نظر الشعوب الاسلامية وغير الاسلامية ، بل والعالم بأسره !

وسوف يسجل له التاريخ هذه المأثرة ، وسيخلد له هذه المفخرة ، فلقد رد للقيم قيمتها ! وأعاد الحق الى نصابه ، والحياة الى مجاريها الطبيعية ! انه القبس الحي للامام علي ، كرم الله وجهه ! فليحي الخميني ، ولتكثر أمثاله فى ديار الاسلام !

نعم ، انهم حقا لآيات الله فى أرضه ، أمثال آية الله الشيرازي الذي،قاوم الانجليز مدة طويلة ، وآية الله الكاشاني ، الذي كان عضد الدكتور مصدق فى الخمسينات ، وآية الله الخميني بالامس واليوم ، وهو ابن شهيد وأبو شهيد ، وآية الله التلغاني ،

---

3) والهردة ، كما كان يقول امام آخر ، وهو عبد الحميد ابن باديس ، رحمه الله ، فى مقال له فى الشهاب تحت عنوان : « أزردة أم هردة ؟ » !

(4) كما كان يقول المرحوم الشيخ البشير الابراهيمى ، فيما سمعت .

وآية الله الازرشهرى ، الذى استشهد ، وهو يقلى فى الزيت مثل السمك ! وآية الله المنتظرى ، وآية الله شريعة مدرى ، وآية الله الروحانى ، وغيرهم من آيات الله العديدة أعضاد آية الله روح الله الخميني ، الذي أطاح بأكبر طغيان فى الشرق الاسلامي ، « وجعل فرائص الغرب ترتعد » ، كما كتبت ذلك الصحافة الغربية أخيرا ، وخاصة منها مجلة الاكسبريس الفرنسية فى عددها الصادر بتاريخ 27 يناير 1979 ·

وان ربك القادر على كل شيء، والذي يرزق الانسان من حيث لا يحتسب ، لقادر على ان ينعم على الاسلام اليوم بجعل آياته هذه تتجلى وتتعدد ، وعهود الاسلام الزاهرة تتجدد ، وحضارته تحيا وتتمدد ، والحواجز والعوائق أمامه تزول وتتبدد ، وجميع القوى فى الارض اليه تتحبب وتتودد ، وقبل التعرض له بأي شيء ألف مرة تتخوف وتتردد ، ورجالات الاسلام بدءا بنفسها ثم مع الغير فى الحق تتصلب وتتشدد ، قبل أن تنصح غيرها وتتهدد !

انه لواضح ان الامام الخمينى لديه كل فضائل الامام الاول ، صاحب السيف والقلم ، علي كرم الله وجهه ، ولديه الى ذلك التدبر والتدبير المحكمان ، وتلك الحيطة الشديدة ، والتقدير الصحيح للامور ، وذلك الاحتراز الحاد ، والتحليل الدقيق لموقف الخصم ، ومقابلة سوء الظن بمثله ، وتلك هي الامامة والسياسة !

فهو الامام علي ومعاوية فى واحد ، وهو الاشعري وابن العاص متكاملين ! انها لحقيقة ثابتة ان الذين نسميهم الشيعة والمعتزلة والزيدية والخوارج ، أجنح الى قول الحق ولو كانت تهددهم السيوف والطائرات والبوارج ، فهم دائما أحياء ، وحسهم السياسي مرهف ، وتعلقهم بالعدل والكرامة شديد ، ثم هم بعد ذلك وقبله الى الثورة دوما ميالون !

أما نحن وأنتم يا من نسميهم أهل السنة والجماعة ، المعروف عن أكثرهم بالقراءة والمشاهدة والسماعة (4)، أنهم العلماء الاجلاء الميامين ، المشهورون أخيرا برفع الاكف وقولة آمين ، وتأكيدهم دوما لذوى الساعة عميق الولاء ، مهما كانوا على شعوبهم هم عين البلاء ، فليلتكم زاهية هنيئة سعيدة ، واحلام لذيذة عن آمال الامة بعيدة ، طاب نومكم ، ولو تعذب قومكم ، الذي ضرب فيه الانحلال أطنابه ، وغرس فيه الاستدمار (5) أنيابه ، ويحرق الاستغلال الفاحش أجنابه ·

وكما يقول أبو زيد ، حسبما رواه ابن منظور فى لسان العرب :

دعوت الله حتى خفت أن لا   يكون الله يسمع ما أقول !

---

4) السماعة على وزن الجماعة: السماع !

5) كالاستعمار ، وزنا ومعنى ، ومن حيث المعنى أصدق ·

الاسلام فينا عريق ، ونحن فيه عريقون ، فهل نستورد حتى الأئـــمة !

احمد حماني
رئيس المجلس الاسلامى الاعلى



سيدى الرئيس ، ايها الاخوة المناضلون ،
السلام عليكم ورحمة الله ،
فى هذا اليوم التاريخى من ايام شعبنا ، وفى هذا المؤتمر العام الذى يعقده حزبنا ، حزب جبهة التحريـر الوطنى الذى قاد امتنـا سياسيا ، كمـا قادها جيش التحرير الوطنى عسكريا ، نحو الانتصار النهائى وطرد الغاصبين من البلاد ، ومحو آثار المستعمرين واستغلالهم للوطن ، وامام الاحياء من هؤلاء القادة والجنود مـــن السياسيين والعسكريين الامجاد ـ فى هذا اليوم يسر المجلس الاسلامى الاعلى أن يتقدم بهذه الكلمة المتواضعة ابلاغا لرأيه ومشاركة فى انجاح هذا المؤتمر • ذلك ان الاسلام لم يكن ـ فى أى يوم من الايام ـ غائبا عن مثل هذا الميدان ، بـــل ان الاسلام كان بروحه واشعاعه ونوره وبأخلاقه ومثله ـ حاضرا فى ميادين الكفـــاح ، كامنا فى النفوس ، له السلطة القوية عليها • وكان الحافز لها والوازع الى اعظـــم

نص الكلمة التى ألقاها الشيـخ أحمد حمانى ، رئيس المجلس الاســلامى الاعلى أمام المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطنى •

التضحيات والدافع المتين الى احدى الحسنيين : اما النصر فى الجهاد واما المـــوت والاستشهـــــاد ·

وكانت كلمة (الله أكبر) ينادى بها فى المعركة تفعل فعل السحر فى النفوس وتدفع بها الى استعذاب الموت والاستبسال · وانكم لتعلمون هذا وتشهدون بـــه · فليس اعتباطا أن تكون المادة الثانية من دستورنا تقول : (الاسلام دين الدولة) ، فان هذه الدولة الجزائرية دولة امة مسلمة ، قد اختارت لها الاسلام دينا ، وكانت فى السابقين الاولين اليه من بين الامم ، وذلك منذ ما يزيد على ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن ، يوم جاء به الاصحاب والتابعون ، وطردوا من بلادنا الروم المستعمرين ، وعرضوا الدين على أجدادنا هنا ، فأقبلوا عليه مسلمين ، وكون الاســـلام مـــن العنصرين أمة جديدة قوية متينة ، متآلفـــة متحدة العقيـــدة والاخلاق والمبـــادىء والعادات واللغة ـ لغة القرآن ـ والوطن للاحرار جميعا ، يتولى فيهم القيادة الكفؤ منهم ، يشهد لذلك ويبرهن عليهم القائد الفاتح طارق بن زياد الذى اجتاز البحر بجنده الاسلامى الى أوروبا ، وكان اول من غرس فيها معالم الحضارة والعلم والثقافة ورفع فيها مشعل النور ، وكانت أوروبا غارقة فى ظلام دامس ·

وهكذا كانت أمتنا وحدها ـ بين الامم التى اعتنقت الاسلام من غـــير العـــرب ـ هى التى أمدت الاسلام ـ منذ القرن الاول للهجرة ـ وهو خير القرون ـ بأحـــد الفاتحين الاولين ·

فالاسلام فينا عريق ، ونحن فى الاسلام عريقون : نحن فيه من أقوى شعوبه وأممه ايمـــانا ووفاء واخلاصا واستمساكا وكفاحا وجهادا · وكلما حاولت قـــوة معادية أن تغزونا ماديا وروحيا لتصرفنا عن وجهتنا، أو تذهب بريحنا باءت بالفشل وحاقت بها الهزيمة ، واسالوا التاريخ عن الروم ثم النورمان ، وعن الفرنسيـــين بعد الاسبان ، ينبئكم أن غزواتهم انتهت بالهزيمة والخسران ، سواء أقادها أبطال حرب فى الميدان ، أم قادها قسس يحملون الصلبان ·

ليس الاسلام مجرد طقوس كهنوتية ، ولا مظاهر زائفة ولا (دروشة) وتخريفا ، وجذبا وعتها • ولكنه دين الله القويم شرعه للحياة الدنيا وللاخرى وقال فيه : (**ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا**) • انه دين الروح كما هو دين المادة ، ودين العلم والحياة ، دين الحرية الكاملة فلا خضوع الا لله وحده • دين الديمقراطية فلا حكم الا بالشورى ، قال تعالى في المؤمنين : (**وامرهم شورى بينهم**) وقال للمعصوم عن الخطأ : (**وشاورهم في الامر**) • انه دين العدل المطلق قال : (**ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى**) انه **دين** التكافل والاحسان (**ان الله يامر بالعدل والاحسان**) •

ان الاسلام حرر العقول من التقليد والجمود ، وقبح فعل قوم دعوا الى الحق وترك الجمود والى التفكير فيما يقدمون على فعله ويدعون اليه فقالوا : (**انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون**) قال تعالى : (**قل او لو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم**) وقال : (**أولو كان اباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون**) ؟ •

ان الاسلام أول دين سماوى – وقبل كل قانون وضعى – حرر المرأة من الاضطهاد والظلم واعتبرها انسانا كاملا وقال فيها : (**ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف**) ••• وقال : (**للرجال نصيب مما اكتسبو وللنساء نصيب مما اكتسبن**) ••• وقال فيهن رسول الله (ص): (النساء شقائق الرجال) • ان الاسلام أول قانون حمى الضعفاء من الاقوياء ، والفقراء من الاغنياء، وقرر المساواة فى الحقوق والواجبات • الاسلام هو الذى قرر – قبل الثورة الفرنسية ، وقبل الامم المتحدة – أن الانسان حر فى عقيدته لا يكره على تغيير دينه اذ قال الله فى قرآنه : (**لا اكراه فى الدين**) وقال يامر نبيه أن يقول للكافرين : (**لكم دينكم ولى دين**) واذا امر الاسلام بقتل المرتد فلانه خائن مارق ، والخائن يقتل فى كل ملة وكل امة •

ان الاسلام هو الذى أنكر أن يضطهد الانسان للونه أو جنسه أو طبقته وقرر أن الناس متساوون فى الانسانية لا فضل لاحد على الآخر باللون أو بالجنس وانما التفاضل بصالح الاعمال قال تعالى : (**يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى**

وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم) وقال نبيه عليه الصلاة والسلام : (لا فضل لعربى على عجمى ولا لابيض على أسود الا بالتقوى) . وقد نفذ بالفعل هذه المساواة ـ والغوا كل تفرقة عنصرية ـ نبيه وخلفاؤه من بعده . ألم يقتص عمر بن الخطاب للغلام القبطى النصرانى من ابن حاكم مصر والفاتح العظيم عمرو بن العاص ، فمكنه من ضربه بحضور أبيه ـ وهو احد الصحابة الكبار ـ ثم قال له يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟

خبرونى : أين يوجد مثل هذا العدل والنظام اليوم ؟ أفى الشرق أم فى الغرب ؟ ان الاسلام قد حل كل مشاكل الحياة ووضع حدا لكل انحطاط ، وقمع كل فساد مادى او خلقى أو روحى . شهد بذلك كبار الكتاب والمفكرين من المشارقة والغربيين ، القدماء والمعاصرين . وقد ترك فينا رسوله عندما مات ما ان اتبعته البشرية فلن تضل أبدا : كتاب الله وسنته .

هذا هو الاسلام الذى عاشته أمتنا طيلة الاربعة عشر قرنا الماضية فحماها من الذوبان وصانها . ومنحها المناعة والحياة ، والحصانة ضد الآفات ، ودفعها الى جهاد فعال ضد كل عوامل الفناء .

بالاسلام نحن ـ فى الجزائر ـ أمة واحدة ، وشعب متماسك ، وجسد منيع ضد كل التيارات الغربية الفتاكة التى تهب علينا من أعدائنا فى الداخل والخارج . انه ترياق ضد كل النزعات الجاهلية والجهوية والعنصرية . الاسلام يوحدنا ويقتل فينا نزغات الشيطان . بغير الاسلام سنكون طوائف متشاكسة . فالاسلام فى الجزائر ضرورة قومية ، وصفة ـ فى الجزائرى ـ ذاتية ، ومصلحة وطنية عليا .

واللغة العربية لساننا القومى ، ولغة دولتنا الرسمية ، ومقوم ذاتى من مقومات شخصيتنا . فهى ـ فضلا عن كونها لغة الدين ـ لغة المعرفة والعلم والحضارة والرقى والثقافة والآداب الرفيعة . هى على كل حال لغتنا .

يستحيل ان نحقق استقلالنا الكامل ـ ونحن نتهاون بلغتنا ، ونشغلها بضرة

تغتصب حقوقها · وان بقيت السيادة للغة الاجنبية فسنجد ابناءنا ومثلهم العليا ـ فى الصحافة وفى الكتاب ، وفى الافلام والاداب ، وفى الفن والاذاعة والتلفزة ـ هى ما يرد من وراء البحار · لا يمكن أن يضعوا الانتاج الاهلى ـ بالفرنسية ـ مكان الانتاج الاجنبي المتفوق.فالواجب ان تكون لغتنا القومية هى لغة الثقافة والادب والعلم والفن ، كما يجب ان تكون لغة التقنية والتيكنولوجيا والعمل والخبز ، والحديث العادى · وانها للغة سامية راقية لا يتهمها بالعجز والقصور الاعدواوجاهل اومتجاهل غرور · وانها امام مشاكل التقنية والتيكنولوجيا العصرية مثل غيرها من اللغات التى لم يرق اهلهابعدالىمكانة أمم التيكنولوجية · بل انها افضل وضعية منهن لانها لغة مرنة غنية فى باب الاشتقاق · ومن البديهى أنه لا يمكن نقل شعب كامل الى لغة علم ولكن الممكن العملى هو نقل علوم الامم ـ من كل لغة وكل امة ـ الى الشعب ، وهذا ما تفعله الامم المستقلة الموفقة ·

اننا لم نجعل الاسلام فى الميثاق الوطنى . وفى دستورنا (دين الدولة) الرسمى لمجرد التحلية أو التزيين ، أو (بركة) وتميمة فقط · انما معنى ذلك أن يكون الاسلام متغلغلا فى نفوسنا ، وفى أسرتنا ومجتمعنا ، كما كان منذ حين وفى كل حين ·

علينا أن نحافظ على القرآن الكريم غضا طريا فينا ، وأن نعطى للعلوم والتربية الاسلامية الاهمية اللائقة بهما فى مدارسنا ، وفى كل مراحل التعليم لابنائنا ، من مرحلة رياض الاطفال والابتدائى حتى مراحل الجامعات النهائية.ويجب ان تعطى للتعليم الدينى الحصص الكافية ، وان تكون كل حصة منها أساسية لها اثر فى التفـوق والنجاح فى الامتحان أو الانحطاط والرسوب · ويجب ان تسند الدراسة الى معلمين واساتذة أكفاء ملتزمين ، امناء متدينين، مستقيمين فى سلوكهم ، بهذا وحده يكون أبناؤنا عارفين بالاسلام لا يخدعهم من يتحدث عنه بسوء من أعدائه أو من الجاهلين الاغبياء أمثال أولئك الذين يزعمون لهم ان الاسلام دين التخلف ، وان المتمسكين به

من الرجعيين ، بل هم عنوان الرجعية ! واعجبا ! كيف يتهم بالرجعية دين سفه رأى الذين اذا قيل لهم (**اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا**) أو قالوا : (**حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا**) فقال لهم (**أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ـ ولا يهتدون**) ؟ وقال (**قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم**) ؟

ان حصة واحدة أو حصتين فى الاسبوع أو فى الشهر لا تكفى للتعريف بالاسلام لابنائنا ۰ وخصوصا اذا كان لا اثر للمواد الدينية فى النجاح والرسوب.ان ابناءنا ينتهون من المرحلة الابتدائية وهم لا يحفظون الا قليلا من السور القصيرة ۰

ان التعليم الدينى كان موجودا فى الجزائر منذ القرن الاول للهجرة ، منذ ان بعث عمر ابن عبد العزيز (99 ـ 101 هـ) الفقهاء العشرة لتعليم اجدادنا ۰ ومن هذه المعاهد الدينية فى تلمسان وبجاية ما كان يأتيها الطلبة من أوروبا ۰ ومنها دخلت العلوم والحضارة اليها فى عصر النهضة ۰ وقد بقيت هذه المعاهد تؤدى وظيفتها العلمية حتى فى أحلك الظروف سوادا ، وأشدها بؤسا ۰ وحتى أثناء الثورة كانت تقوم بواجبها، يحميها جيش التحرير ، وتؤازرها بالعون والتأييد جبهة التحرير الوطنى ۰

ثم جاء الميثاق الوطنى فوحد التعليم ، وما كان يجول بخاطر أحد ـ اثناء مناقشة الميثاق ـ أن نتيجة التوحيد هى اختفاء التعليم الاسلامى بكل سرعة ۰ وانما كانت ارادة الجماهير ان يعمم برنامج التعليم الاصلى فى التعليم الدينى بجميع مدارس التعليم العام ۰

ان تصرفا غير حكيم فى كيفية تطبيق توحيد التعليم والقضاء على معاهد التعليم الاصلى بسرعة قد هدد القرآن بالاختفاء ، وأصاب طائفة من أبنائنا بظلم فادح ۰

لقد كان الصغار من حفاظ القرآن الكريم يجدون أمامهم معاهد التعليم الاصلى تحتضنهم ليواصلوا سيرهم عاديا فى كل مراحل التعليم حتى يصلوا الى الباكلوريا ويلجوا الجامعات ۰

أما اليوم فانهم اذا انتهى الواحد منهم من حفظ القرآن ـ وعمره عشر سنوات أو بضع عشرة سنة ـ وجد جميع مراحل التعليم ومدارسه موصدة أمامه ، ولا ذنب لهم الا انهم نذروا أنفسهم للقرآن ، فالى أين يذهبون ؟ وما الذى جنوه حتى توصد أمامهم معاهد التعليم ؟ وأين هى ديمقراطية التعليم ؟

ان طريقة حفظ القرآن وحده ثم الاقبال على تعلم قواعد العلوم وتحصيل المعارف من بعد هى احدى طرق التعليم قديما ، وهى طريقة اجدادنا المغاربة فى التعليم ـ كما ذكره ابن خلدون فى مقدمته • وبهذه الطريقة تعلم جميع علمائنا منذ القديم ، حتى عهد ابن باديس ورفاقه ، وبها تعلمنا جميعا • واذا كانت مدارسنا العامة لا تستطيع تطبيقها اليوم ، ويتعذر عليها تحفيظ القرآن للملايين فلا يجوز بحال أن تغلق أبوابها فى وجوه من نذروا أنفسهم لحفظ القرآن • ولقد كان الرئيس الراحل رحمه الله يكرمهم ، ويحضر ليلة السابع والعشرين من رمضان حفل توزيع الجوائز عليهم • وأشهد اننى عرضت عليه مشكلتهم ليلة 27 من رمضان 1398 هـ فتعجب من حرمانهم من مواصلة التعلم ، وقال بالحرف (سنحل مشكلتهم) ولكنه لم ينشب ان سقط صريع المرض ثم لبى نداء ربه ـ رحمه الله ـ وتركهم امانة فى اعناقكم •

وانها لمشكلة رهيبة تهدد هذه الطائفة من أبنائنا ، وتهدد القرآن ـ بالاعراض عنه ـ وتهدد الدين : ذلك لانه لا يكفى أن تفتتح أقسام فى التكميليات والثانويات والجامعات للتعليم الدينى ، اذ لابد لعالم الدين من حفظ القرآن ، فهذه الاقسام الدينية اما ستبقى شاغرة لا يؤمها أحد لزهده فى دراسة مادة لم يعد لها مادتها الاساسية ـ وهى حفظ القرآن • واما سيؤمها طلبة اختصاص وهم لا يحفظون شيئا من القرآن ، أو يحفظون قدرا لا يكفى للعالم المختص • ولا شك ان فى ذلك خطرا شديدا على الدين •

ان رئيس الدولة يقسم ـ كما فى المادة 110 من الدستور ـ بالله العظيم أن يحترم الاسلام ويمجده ، كما يحترم الميثاق الوطنى والدستور • وهو بهذا القسم ملزم

بحماية الميثاق والدستور من كل عدوان ، فمن البديهى ان يكون ملزما بحماية الاسلام وصيانته من كل عدوان • ولهذا يجب ان يختفى من مجتمعنا كل ما يوهن الاسلام واخلاقه فينا ، وكل ما يتعارض مع قواعده واحكامه • وكل اطارات الدولة وموظفيها السامين ملزمون بما التزم به رئيس الدولة •

أنتم ـ يا أبناء جبهة التحرير ومناضليها ، ويا قيادة الجيش وجنوده ـ الذين وضعتم الميثاق والدستور ، والزمتم رئيس الدولة بالقسم على حفظ ما جاء فيهما فالتزموا ذلك واحترموا الاسلام ومجدوه وكونوا حماته •

ان المجلس الاسلامى الاعلى يرى من القيام بواجبه ، والوفاء لمهمته أن يتقدم اليكم بالمقترحات الآتية :

أولا : ادخال التعليم الاسلامى بعقائده وعباداته ومعاملاته وسلوكه ومبادئه السامية فى جميع مراحل التعليم من رياض الاطفال والابتدئى حتى النهائى فى الجامعات والمعاهد والكليات • بهذا وحده يكون أبناؤنا على معرفة كافية بدينهم ويقتنعون انه دين العلم والسمو والرقى والحياة •

ثانيا : تعيين أقسام تخصيص فى الثانويات وشعب فى الجامعات للتعليم الاسلامى اسوة بأقسام التخصيص الاخرى ، واعطاؤها كل المزايا التى تعطى لاقسام التخصص •

ثالثا : المبادرة بفتح الجامعة الاسلامية أو الكلية الاسلامية وتعيين أساتذة أكفاء مختصين وفتح فروع لذلك فى جميع الجامعات وقبول الطلبة الاجانب فيها من ابناء الاقليات الاسلامية فى افريقيا وآسيا وغيرهما •

رابعا : العناية بحفاظ القرآن الصغار وحل مشكلتهم بما يسمح لهم بمتابعة دروسهم •

خامسا : العناية بتحفيظ القرآن والاذن لجمعيات شعبية (جمعيات المحافظة على القرآن) بمباشرة نشاطها ومعاونتها فى أداء مهمتها •

سادســا : اعطاء الحرية التامة للجمعيات الدينيــة ـ تحت اشراف وزارة الشؤون الدينية ومراقبتها ـ فى انشاء المساجد وجمع التبرعات لها والغاء القوانين والقرارات التى تمنعها من اتمام مهمتها،ومنها ذلك الذى يمنعها من جمع التبرعات الا برخصة خاصة تعطى مرة واحدة وليوم واحد فى السنة ٠

سابعــا : تكوين الائمة والعلماء تكوينا علميا كافيا بقدر يفى بحاجة الامــة ويعصمها من النقص وفساد التوجيه وحتى لا نصل الى درجة استيراد الائمــة أو دفن أمواتنا بدون صلاة ٠

ثامنــا : زيادة الحصص المسموح بها فى التلفزة والاذاعة وكل وسائل الاعلام الخاصة بالتوعية والارشاد والتوجيه الدينى الصحيح يتولاها اكفاء من علماء الدين والتربية وجعل حصة التلفزة الاسلامية حصة يومية ، فان المتدينين لهم حق يومى واضح فى التلفزة كما لغيرهم ٠

تاسعــا : تحريم رواج أو عرض كل ما يهاجم الاسلام وتعظيم شعائر الله وحمايتها فى كل انحاء الوطن من المسؤولين فى الدولة ومعاقبة من يستهين بها من الناس ، فان المسؤولين هم نواب رئيس الدولة الذى أقسم على احترام الاســلام وتمجيــده ٠

عــاشرا : احترام قواعد الاســلام ، وتعظيم شعائر الله وحمايتها فى كل أنحاء الوطن من المسؤولين فى الدولة ، ومعاقبة من يستهين بها من الناس ، فان المسؤولين هم نواب رئيس الدولة الذى أقسم على احترام الاسلام وتمجيده ٠

العلـم القسنطينى أثناء حكـم الحاج أحمد باى . آخر بايات قسنطينـة

د٠ عبد الجليل التميمي
أستاذ بكليـة الآداب والعلـوم الانسانية ، الجامعة التونسية



اثر سقوط (*) مدينة قسنطينة فى أكتوبر 1837 ، احتل الجيش الفرنسى الغازب القصبة وأهـم مراكز المدينة وعمد النقيب الاول دوكس (Doxe) من جوقة الشرف الاجنبي (1) لازاحة العلم القسنطينى ذي اللون الاحمر يتخلله سيف « ذو الفقار » ليعوضه بالعلم الفرنسى ذى الثلاثة ألوان (2) ٠

(*) نشرت هذه الدراسة فى **المجلـة التاريخية المغربية** ، عدد 2 ، تونس ، 1974 ٠ ونظرا لنشر الدكتور عبد الجليل التميمي مؤخرا كتابه باللغـة الفرنسية عن : **بايلـك قسنطينة والحاج أحمد باي 1830 ـ 1837** ، وادخاله عناصر جديدة على هذه الدراسة ، فاننا ننشر النص العربى الكـامـل لـها فى **الأصـالة** ٠ **الكاتب٠**

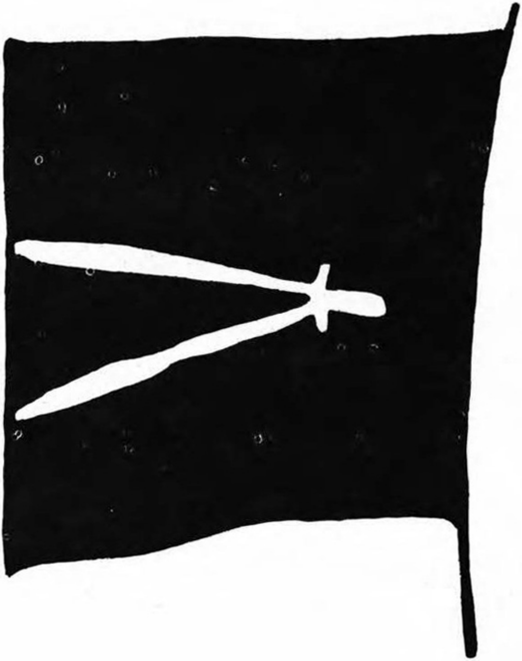
1) DURIEUX, J. Drapeaux conquis en Algérie de 1830 à 1847, p. 98 in, Mémoires sur l'histoire de l'Algérie au XIX siècle, Paris, 1931.

2) ESQUER, G. Iconographie historique de l'Algérie depuis de XVI siècle jusqu'à 1870, t. 3. fig. 501.

لا نملك عمليا اية دراسة حول الرموز والاختام بالجزائر ، ما عدا نشر عدد من أختام دايات الجزائر ، بدون تعليق من سنة 1515 الى 1745 من طرف :

DELPHIN, G. Histoire des Pashas d'Alger de 1515 à 1745, in, Journal Asiatique, Janvier- mars 15 p., Paris, 1925.

أنظر **رسـم العـلم** المصاحب لهذه الدراسة ٠



العـــلم القسنطيني

ESQUER, G. Iconographie historique de l'Algérie depuis le XVI siècle jusqu'à 1870, t. II, planche CCXVII, Paris, 1929.

ما هو المعنى الحقيقى البعيد لرمز هذا العلم القسنطيني ؟ لشرح هاته المسألة وجب تحديد بعض النقاط حـول ظهور سيف « ذو الفقـار » واستعمال اللـون الاحمر عند المسلمين الاول ثم بعد ذلك فى الامبراطوية العثمانية وخاصة فى بلدان المغرب العربي ·

يذكر الهلال الصابي (3) ان أشهر سيوف الرسول محمد التسعة هو السيف الذى تحصل عليه الخليفة الرابع علي ، وسمي سيف « ذو الفقـار » وهي التسمية الشرفية التى عـرف بهـا (4) ·

لماذا كان سيف الخليفة على ذا حدين (5) ؟

تذهب بعض الروايات الى أن هذا السيف تقلده الخليفة الرابع كعلامة اكـــرام وتقدير للمعارك الحربية التى خاضها تحت لواء الاسلام ، وأنه عندما استل السيف من غمده ، شق طرفه الى قسمين (6) · وتذهب رواية أخرى ان علي رضي الله عنه ، تمكن من اخراج السيف من غمده بفضل دعاء خاص ، وقيل أيضا ان هذا السيف كان ذا حد واحد عندما غرسه اعداؤه فى الغمد ، غير ان عليا قسم طرفه الى حدين عندما استله منه (7) · وقد أصبح سيف « ذو الفقار » معظما فى الاســـلام ورمزا عاليا للحرب والجهـــاد (8) ·

---

(3) هلال الصابى الذي اسلم ، كان احد كبار الكتاب العرب فى القرن الثاني ، راجع سامى ، شمس الدين ، قاموس الاعلام ، ج 6 ، ص : 4743 ، استانبول ، 1893 ·

4) HUGON Henri les emblèmes des Beys de Tunis, étude sur les signes de l'autonomie Husseinite, p. 62, Paris, 1913.

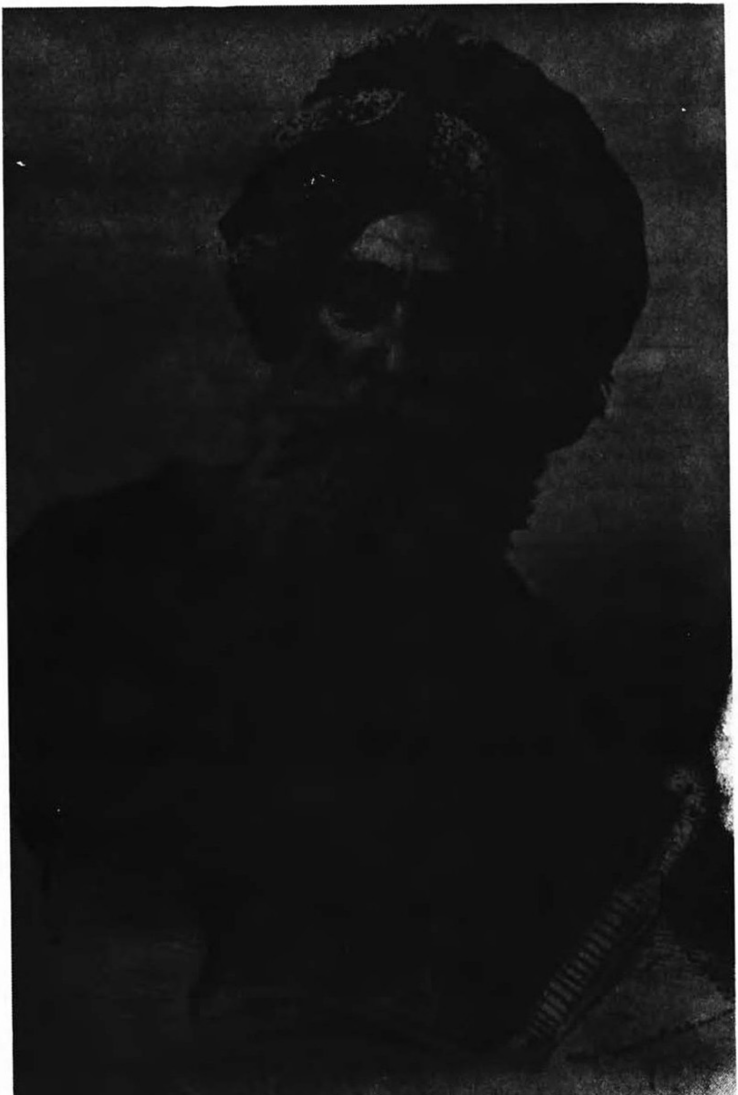
5) JAMMES René, couleurs, symboles et drapeaux du monde arabe p. 32, étude dactylographiée en 1955. in, Archives Nationales d'Outre-Mer à Aix-en-Provence, 8×244.

قدم هذا الشرح المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب ·

6) HUGON, op. cit., p. 62.

(7) المصدر نفسه ، ص 63 ·

(8) المصدر السابق ، مـــا زال سيف على حتى يومنا هذا مقدسا لدى الشيعة فى الكوفة وكربلاء فى العراق وايران ، حيث نلاحظ سيف « ذو الفقار » مع كل رســـم للخليفة علي ، ويذكر هوقون ، ان نعت « ضربة سيف سيدنا علي » التى أطلق على شق عمودى لصخرة بحمام الانف بتونس ، تبين بوضوح أن أسطورة فضائل سيـف « ذو الفقار » ما زالت منذ زمن بعيد ، حية وعالقة بالاذهان فى ولاية تونس ·



Hamed,

Bey de Constantine.

اختار الخليفة عمر والعثمانيون اللـــون الاحمر · وكانت اعلام الصبائحيين فى الامبراطورية العثمانية منذ القرن السادس عشر حمراء (9) · اما السلطان سليم الاول فقد استعمل الاعلام ذات اللون الاحمر والابيض عندما فتح مصر سنة 1517 (10) ·

وفى القرن السادس عشر ، احتد الصراع بين الامبراطورتين العثمانية والاسبانية وتعددت الحملات البحرية على دول المغرب فى البحر الابيض المتوسط واكتست بطابع ديني ، وقد نشط خير الدين بربروس فى انقاذ مسلمي الاندلس والدفاع عن الساحـل المغربي ، ولاكساء هذه الحروب بطابع الجهاد الدينى والدفاع عن المسلمين ضـــد « المشركين » تبنى علما أخضر يتخلله سيف « ذو الفقار » (11) · وكذلك درغوث باشا الذى دافع عن جزيرة جربة ضد الاسطول الاسباني سنة 1560 ، استعمل علما أخضر (12)

أما فى معركة سلنكمان (Slankomen) على ضفتى الدانوب سنة 1691 والتى تقـابل فيها حلف أود سبورغ (d'Andobourg) ضد العثمانيين ، خســر هؤلاء المعـركة وانسحبوا من الميدان ، وقد استولى الجيش المنتصر على علم تركي يتخلله هـــلال ومنجل والحقيقة هو سيف « ذو الفقار » (13) ·

أما السلطان سليم الثالث (1789 ـ 1807) ، فقد ارسل ، عندما استرجع مصر من الفرنسيين ، علما أحمر يتخلله سيف « ذو الفقار » وأمر برفعه على قلعـة الاسكندرية (14) ، مبرزا بهذا الاختيار معنى الدفاع عن المسلمين ضد « المشركين » ·

وفى الساحات العسكرية العثمانية ، نلاحظ ان كل فيلق له عـــلم ، نصفه احمر والنصف الآخر أصفر يتخللهما سيف ذو الفقار (15) · وبذلك نرى كيف ان العثمانيين

---

9) KOPROLU, Fuad, Bayrak, in, Islam Ansiklopedisi.
(الاعلام) المنشورة فى دائرة المعارف الاسلامية (باللغة التركية) ج 2 ، ص 417 ، استانبول ، 1942 ·

(10) المصدر نفسه ، قارن أيضا :
ETTINGHAUSEN, Hilal, in, Encyclopédie de l'Islam, nouvelle édition, t. 3, p. 396.
يذكر ان علم سليم الثالث هو عبارة عن منجل ذى اطراف متباعدة ، وتوجد بعض الكتابات القرآنية

(11) كوبرولو ، فؤاد ، نفس المصدر ، ص 417 ، ج 2 · راجع رسم هذا العلم بمجلة Turk Kulturu ص 118 ، عدد 117 ، جويلية/تموز ، 1972 ، انقرة ، 1972 ·

12) Eltore Rossi, Storia di Tripoli Tripolitania dalla conquista arabe al 1911, p. 150, Roma 1968.

31) ETTINGHAUSEN, op. cit., p. 396.

(14) كوبرولو ، فؤاد ، نفس المصدر ، ج 2 ، ص 417 ·

51) N. Weisseman, les Janissaires, p. 48, Paris, 1964.

والبحارة المغاربة قد عمموا استعمال العلم الاحمر الذى يتخلله سيف «ذو الفقار» فى سواحل البحر الابيض المتوسط لافريقيا . وفى القرن الثامن عشر ، كان علم الجزائر سيف « ذو الفقار » (16) .
احمر يتخلله مقص أبيض مفتوح أو علم أحمر يتخلله رأس جمجمة أو ذراع عار يحمل

أما فى تونس ، فهي الاخرى قد تبنت العلم الاحمر وسيف « ذو الفقار » ، وقد رفع هذا العلم على بواخر الباي محمود الحربية (1814 ـ 1824) (17) . وعندما احتلت قلعة الامبراطور بالجزائر يوم 4 جويلية 1830 ، انزل النقيب قوفروا (Geoffroy) العلم الاحمر الذي يرفرف على القلعة (18) . أما ابراهيم باي ، احد بايات قسنطينة ، فقد رفع علما أحمر ذا نصف هلال على قلعة عنابة يوم دخل قصبتها سرا واستولى عليها يوم 26 سبتمبر 1826 (19) . وشيخ الحنانشة كان يتمتع هو الآخر بامتياز رفع الاعلام والموسيقيين لخدمته (20) .

أما المشير أحمد باشا ، باي تونس (1837 ـ 1855) المعاصر للحاج أحمد باي قسنطينة ، والذى كان يجرى وراء كل ما يكسبه العظمة والهيبة ، فقد قرر ان يضع العائلة الحسينية تحت الشعارات الاسلامية عندما اتخذ للولاية علما أحمر يتخلله سيف « ذو الفقار » رافعا اياه على المحمدية وأهم البنايات الحكومية (21) .

ان بايلك قسنطينة الذى كان جزءا تابعا للحفصيين ، لم يفتأ خاضعا للتاثيرات الثقافية الواردة عليه من ولاية تونس ، فزيارات القسنطينيين الى مدينة تونس كانت اكثر ترددا منها على مدينة الجزائر ، ثم استمرار القسنطينيين على التعلم بجامع الزيتونة وكذلك الحج الى بيت الله ، كان يتم عادة عن طريق تونس ، وأخيرا العلاقات

---

(16) كوبرولو ، فؤاد ، نفس المصدر ، ج 2 ، ص 417 .

71) HUGON, op. cit., p. 63. قارن أيضا ، كوبرولو ، فؤاد ، نفس المصدر ، ص : 418 ـ 419 ويذكر انه فى أواخر عهد الانكشاريين فى مركز الامبراطورية العثمانية كان هؤلاء يستعملون الاعلام الحمراء والبيضاء والملونة يتخللها سيف ذى الفقار (كذا)

81) DURIEUX, op. cit., p. 92.

(19) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية بباريس ، المراسلات السياسية ، تونس ملف رقم 1 ، رسالة دى ليسبس DE Lesseps قنصل فرنسا بتونس ، الى وزير خارجية فرنسا بتاريخ 14 أكتوبر 1831 .

(20) أرشيف الحربية الفرنسية بفنسان (Vincennes) H 228 تقرير عن ولاية قسنطينة .

21) HUGON, op. cit., p. 64.

التجارية (22) التى عرفت نشاطا ملحوظا بعد احتلال الجزائر وعنابة ، كل هذه العوامل ساعدت علي خلق اتصالات مفيدة مع التونسيين وجعلت القسنطينيين يعملون دوما على معرفة وتتبع الجديد فى تونس .

ومن جهة أخرى ، كانت المدارس تقوم بدور حساس لهذا الاشعاع الثقافى والذى لم ينازع شهرته احد وحيث ان سمعة علماء وأساتذة قسنطينة كانت تجلب عددا كبيرا من الشباب الجاد (23) . ان هذه النخبة القسنطينية التى كسبت ثقافة اسلامية عميقة ، ارتبطت وتعلقت بمبادىء الاسلام والسنة وعملت مع الحاج أحمد باي ، آخر بايات قسنطينة على العمل بكل أوامر الاسلام ومحاربة « اعداء الدين » الذين احتلوا مدينة الجزائر وعنابة وعددا آخر من مدن الساحل الجزائرية . يكتب الحاج أحمد الى كاهية الكاف ، بعد احتلال قسنطينة : « نحن اسلام ومتكئين عليه وأنا واقف فى باب الجهاد » .

وعلى هذا الاساس اختار الحاج أحمد باي بالتعاون مع المجموعة القسنطينية علما أحمر يتخلله سيف « ذو الفقار » ، وان الحاج أحمد قد طلب الى احد التجار اليهود أن يطرز لهْ علما بترنس (25) ، وهو العلم الذى يؤكد كلوزال (Clauzel) القائد الفرنسى الذي قدم مهاجما على قسنطينة ، انه رأى علما أحمرا (كذا) مرفرفا على القصبة (26) .

وقد استعمل جيش الحاج أحمد باي الاعلام ورايات الحرب مصحوبة بجوقة

---

22) Tableau de la situation des établissements français dans l'Algérie en 1840, p. 364, Paris 1841.

يذكر ان قسنطينة كانت تستورد عن طريق تونس من الشرق البضائع التالية : الاقمشة الثمينة من استنابول والزرابى من آسيا الوسطى والحرير من سوريا والقهوة من مصر .

23) NOUSCHI, André, Constantine à la veille de la conquête française, p. 385, in, Les_cahiers de Tunisie, N° 11, 1955.

(24) أرشيف الدولة التونسية ، ملف رقم 384 ، صندوق 223 ، وثيقة رقم 23 ، وهي عبارة عن رسالة موجهة الى صالح بن محمد ، بدون تاريخ .

(25) أرشيف الحربية الفرنسية رقم H 226 تقرير محرر من طرف روسو بتاريخ 29 ـ 7 ـ 1836 ، ص 14 .

26) G. ESQUER, correspondance de M. Clauzel, t. 2, p. 296.

رسالة من كلوزال الى وزير الحربية الفرنسى بتاريخ 2 ـ 12 ـ 1836 .

الموسيقى (27) . وقبيل الحملة الفرنسية الثانية على قسنطينة ، كان الحاج أحمد باي يعلن يوميا انه وجب الدفاع عن المدينة ، وان الفرنسيين اذا نجحوا فى احتلالها ، فان الاهالى سوف يحرمون من بايهم وعلمهم (28) .

وفى القصر الذى بناه الحاج أحمد (29) كانت رسوم الاعلام التى تزين المبانى مبثوثة على القلاع وذات أحجام كبيرة جدا (30) .

لم يكن اختيار الحاج أحمد والمجموعة القسنطينية لعلمهم محض صدفة ، اذ هو يعكس الرغبة الروحية والدينية لعدد من القادة المسلمين الورعين والعاملين بمبادىء الاسلام لادارة شؤون شعوبهم . غير انه لا يغيب عنا أيضا ان شرح بعض الاتجاهات الدينية فى الاعلام كسيف « ذو الفقار » مثلا ، يمثل بالنسبة لعموم الشعب ، الصدق والمثل العليا والطريق السوى الذى يجب سلوكه .

ان الحاج أحمد خلال حكمه فى بايلك قسنطينة من 1826 الى 1837 ، قد حارب التوسع الفرنسى فى ولاية الجزائر ورفض رفضا قطعيا التفاهم أو التراضى مع الفرنسيين ، وفى نفس الوقت اتبع تعاليم الدين الاسلامى بحذافيرها . وقد اعتبر الحاج أحمد نفسه والمجموعة الاسلامية القسنطينية فى حالة جهاد « ضد الفرنسيين » وعليه اختاروا علما أحمر يتخلله سيف « ذو الفقار » .

ان العلم القسنطيني الذي يتخلله سيف « ذو الفقار » يرمز اذن الى معنى الجهاد ضد « الكفار » والى الايمان العميق بالدين الاسلامي وبمبادئه ويذكر بالانتصارات الحربية للخليفة على وللمسلمين ضد « أعداء الدين » .

ان وضع الباي الحاج أحمد السياسى وردود فعل المجموعة القسنطينية بعد احتلال الجزائر وقرار الحكومة الفرنسية باحتلال كل الولاية يؤيد بكل وضوح سبب هذا الاختيار الديني بادىء الامر ثم السياسى بعد ذلك لعلم بايلك قسنطينة أثناء حكم الحاج أحمد باشا باي .

---

27) M. Bonnafont, Douze ans en Algérie, p. 241.

28) G. Yver, correspondance du G. Damrémont, p. 431.

رسالة من المدنى الى الجنرال راباتال (Rapatel) بتاريخ 20 – 3 – 1837 .

29) Feraud, « Monographie du Palais de Constantine », in, Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de Constantine, 1867, pp. 1-96.

(30) المصدر نفسه .

مـواقف العائـــلات الارستوقراطيـــة
من محمد المقراني وثـورتـــه

وأحـداث أخرى من خـــلال الوثائـق
عن ثـــورة 1871

د· يحـيى بوعزيز
معهد العلوم الاجتماعيـة
دائرة التاريخ
جامعة وهـران



عندما تفاقمت مشاكل المقراني ، وتدهورت أوضاعه السياسية والادارية ، وبدأ يفكـر فى الثورة المسلحة ، عمل على تقوية صفه ، بتمتين علاقاته مع رؤساء العائلات الكبيرة فى عدة جهات من البلاد من مليانة غربا الـى الحدود التونسية شرقا ، وشرع فى ذلك منذ أواخر عام 1870 ، وتحمس أكثر بعد صدور نداء كريميو للجزائريين فى جانفي 1871 ·

ففى شهر أكتوبر عام 1870 مر بمدينة سور الغزلان عائدا من الجزائر العاصمة ، فاستضافه الآغا يحيى بن فرحات لمدة ثلاثة أيام ، اتصل خلالها بعدد كبير من الشخصيات الهامة وشرح لهم الوضع العام بالجزائر العاصمة وحكى لهم عن تهجمات الصحافة والاوروبيين ضد الجزائريين ، وحاول أن يتعرف على ميولهم فى نفس الوقت ، فتحمس

لافكاره محمد بن شناف وأخوه سليمان ، وتردد الآغا يحيى وتحذر (1) ·

وفور عودته الى مجانة أخذ يوسع اتصالاته ، وأرسل عددا من المبعوثين الى جهات كثيرة من ولايتي الجزائر وقسنطينة (2) · وقد ادعى بوسنر بأن المقراني اقترح على رؤساء العائلات الذين وجه اليهم مبعوثين ، أن يتحدوا معه لتأسيس جبهة قوية لمقاومة النظام المدني ، وحماية سلطاتهم وامتيازاتهم ، فاستجاب له البعض ، وتحفظ البعض ، بينما أبلغ آخرون الامر الى السلطات الفرنسية (3) · وروى ميرسيي بأن المقراني وجه ابن عمه السعيد بن بوداود قائد الحضنة ، مع الشيخ جنان بن دري ، الى بوسعادة لتشبيط الناس ومنعهم من التجند فى صفوف القوات الفرنسية التى كانت تجهز للحرب بأوروبا ، ونجحا فى مسعاهما (4) ، وتذهب بعض الروايات الى أن المقراني كان يتوفر على حوالى تسعمائة مخبر من بني عباس ، يقطنون بالمدن الساحلية ، ويزودونه بانتظام بالاخبار والمعلومات الكافية عن الاوضاع (5) ·

وهو ما اكده فلاح من بنى عباس لأحد المخبرين الفرنسيين بعد الثورة حيث ذكر الباشاغا كانت تترجم له بانتظام البرقيات التى ترد عليه من فرنسا والجزائر حول أحداث الحرب ، وكان يقرؤها هو على الناس ويشرحها لهم ، ونقل عنه بأنه قال لهم فى احدى المرات « ان كل البسكرية والبرانية بالجزائر العاصمة لا ينتظرون الا يوم العيد (6) للقيام بنزع سلاح اليهود ، وأن أصدقائى المخلصين لى هم الذين أكدوا لى ذلك ، واتفقوا معي على ضرورة القيام بالثورة ومنهم آغا مليانة سليمان بن صيام الذي قال لي : كن رجلا وسيطر على المنطقة الشرقية من البلاد ، فى حين أسيطر أنا على المنطقة الغربية الى تلمسان · وكذلك أولاد أوقاسى ، وأولاد زعموم ، وأولاد محيى الدين ، وباشاغا تيطري ، وكبار الغرازلة ، الذين كاتبتهم جميعا ، وأجابوني بالموافقة على رأيى » (7) ٥

---

1) Le Colonel N. ROBIN : L'Iinsurrection de la grande Kabylie en 1876 (Paris 1901) pp. 85 - 87.

2) LOUIS RINN : Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie (Alger - 1891) pp. 79 - 86.

3) POSENER : Adolphe Cremieux : grand citoyen français, grand défenseur au judaisme. Essai biographie (Paris - 1939) pp. 21 - 22.

4) ERNEST MERCIER : Le Bachaga Mokrani et les causes de l'instrrection de 1871 (Paris 1900) pp. 18 - 19.

5) V° Histoire de l'insurrection. Revue africaine (1871) pp. 29 - 83 et 374.

6) لعله يشير الى عيد الاضحى لعام 1287 (1871) الذى أشيع فيه بأن الجزائريين سيهجمون فيه على مدينة برج بوعريريج ، وكذلك العاصمة ، مما دفع سلطات سطيف الى تكليف الضابط دو شيرون بحفظ الامن فى البرج والاستعداد للطوارىء ·

7) RINN : deux documents indigenes sur l'insurrection de 1871. Revus africaine (Alger 1891) pp. 28 - 36.

وقد احتفظ المقرانى لنفسه بالدعـــوة للحرب فى غرب عمالة قسنطينة وكلف أخاه بومزراق فى منطقة ونوغة وسور الغزلان ، وصهره وابن عمـــه السعيد بن بوداود فى منطقة الحضنة وبوسعادة وأولاد نايل الجلفة جنوب شرق سور الغزلان · وكانت لعائلته صلات قوية بسكان التيطري وسور الغزلان ، وونوغة ، والشرفة ، وأولاد سيدي ابراهيم · وهي كلها مناطق أغلبها كانت تابعة لمنطقة عمله أو مجاورة لها ، وله فيها أنصار وأتباع كثـــيرون (8) ·

وعندما استقر المقراني فى جبل مريسان شمال مجانة بعد فشله فى السيطرة على مدينة البرج ، شرع فى مكاتبة هذه الشخصيات من أجل استمالتها واقناعها بالثورة وحمل السلاح مثله · ومن ضمن هؤلاء : شيخ بوجليل البشير بن كابه (9) · وقد أورد رين ترجمة رسالتين له وجههما فى اليوم الموالى لاعلانه للثورة ، الى كل من باشاغا تيطري بن يحيى بن عيسى ، وقائد قواد أولاد مختار الشراقة ببوغار ، والمدية ، على ابن عبد الرحمن ، أحاطهما علما بأنه فتح أبواب الجهاد فى سبيل الله ، وطلب منهما ألا يضيعا هذه الفرصة ، بعد أن تحسر على ضياع حياته وحياتهم هباء فى السابق · كمـــا أورد رين رسالتين للسعيد بن بوداود قـــائد الحضنة وجههما باسم الباشاغا ، احداهما الى على بن عبد الرحمن قائد أولاد مختار ، والثانية الى باشاغا الجلفة وأولاد نايل بلقاسم بللحرش ، وأخبرهما بثورة المقراني وحصاره لمدينة البرج ، وثورة الناس فى كل الجهات من قسنطينة الى سور الغزلان وبوسعادة (10) ·

ورغم أننا لم نعثر فى الاشيفات ، على كل رسائل المقراني الا أنه يمكن القول أن ثورته كان لها صدى وتأثير فى المنطقة الشرقية جنوب مدينة قسنطينة ، وهو ما أشار اليه هو قبل مقتله بأيـــام قليلة فى رسالته الى محمد بن منصور قـــائد أولاد بليـــل فى البويرة ، بعد الصدام الذي حصل حول تلك المدينة ، حيث قال : « وكيف يا عجب من سطيف الى بجاية والساحل جميعا ، ومن باتنة الى عندكم » جميعا حملوا الســـلاح وبقيتم أنتم مرادنا منكم تكونوا فى عون المسلمين » (11) ·

وقد ادعى رين بأن السلطات الفرنسية عثرت على رسالة للمقراني بمجانة موجهة للكبلوتي ، ولكنه شك فى صحتها لانها غير موقعة · وغير مختومة بطـــابع الباشاغا

---

8) ROBIN : pp. 102 - 106.
9) A. M. G. carton : H. 375.
10) RINN : Histoire pp. 190 - 192.
11) A. M. G. carton H. 191 dossier n° 11 lettres arabes.

الذي يعتد بنفسه ولا يتنازل لمراسلة شخص هو «قاطع طريق» حسب رأيي رين طبعا (12) .

غير أننا عثرنا فى أرشيف تونس على رســالة للمسمي أحمد بن حميدة بمنطقة الحدود وجهها الى الوزير التونسي خير الدين ذكر فيها : « أن الكبلوتي لا زال يكاتب فى أهل الغرب على أنهم يعملون معه فيما يفعل من الفساد » ، وأنه : « قد قيل انه كاتبه بن آغا وبن حداد بعمالة الاجانب وجرت بينهم المكاتب فى ذلك ولعله يتم لهم ما ذكر» (13) .

وعثرنا فى أرشيف قسنطينة على رسالتين لمحمود باش تارزي قائد أولاد سلطان ، وجهها للكابيتان لويس ريــن ، أخبــره فى الاولى بوصول أخبــار ثورة المقراني الى المنطقة عن طريق المسافرين من سطيف وغيرها · وأخبره فى الثانية بأن سكان عرش أولاد سلطان ثاروا « وعزموا على فعــل الفساد ليحملوا العرش كلــه على النفــاق » بزعامة رجلين من أولاد رحاب هما : سليمان بن علي بن عيسى ، وسحنون بن الغضبان بعد أن وصلتهم أخبار ثورة المقراني والحداد ، وتواطا معهم كبــــار الناس ، وعقدوا اجتماعا فى مكان يدعى : « عين البطمة » فى جبال أولاد رحاب وأولاد سلطان ، وكانوا « حوالى مائتين من الرجال » (14) ·

ولم يكتف المقراني بمراسلة رؤساء العائلات الجزائرية فقط ، بل انه كاتب صديقه ومقرضه القديم : مسرين ، وشكاله من الضابط بونفالى الذي يضايقه ويؤلب عليــه الصفوف ، ويثير ضده أبناء عمومته من أولاد عبد السلام حتى « لم يبق أمامه ســوى الثورة ، وأكد له بأنه سيضع أنف بونفالي فى الرغام ، وأنه : « سيموت حارا ولـــن يمــوت بــاردا » (15) ·

---

12) RINN : Histoire pp. 186 - 190.

13) ا· ج· ت· صندوق 212 ملف 240 وثيقة رقم 28 بتاريخ 14 جمادى الاولى 1288 (أوت 1871) · وقد عبر عــن الجزائر بعمالة الاجانب ، واكتفى بذكــر بن آغــه كلقب للمقراني ، وبن حداد كلقب للشيخ الحداد · راجع نص هذه الرسالة فى مقالنا بعنوان : مواقف الرسميين التونسيين من ثورة الصبايحية والكبلوتي فى منطقة الحدود الشرقية عام 1871 ، الاصالة عدد 60/61 · (الجزائر ــ أوت ــ سبتمبر 1978) ص 157 ــ 202 ·

14) ا· و· ق· ملف سماع الشهود (عام 1871) · رسالة رقم 4 بتاريخ 2 أبريل 1871 ردا على رسالة 27 مارس · ورسالة رقم 7 بتاريخ 18 أبريل 1871 · وعن هذا الموضوع أنظر دراستنا بعنوان : دور الاخوان الرحمانيين فى ثورة 1871 بمنطقة باتنة ، وأثــر المقراني والحداد فيها ، مجلة الثقافة ، عدد 38 (الجزائر ــ أبريل ــ ماي 1977) · ص 11 ــ 27 ◦

15) RINN : Histoire pp. 163 - 165.

وقد أورد الآغا بوزيد فى رسالته الى حاكم دائرة سور الغزلان ، كيف كان المقراني وأخوه بومرزاق يحاولان استمالة الناس الى الثورة بواسطة الرسائل والمبعوثين فى كل الجهات بالونوغة ، والشرفة ، وواد البرد ، وبني يعلى ، والقصر ، وبني مدور ، ومشدالة ، وتيطري ، وسور الغزلان ، وغيرها (16) .

بهذا الاسلوب حاول المقراني أن يدعم جبهته ولكن بدون طائل لان معظم الذين اتصل بهم وراسلهم رفضوا الاستجابة له . فأولاد بن قانة بالصحراء الشرقية أعلنوا معارضتهم له ولثورته فى رسالة وجهوها الى روستان بقسنطينة يوم 18 مارس وأكدوا فيها استعدادهم لحاربة المقراني الذي وصفوه « بالمجنون » (17) .

وفعل مثلهم محمد بن هني بن بوضياف قائد صحاري بسكرة فى رسالته الى روستان كذلك يوم 21 مارس (18) ، وسلم باشاغا تيطري رسالة المقراني الى الحاكم الاعلى الفرنسى فى المنطقة ، وقاد على بن عبد الرحمن حامل الرسالة الى رئيس المكتب العربي هناك .

وحتى وجهاء قسنطينة الذين نعتوا أنفسهم « بالحضريين » وجهوا أيضا ، حسب المصادر الفرنسية ، رسالة تأييد الى نائب الاميرال الكونت دوقيدون يوم 29 أبريل استنكروا فيها أعمال المقراني واخوان الحداد الرحمانيين الذين نعتوهم «بالبدويين» المحبين للتخريب وسفك الدماء ، والمعاديين للخير والفلاح ، وطالبوا بانزال العقوبات القاسية ضدهم (19) .

---

16) A. M. G. carton H. 375. تاريخ الرسالة 10 محرم 1288 (1 أبريل 1871) .

17) جريدة المبشر ، عدد 745 (6 أبريل 1871) .

18) نفس المصدر ، عدد 746 بتاريخ 21 ابريل 1871 .

19) لم نعثر على هذه الرسالة ، ولكن رين أورد ترجمة لها فى تاريخه (ص 214 ـ 215) . وكان من بين الموقعين عليها : أعضاء المجلس البلدي الثلاثة لمدينة قسنطينة وهم : علاوة بن الساسي ، وحموده بن الشيخ ، ومحمد بن باديس ، وقاض المدينة محمد ابن عزوز ، وقاض الضاحية المكي بن باديس ، والمفتى الحنفى سليمان بن ساردو ، والمفتى المالكي الطيب وادفال ، والنائب الثانى فى المحكمة الابتدائية الاولى الحاج الصغير بن كوجيك .

على أن المقراني ، وان فشل فى استمالة رؤساء العائلات الاوروستقراطية اليه ، فانه نجح فى استمالة الشيخ الحداد اليه باتباعه ، وهو مكسب هائل عوضه كل ما فقده فى الآخرين من تأييد نظرا للنفوذ الواسع الذي كان له على سكان جبال : جرجرة والبابور ، والبيبان ، وحوض وادي الصومام ، ووادي الساحل .

المدخل الى الوثائق :

وثائقنا فى هذه الدراسة ثلاثة عشر رسالة ، الثلاثة الاولى نشرت فى جريدة المبشر خلال القرن الماضي ، والعشرة الاخيرة لم تنشر أصلا . وأحداث هذه الرسائل متنوعة ، ولكنها تتصل كلها بمشاكل ثورة 1871 .

الاولى : نداء أدولف كريميو اليهودي ، وزير العدل ، والمكلف بشؤون الجزائر فى حكومة الدفاع الوطني الفرنسية بتور فى بوردو ، الى سكان الجزائر حاول فيه أن يبرر لهم الاسباب التى دفعت حكومة الجمهورية الفرنسية الى احداث تغيير فى النظام المطبق فى الجزائر ، ويقصد بذلك قرارات 24 أكتوبر 1870 التى نصت على الغاء النظام العسكري ، والمكاتب العربية ، واقامة نظام مدني ، وتجنيس يهود الجزائر بصورة جماعية ، وحتى يقنعهم بآرائه اكد لهم : « أن مقصود الدولة الجمهورية ومرغوبها هو ايصال النفع لعموم الناس وجلب الراحة والهناء مع استقامة أحوالهم فلذلك عزمت على تبديل القواعد الماضية والسياسية الجارية بما هو أحسن منها فى انتظام أحوال العامة » واعترف لهم بأن « هذه الدولة الجمهورية لا تنسى على مر الزمن خصال المسلمين الحميدة ومفاخرهم العديدة بسبب انتظامهم فى سلك عساكرنا وبذل نفوسهم فى نصرة جنسنا . وقتال عدونا » ووعدهم بأن تملك لهم الدولة الاراضى التى يعملون بها بصورة مطلقة على عكس حكومة الامبراطور التى وعدت بذلك ولم تنجز » (20) .

الثانية : رسالة أولاد بن قانة الى روستان بقسنطينة أكدوا له فيها بانهم كانوا أول من خدم الدولة الفرنسية منذ عام 1838 ، وسيبقون كذلك ، وابلغوه بانهم سمعوا بان : « محمد بن أحمد المقراني نافق » ضد الدولة ، « فما هو الا مجنون لا عقل له فها نحن بارئون (كذا) منه ونقاتله كما تقاتله الفرانصوية » وطلبوا فى الاخير نجدة من العساكر حتي يضمنوا أمن بسكرة (21) .

---

20) صدر النداء بتاريخ 14 جانفى 1871 ونشرته المبشر فى عدد 735 بتاريخ 21 جانفى 1871 .

21) المبشر ، عدد 745 بتاريخ 6 أبريل 1871 .

الثـالثة : رسالة محمد بن هني بن بوضياف قـائد صحاري بسكرة الى روستان بقسنطينة ذكر له فيها : « اننا سمعنا بباش أغا مجانة محمد بن أحمد خاب ظنه وخسر عمله مـع الدولة الافرنصوية وعاقب خيرها معه بشره اياها » ، وأكد له بأنه هو واخوانه يضعون أنفسهم تحت تصرفه « لخدمة الدولة الحميدة » و « لقتال من حاربها » ، وأنه خدم فرنسا باخلاص منذ ثلاثين عاما دون تبـــديل أو تغيير ، وساسة فرنسا يعرفون ذلـــك (22) .

الرابعة : رسالة محمد البشير قائد أهل العشر الى حاكم سور الغزلان الفرنسي أخبره فيها عن سرقة فرس لاحد الضباط الفرنسيين ، فى نفس الليلة التى اجتمع فيها عدد من القواد الذين حضروا من عمالة الجزائر ، لـــدى القائد عيسى بن العربي . وذكره بأن الاخير قبض على عدد من الناس يتجرون فى البارود ثم أطلق سراحهم (23) .

الخامسة : رسالة السعيد بن علي أوعيسى الى الجنرال لالمـان ، حـول الاسرى الاوروبيين الذي أسروا فى أحداث قرية بني هيني التى سماها الفرنسيون باليسترو ، وتسمى الآن بقرية الاخضرية . وقد اخبره فيها بأنه اتصل برسالته التى طلب منه فيها أن يحضر الاسرى اليــه واعتــذر له بقولـــه : « وفى هــذه الساعــة لا نطيــق نأتيك بهم نخاف عليهم واغتنم الفرصة فطلب منه الامان لنفسه ولقائد حرشاوة احمد ابن عيسى وأوضح له بان : « عدد الفرانسويين الذين عندى احدى وأربعون نفســا خمسة عشر رجلا فيهم قبطان الجيني (24) مسيو أجى واثنى عشر صبيا وأربعة عشر نساء فيهن واحدة توفيت » (25) .

السادسة : منشور الجنرال لالمان الى سكـــان دائرة دلـــلس يدعوهم فيها الى الاستسلام ، وقد أوضح لهم قائلا : « قد غلطوكم بعض من الناس الذين آمنتم فيهم من غير حق » وقالوا لكم بانه يمكن ان تسيطروا على المدن التى يقطن بها الاوروبيون . وأكد لهم بأن عكس ذلك هو الصحيح لان فرنسا تملـك الاسلحة والعساكر بكثـرة ، ودعاهم أن يتبصروا ، وأن يبقوا أصدقاء للامة الفرنسية (26) .

السابعـــة : رسالة القائد الهادى الى حاكم المكتب العربى بدللس أخبره بأنه اتصل بخبر من المدعو (الطاهر أوجيوة) يفيد ان الثوار سيقومون بهجوم واسع صباح غـــد

---

22) نفس المصدر ، عدد 746 بتاريخ 13 أبريل 1871 .

23) A. M. G. carton H. 375 documents provenant du colonel Robin.

24) اي ضابط الهندسة العسكرية .

25) A. M. G. carton H. 375.

26) A. M. G. carton H. 375.



الشكل رقم 1.ـ رسالة القائد الهادى الى القبطان ابيرحول ثورة أهل يسر

A O M Carton I 86

السبت على قرية يسر ، وأنهم كلهم الآن مجتمعين فى تامزيغت فى انتظار الغد ٠ وأخبره كذلك بأنهم تركوا الحراسة على الفرنسيين المحاصرين دون أن يذكر أين (27) ٠

الثامنة : رسالة اسعيد أو بن أبى القاسم الى الجنرال سيريز طلب منـه فيها أن يقرأ الرسالة المرفوقة بهذه الرسالة والتى كتبها له بالفرنسية رئيس الكتيبة التى كانت مرابطة بواد أخريص ٠ والتى مفادها انـه شارك فى مقاومة بومزراق ورجاله عندما حاول أن يهاجم برج هذا الوادى ٠ وتمادى بعد ذلك فى خدمـة السلطات الفرنسية ، واشترك فى معركة (السروج) فى نفس المنطقة ضد بومزراق ورجاله ، وبعد عـودته وجد منزله ومنزل اخيه أبى زيد الحاج عيسى عدل واد أخريص قد هاجمهما الثـوار ، وأخذوا أثاثهما بحضور الضابط الفرنسى الذى كان يعمل معه ، وبشهادته ٠ ومن أجل هذا طلب منه أن يمنحـه وظيفة أو نيشانا « لان كثـيرا من الناس الذين خدموا الدولة الفرنصاوية كمثلي سمعت أنـك أنعمت عليهم بنواشين (كذا) أو بواضايف (كذا) » ، وبرر لة ذلك بان عرشه يكرهه ولا يقبله بسبب خدماته للفرنسيين (28) ٠

التاسعة : شهادة استسلام بشروط لاولاد علي بن داود كتبها قائد فرقة الحضنـة بمعسكر المسلية على لسانهم ، حررت هذه الشهادة يوم 9 أكتوبر 1871 ، ونصت عـلى أن أولاد داود طلبوا الدخول تحت الطاعة ، وهم ينتمون الى منطقة سور الغـزلان ٠ وقبل قائد الفرقة العسكرية طلبهم بعد أن دفعوا له ، كعربون ، ألف فرنك نقود ، وخمس بندقيات ، وأربعة رجال كرهائن ، واذن لهم بالعودة الى وطنهم ، على أن يبت فى الامر بصفة نهائية الحاكم العام (29) ٠

العاشرة : رسالة سكان عرش صنهاجة الى الحاكم العام يطلبون منه التخفيف من ضرائب الحـرب ٠ وقد ذكروا له فيها بأن الضرائب التى فرضت عليهم تسببت فى بيعهم لكل ما يملكون زيادة عن حرق ديارهم ، واتلاف زروعهم مـن طرف القوات الفرنسية وأعوانها ، فتعرضوا للمجاعة والبؤس ، وطلبوا منه أن يعفيهم مما بقي عليهم مـن ضرائب الحرب ومبلغه « اثنى عشر الف دورو افرانصية سكة الدولة قد عسرنا فيها ولم نجدوا (كذا) ما نبيـع فى خلاصها » ٠ وحتى يستعطفوه أكثر قالوا له : « نخبرك ان الناس ابتدأوا بالموت من الجوع وان أردت سيدنا تبعث من تأمنه من قبلك يتضـح

27) A. O. M. carton I. 86.
28) A. M. G. carton H. 375.
29) A. M. G. carton H. 375.

حال الجميع » ، وطلبوا منه فى الاخير أن ياذن لهم بالخروج للاعراش العامرة ليبحثوا على مصدر للعيش (30) ·

الحادية عشرة : رسالة رئيس المكتب العربي الى سكان عرش بني عباس طلب منهم فيها أن يشرعوا فى حرث أراضيهم ، وأن يجتهدوا فى دفع ضرائب الحرب المفروضة عليهم ومبلغها : « مائتين وثمانية وخمسين الفا وأربعمائة وعشرة الكل فرنكية وثلاثة آلاف بنـدقية » (31) ·

الثانية عشرة : رسالة رئيس المكتب العربي الى سكان عرش بني مليكش طلب منهم ان يشرعوا فى حرث أراضيهم ويجتهدوا فى دفع ضريبة الحرب ومبلغها : « اربعة وتسعين واثنا عشر الف فرنكية وخمسمائة من النعن (؟) وثمانمائة بندقية » (32) ·

الثالثة عشرة : رسالة طلبة زاوية السيد عبد الرحمن اليلولى الى حاكم دائـرة أربعاء نايت ايراثن « فورناسيونال سابقا » ، حول مصادرة أرض للزاوية · وقد ذكروا له فيها بان للزاوية أرضا قرب واد بني عباس بجوار قرية أقبو بعقود صحيحة مـن زمن طويل ، يستغلونها فى الحرث والرعى · غير أن حاكم المكتب العربي بتيزي بعث اليهم صبايحيا منعهم من حرثها فاتجهوا اليه واشتكوا له فاعطى لهم ورقة ليحرثـوا أرضهم وقدموها الى حاكم المكتب فلم يقبل منهم ذلك ، ومنعهم مرة أخرى من حـرث الارض · ولذلك اتجهوا اليه مرة أخرى بقولهم : « أن تجعل لنا تاويلا عن بلدنا ونحرثها كما كنا فارطا وتسعى فى نيل مقصدنا قبل أن يفوت ابان الحرث » وحتى يزيلوا عنـه الشكوك فى موقفهم من ثورة 1871 قالوا له : « وأما النفاق ليس مدخل لنا فيه وقـد بقينا فى طاعتكم كما كنا فى السابق ، وليس عندنا من اشتغل فى وقت النفاق بشىء الا بالعلم والتعلم ولكن فان حصل لكم شك وريبة فيما قلناه لكم اسأل كافة الناس» (33) .

---

30) A. O. M. carton 2 H 75. بتاريخ 10 اكتوبر 1871

31) A. O. M. carton 2 H 75. بتاريخ 11 نوفمبر 1871

32) A. O. M. carton 2 H 75. بتاريخ 11 نوفمبر 1871

33) A. O. M. carton 2 H 81.

نصـــوص الـوثـائـق

الاولى : نـداء كريميو الى سكان الجزائر ·

الحمد للـــه وحــده (33) ،

اعلام من الحكومة القائمة بالدفاع لكافة سكان الاقاليم الجزائرية · لا يخفى على من له عقل سليم ورأي مستقيم أن مقصود الدولة الجمهورية ومرغوبها هو ايصـــال النفع لعموم الناس وجلب الراحة والهناء مع استقامة أحوالهم · فلذلك عزمت عـلى تبديل بعض القواعد الماضية والسياسة الجارية بما هو أحسن منها فى انتظام أحـوال العـــامة فليس الحامل لهذه الدولـــة على التبديل المذكور الا لقصد تقليل المفاسد أو ازالتها · وقد تقرر لدى الدولة وعلم أن أصل كل خير مبني على احترام الناس والمحافظة عليهم فى جميع أمورهم الدينية والدنيوية · وربما يحصل الغلط لمن لا يفهم القوانين الجديدة ويظنها غير مفيدة · فان العاقل لو تأمل حـ قالتأمل فيما بينها وبين القوانين السابقة يظهر له الفرق الواضح بينهما · فان الدولة الجمهورية الفرنسوية لا تـزال جادة فى حسن سيرتها ومعاملتها مع المسلمين بأكثر مما صدر من الاحسان من الدول السابقة ، وهذه الدولة لا تنسى على مـر الزمن خصال المسلمين الحميدة ومفاخرهم العديدة بسبب انتظامهم فى سلك عساكرنا ، وبذل نفوسهم فى نصرة جنسنا وقتـــال عدونا · وقد كان السلطان نابوليون وعد المسلمين فيما مضى بتمليك الاراضى التـى يستغلونها بالحراثة وغيرها ولم يحصل منه تنجيز · فهذه الدولة ستهبها لهم هبـــة منجزة وتملكها لهـم تمليكا مطلقا بحيث يتصرفون فيهـا بأنواع التصرفات من غـير معارض لهم ويتوارثونها توارث الاملاك والاموال ·

كتب بمدينة بوردو بتاريخ 14 جانفي 1871 · وبأمر سعادة السيد كريميو وزيـر الشريعة ورئيس الجماعة المنتخبين للنظـر فى شؤون الدولـة الجمهورية · ومختـوم سعادة السيد شارل دوبوزي والى الجزائر واقاليمها ·

الثانية : رسالة أولاد بن قانة ضد الباشاغا المقراني ·

سعادة المعظم الارفع (34) الهمام الانفع السيد الجنرال روستان الحاكم الكبـير

33) المبشر ، عدد 735 بتاريخ 21 جانفي 1871 ·
34) المبشر عدد 745 بتاريخ 6 أبريل 1871 ·

بقسنطينة وسائر عمالاتها (35) اكرمه الله ورعاه آمين · هذا أيه السيد وانا نحن أول من خدم الدول الفرنسوية منذ سنة 1837 الى الآن ولم نزل على العهد الى وقتنا هذا ونلازمه بالنصح الخالص والنية الكاملة ما دامت الدولة الفرانصوية ببر الجزائر ولو بقي من الفرنصوية (كذا) الا واحد بيننا ·

وقد سمعنا بمحمد بن أحمد المقراني نافق عنها فان فعل ذلك فما هو الا مجنون لا عقل له فها نحن بارئون منه من يومئذ ونقاتله كما تقاتله الفرانصوية فاذا ثبت نفاق هذا المفسد فالمراد منك ومن كريم فضلك أن ترسل لنا نحن الثلاثمائة من العسكر لتكون مع ما فى بسكرة من العسكر كي تكف ألسنة الناس عن القول (كذا) والقال · وتكون ضامنين فى بسكرة بحيث أن لا يمسك من جانبها تشويش · واعمل علينا كما تعمل على اخوانك الفرانصوية ·

والسلام ممن كتب باذنهم السيد محمد الصغير بن قانة ، والسيد أبو الاخراص ابن قانة ، وسى الحاج بن قانة ، وكافة أولاد بن قانة · بتاريخ 18 مارس 1871 ·

الثالثة : رسالة محمد بن هني بن بوضياف قائد صحاري بسكرة ضد الباشاغا المقراني

الحمد لله وحده (36) ،

الاجل الاقبل الزاكى الاشمل سعادة السيد الجنرال روستان الحاكم الكبير بقسنطينة وسائر عمالاتها السلام عليك مع دوام الرحمة والبركة · حالتي السكون والحركة والسؤال الكثير منا عنك وعن كلية أحوالك فاذا كنت بخير فالحمد لله وبعد نعم السيد اننا سمعنا بباش آغا مجانة (37) محمد بن أحمد خاب ظنه وخسر عمله مع الدولة الافرنصوية وعاقب خيرها معه بشره اياها · اعلم سيدنا ان أنت استحقيتنا (كذا) فهاني واجد (كذا) مهيىء واخواني وأولادي لخدمة الدولة الحميدة وندور تحت لوائها

---

35) روستان كان فى هذه الفترة يحمل لقب الكابيتان ، وليس الجنرال · وعين حارسا ادرايا لعمالة قسنطينة يوم 2 جانفى 1871 تطبيقا لقرارات 24 أكتوبر 1870 التى تقضى بالغاء النظام العسكري ، وتعويضه بنظام مدني جديد ·

36) المبشر ، عدد 746 بتاريخ 13 ابريل 1871 ·

37) ذكر لويس رين بأن محمد بن هني بن بوضياف ، وأخاه الصخرى بن بوضياف من أولاد ماضى وأولاد بوراس كانا عدوين تقليديين لعائلة المقراني بمجانة ، ولم يذكر السبب ، أنظر : Rinn : Histoire p. 185

حيثما توجه لقتال من حاربها واني ابنكم وخديمكم وخدمت الدولة الافرنصوية بالنية وصفاء المودة منذ ثلاثين سنة دون تبديل ولا تغيير وكل ساداتها أرباب الدولة الذين جالوا فى وطن الجزائر يعرفني ويعرف خدمتي ·

والسلام من ابنك وخديمك محمد بن هني قائد الصحاري وفقه الله ·

حرر بتاريخ 21 مـارس 1871 ·

الرابعة : رسالة محمد البشير قائد أهل العشر الى حاكم سور الغزلان الفرنسي حـول سرقة فرس واجتماع عدد من القواد ·

الحمد لله وحده (38) وصلى الله على سيدنا محمد ·

الى المحترم الفاضل المعظم السيد الكولونيل حـاكم عمالة صور الغزلان (39) ، السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد نخبرك عن جـواد القبطان اللى (كذا) قاطن فى بوسكن سرق ليلة الثلاثاء هذه ليلة 13 من فيفري · ليكن نخبرك عن الاثنين الماضية حيث كنت أنا ثم ، وأتيت الى السوق حتى عاد نصف النهار وسمعت بالقايد عيسى بن العربي اقبض رجال من عرش الربعية خيان (كذا) وجدهم يشتروا فى البارود وحين مْسكهم طلقهم (كذا) · وأيضا فى هذه الاثنين الاخرى تسوقوا (كذا) جميع القياد (كذا) كنحو القايد النايلي ، والحاج أبو عيشه ، والحاج ابراهيم ، والقايد سى أخميس من عمالة الجزائر ، وعيسى بن العربى ، واتجمعوا عند عيسى بن العربي حتى الـى الليل المذكور سرق الجواد وهانى أرسلت الى كل موضع وعن كل طريق ·

عن اذن السيد محمد البشير قايد أهل العشر ، فى 13 فيفرى 1871 ·

الخامسة : رسالـة السعيد بن علي أعيسى الى الجنرال لالمـان حول الأسـرى الاوروبيين الذين غادروا قرية بن هيني (باليسترو سابقا)

الحمد للـه وحده وبـه استعين (40)

الى طرف سعادة المعظم الارفع المدير الانفع سيادة الجنرال لالمان سلام الله عليك ورحمته وبركاته وتحياته ورضوانه وبعد بلغني كتابك الرفيع متضمن فيه بعض الناس

38) A. M. G. carton H 375 document provenant du colonel Robin.

39) قرية سور الغزلان لم تكن عمالة وانما كانت مركز دائرة · ولكن صاحب الرسالة لم يكن يفرق بين الامرين على ما يظهر أو انه أخطأ ·

40) A. M. G. carton H 375.

الفرانصويين سكان بن هينى (41) نبعثهم لك الى المحلة أو نات بهم • نعم سيدنا هاهم محفوظين عندنا على قدر مجهودنا والخير الذي فعلناه معهم نريد ان نتموه (كذا) قدر ما نطيق عليه • وفى هذه الساعة لا نطيق ناتيك بهم نخاف عليهم وعلى نفسى من القتل وكذلك على مالي يفسدوني الاعراش ويوم يتمكن لى بعثهم أو ناتى انا بهم بنفسى فلا نفرط ولكن نطلب منك الامان لنفسى ولفرنسا وكذلك قائد حرشاوه أحمد بن عيسى لانه رجل عاقل لم يصدر منه تشطين (كذا) الا فوق مجهوده من بعض الناس • وأما عـدد الفرانسويين الذين عندى احدى وأربعون نفسا خمسة عشر رجلا فيهم قبطان الجيني (42) مسيو أجى واثنى عشر صبيا وأربعة عشر نساء فيهن واحدة توفيت والسلام من عبد ربه سعيد بن محمد بن علي اعيسى وفقه الله آمين فى 20 صفر 1288 (43) •

السادسة : منشور الجنرال لالمان الى سكان دائرة دللس يطلب منهم الاستسلام •

من طرف سعادة المعظم الارفع سيادة الجنرال لالمان (44) حـاكم جميع الجيوش بمملكة الجزائر الى كافة القبائل من دائرة الدلس أرشدكم الله وبعد اعلموا قد غلطوكم بعض من الناس الذين آمنتم فيهم من غير حق وقد ذكروا لكم بأن الامـة الفرنصاوية اتعرض لها جميع العساكر وعن هذا تكون لكم قدرة على أخذ مدونهم (كاذ) وبلا مشقة تطردوا الباقى منهم ولا يخفاكم بـأن البرود (كذا) قد تكلـم فى بعض الاماكن وشهدتهم خلاف ما ذكروا لكم وكما تحقق لكم بأن الاحق عندكم لكن لكـم نفقتكم على الامـة الفرنصوية التى عملت فيكم الخير • وثانيا ان آلة الحرب التى هي عندكم لـم تبلغكم للقوة التى تدفع آلتنا الحربية والآن فابصروا وتأملوا لان المحاربة التى تريدونها يكون لكم منها مضرة فضيحة وأما العافية فينتج منها المنفعة الكثيرة لكافة أحوالكم ••• انكم لستم بأعمى لا تبصرون بأن الامة الفرنصاوية تطيق أن تحضر فى مدة قليلـة عدة من عساكر التى تكفى لنصرتها عليكم وان السلاح الذين فى يدها يصير سلاحكم بـلا منفعة وبسبب ما ذكر ارجعوا أصدقاء الامة الفرنصاوية يكون لكم الخير والهنى (كذا) انتشار لكم بهذا كان عليكم حاكما فى السابق وكان يتكلم معكم ولا يخفى عليكم معرفته وحبيبج الكثير منكم الذى الآن فى بلادكم وبيده البارود الذى يحصلها والعافية الذي

---

41) قرية بن هينى تقع بين ثنية بنى عيشة والبويرة • وسماها الفرنسيون باليسطرو وبعد الاستقلال أصبحت تسمى الاخضرية •

42) ضابط الهندسة العسكرية •

43) الموافق حوالى 11 ماي 1871 •

44) A. M. G. carton H 375.

ينفع والسلام بأمر سيادة الجنرال المذكور أعلاه الواضع طابعه الرفيع دام عزه وعلاه .
فى 30 مـــاي 1871 .

السابعة : رسالة القائد الهادي الى القبطان ابير حول ثورة أهالي يسر .

الحمد للـــه وحـــده (45) ،

الى سعادة السيد القبطان ابير حاكم بيروا وعرب الدلس (46) السلام عليك ورحمة الله وبعد اعلامك بما أخبرنا به الطاهر أوجيوه العبيدى وأنه الدعى (كذا) لنا وأن غده (كذا) ان شاء الله صباح السبت يطيحوا (كذا) القبائل على يسر وانهم كـــل القبيلة مجتمعين فى تامزيعت ويرجون فى وعد غـــد ان شاء اللـــــه وقد تركوا العسة على الفرنصاويين الذين محروسين (47) وبهذا هانى (كذا) اخبرتك بما طرق على سمعنا من الطاهر أوجيوه فى يومنا هذا وهذا ما منا اليك والسلام .

من كاتبه عن اذن خديمك القايد الهادي بولاية أولاد سمير امنه اللـــــه ءامين فى 20 جـــوان (1871) (48) .

الثامنة : رسالة اسعيد أو بن أبى القاسم الى الجنرال سيريز يطلب وظيفة مقابل خدماته ضد بومزراق وثوار 1871 .

الحمد للـــه وحـــده (49) ،

الى سعادة الاوطان المعوم الارفع السيد الجنرال سريز حاكم الجيوش دام عـــزك وعلاك والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد ان كنت بخير من اللـــه وعافية فالحمد لله وفق مرادك وبعد أيه الاسعد المرجو مـــن سيادتك العالية المعظمة المحترمة بالله تعالى أن تنظر هذه الورقة المرقومة بالفرانصوية بخط شيف (رئيس) الشرذمتن ازواو العائنة فى برج واد أخريص يوم قدوم المنافقين المتريس عليهم أحمد أبى مزراق المقراني على البرج المذكور . وبذلت جهدى فى تلك اليوم مع الشرذمة المذكورة وتماديت

45) A. O. M. carton I. 86.

46) أي رئيس المكتب العربي من العبارة الفرنسية : Chef de bureau arabe ⟵

47) أي المحاصرين ولم يذكر أين .

48) عبر عن أولاد سمير بالولاية ، وهي عبارة عن عرش فقط .

49) A. M. G. carton H. 375.

عن تلك الخدمة مع حكام بلادنا الى الآن المطلوب من سعادتك العالية أن لا تنسانى من ذهنك لان كثيرا من الناس الذين خدموا الدولة الفرانصوية كمثلى سمعت أنك انعمت عليهم بنواشين (كذا) الحرمة أو بواضايف (كذا) لان عرشى لم يقبلونى ويكرهوني من جانب خدمتى مع الدولة لانى فى يوم قدوم السيد الكولونيل حاكم الصور الى برج واد اخريص وفى الاغد (كذا) قدمت مع السيد الكولونيل الى الفتنة الواقعة بيننا وبين احمد أبى مزراق المقراني فى الموضع المسمى الشروج (السروج) ورجعنا الى الصور هجموا على بيتى وبيت ابن اخى أبى زيد بن الحاج عيسى عدل واد اخريص ومسكوا اثاثنا بشهادة السيد الكولونيل وهو ينظر لذلك وهذا الامر واقع ، وعليك الف سلام كتب بأمر خديمك اسعيد أو بن أبى القاسم قائد أولاد سالم دائرة الصور • فى 27 جوليت سنة 1871 •

التاسعة : شهادة استسلام بشروط لاولاد على بن داود •

فرقة الحضنة ـ معسكر المسيلة (50) ،

فى 9 أكتوبر سنة 1871 احدى وسبعين ومائتين (كذا) والف ان أولاد على بن داود من حكم الصور قدموا وطلبوا الدخول تحت الطاعة وقبلنا منهم ما طلبوا من غير شروط ه وأناس الفرقة المذكورة دفعوا عربون الخدمة :

1000 فرنك دراهم •

5 وخمسة مكاحل •

4 وأربعة رجال مراهن وهم : يحيى بن لحول ، الحناشى بن قويدر ، محمد بن بتقا ، مسعود بن أحمد •

وبادائهم ما ذكر من العربون ظهر منهم الدخول تحت الطاعة وبهذا السبب سرحناهم وأمرناهم بالرجوع لوطنهم وأعطيناهم الامان لكن من غير تعيين الشروط بل هي باقية على نظر سعادة السيد القوفيرنور جنرال الحاكم بالمحلة صانه الله بعونه آمين.

---

50) A. M. G. carton H. 375.

العاشرة : رسالة سكان عرش صنهاجة الى الحاكم العام يطلبون التخفيف من ضرائب الحرب ·

الحمد لله وحده (51) ،

حضرة المعظم الارفع الهمام الانفع مولانا السيد المريشال حاكم المحروصة عمالة الجزائر بعد السلام عليك مع دوام الرحمة والبركة فى كل سكون وحركة يليه نعم سيدنا نريد من سعادتك ومن سعادة الدولة الفرنصاوية المنصورة ان خدامك عرش صنهاجة بعمالة صور الغزلان من حين جعلت عليهم الجزية كما هي الجارية على جميع العمالات تراهم سيدنا باقين منكسين القلوب ومحيرين من كل حرقت ديارهم وابتاعت أموالهم باقين بالجوع من كون الزرع الاخضر أكلته المحال (52) وما بقي على مذكر أباعوه (كذا) فى الخطية والآن سيدنا ترانا دفعنا ما تبعنا به جملة وبقيت لنا عن جميع الخطية (53) اثنى عشر الف دور أفرانصية سكة الدولة قد عسرنا (54) فيها ولم نجدوا (كذا) ما نبيع فى خلاصها · والآن سيدنا نطلب من سعادتك تنعم علينا بتركها لانك ذوجود وفضل ورحمة ومودة ونحن خدامك وعار السيد على سيده ونخبرك أن الناس ابتداوا بالموت من الجوع وان أردت سيدنا تبعث من تامنه من قبلك يتضح حال الجميع كما نخبرك به يظهر لك حال خدامك ونريد منك سيدنا التسريح خروجنا للاعراش العامرين لمن أراد ذلك لعيشه يصرح (يسرح) ويخمس (يعمل بالخماسة) من كون بلادنا انقطع عيشها ولك الاجر من الله الخالق الرازق وعليك الف فى الف سلام من كافة خدامك وتراب اقدامك كافة عرش صنهاجة مشايخ وفلاحين وذلك بتاريخ 10 اكتوبر سنة 1871 ·

الحادية عشرة : رسالة حول ضرائب الحرب على عرش بنى عباس ·

الحمد لله تعالى (55) عرش بنى عباس ،

---

51) A. O. M. carton 2 H 75.

52) المراد بالمحال : العساكر والجيوش الفرنسية ·

53) يعنون بالخطية ، والجزية غرامات الحرب التى فرضت عليهم فى ثورة 1871 ·

54) أي عسر عليهم اتمام دفعها ·

55) A. O. M. carton 2 H 75.

كافة شيوخ عرش بنى عباس السلام عليكم وبعد فالذى يكون فى علمكم وانكم تخبروا ناس فرقكم بأن يشرعوا فى الحرث كالاعوام الماضية كل واحد يحرث ترابه ٠ وأيضا لابد منكم أن تعزموا بدفع الخطية والسلاح المضروبين على كافة عرشكم فالواجب عليكم يعنى على جملة العرش مائتين وثمانية وخمسين الفا واربعمائة وعشرة الكل فرنكية وثلاثة آلاف بندقية فاحرصوا بالسلاك والدفع وعليه يكون العمل والسلام عن اذن الارفع السيد القبطان شاف بيرو عرب (56) ٠ فى 11 نوفمبر 1871 ٠

الثانية عشرة : رسالة حول ضرائب الحرب على عرش بنى مليكش :

الحمد لله وحده تعالى (57) عرش بنى مليكش ،

كافة شيوخ عرش بنى مليكش السلام عليكم وبعد فالذى يكون فى علمكم اكنتم تخبروا جميع ناس فرقكم بأن يشرعوا فى الحرث كالاعوام الماضية كل واحد يحرث ترابه وأيضا لابد منكم أن تعزموا بدفع الخطية والسلاح المضروبين على جملة عرشكم ، فالواجب على جملة العرش اربعة وتسعين واثنا عشر الف فرنكية وخمسمائة من النعن (2) وثمانمائة بندقية فاحرصوا بالسلاك والدفع وعلى هذا يكون العمل والسلام عن اذن الارفع السيد الكمانده الحاكم الكبير بعمالة بوعريريج ونيابة السيد القبطان شاف بيرو عرب (58) بتاريخ يوم 11 نوفمبر 1871 ٠

الثالثة عشرة : رسالة طلبة زاوية السيد عبد الرحمن اليلولى حول مصادرة أرض للزاوية ٠

الحمد لله وحده (59) ،

حضرة الارفع سعادة السيد الكمانده حاكم دائر برج فرنسينال السلام اعليكم كثير السلام التام والشامل العام يعمكم ويعم جميع من احتواه مجلسكم الرفيع وبعد يا سيدي اننا عندنا بلد قرب واد بنى عباس فى الموضع المسمى اقبو فى حكم تزى ولنا

---

56) يعني رئيس المكتب العربي : Chef de bureau arabe

57) A. O. M. carton 2 H 75.

58) يعني رئيس المكتب العربي : Chef de bureau arabe ٠ وقد عبر عن مدينة برج بوعريريج بالعمالة ، وهي عبارة عن بلدية آنذاك فقط ٠

59) A. O. M. carton 2 H 81.

عليه عقود الابتياع الصحيح وكان فى حوزنا واستغلالنا من الزمن الاول ونتصرف فيه التصرف التام مع أنواع التصروفات (كذا) نحو الحرث ورعى الكلاء من غير منـازع ينازعنا فيـه ولا معارض وفى هذه السنة قد قدمنا بأثوارنا (كذا) للموضوع المذكـور اعلاه لنحرثوه كما كانت العادة فاذا بسيد الكمانده حاكم بير عـرب تزى بعث الينـا اصبايحى وتعرض لنا عن الحرث فحينئذ جئنا اليكم واشتكينا لديكم بقضيتنا المرقومة وكتبت لنا كتابة اليه ليتركنا نحرث بلدنا المملوكة لنا بالشراء كما ذكرنا ونمكنا كتابكم بيده ولم يقبل ما فيه واجابنا بقوله ايانا فلا تحرثون بلدكم أبدا والآن يا سيدي فالمطلوب منكم بعد المسامحة أن تجعل لنا تأويلا عن بلدنا ونحرثها كما كنا فارطا وتسعى فى نيل مقصدنا قبلأن يفوت ابان الحرث وأما النفاق ليس مدخل لنا فيه وقد بقينا فى طاعتكم كما كنا فى السابق وليس عندنا من اشتغل فى وقت النفاق بشىء الا بالعلم والتعـلم ولاكن فان حصل لكم شك وريبة فيما قلناه لكم اسأل كافة الناس وهذا ما به الاعـلام وعليكم ألف سلام ٠ كتب عن اذن كافة طلبة السيد عبد الرحمن اليلولى نفعنا اللـــه ببركاته ءامين وعرفه له فى 9 نفمبر سنة 1872 ٠



الحمد لله وحده

2 H 81

حضرة الاجل سعادة السيد الحاكم [illegible]

السلام عليكم [illegible]

[illegible] بلاد في واد بني عباس [illegible]

[illegible]

Traduction

Après les salutations.

Tous les Tolba du cte Abdrohman Elialouli infor. commandant du cercle de que malgré la recomman leur avait donnée, Mr le du bureau arabe de Tizi de labourer leur terre qu'ils suivant des actes judiciaires en situé près de Oued beni dit Akbou.

En conséquence ils prie commandant de vouloir les démarches nécessaires pour propriété qu'ils en jouissent temps, avant que le mauva

Ils ajoutent que Mr prendre des informations pendant l'insurrection à la n'ont pris aucun part.

le 9 Novembre

Pour traduction confor

E. M. Chéha

interprète mili

الشكل رقم 2 ـ رسالة طلبة زاوية عبد الرحمن اليلولي الى حاكم دائرة فورنا سيوفال حــول أرض للــزاوية .

A. O. M. Carton 2 H 81

الثقافة العربيـــة المعاصرة
ومصير الوطن العربى

د٠ الحبيب الجنحاني
أستاذ بكلية الآداب ـ تونس



ان العلاقة بين شتى مظاهر الواقع العربي اليـــوم ، ومصير الوطن العربي متينة ، جدلية ، فهي تعكس الوضع السياسي والاقتصادي والثقافي (1) ، ولكننا نريد التركيز هنا على قضية معينة تتمثل فى مدى تاثير الثقافة العربية المعاصرة فى صقل معالم مستقبل الوطن العربي ، وهو جانب خطير ـ فى نظرنا ـ لما يتميز به التاثير الفكـري من استمرارية ، وقدرة على تجاوز المعطيات الظرفية ، فقد عرف المظهر السياسي فى الواقع العربي المعـاصر ازمات حـادة جعلت روح التشاؤم تسيطـر على ذوي النظـرة القصيرة ، المحدودة ، فيصابون بالتقوقـــع ، واللامبالاة ، ولكن الرؤية الفكرية المستقبلة قد صمدت وواصلت أداء رسالتهـا فى ظروف معقدة وصعبة ٠

ليس هدفنا الرجوع الى الماضي البعيد للتعرف الى سمات الثقافة العربية المعاصرة بل سنقتصر على مرحلة ما بعـد هزيمـة حزيران 1967 ، وهى مرحلة دقيقة ، ومليئـــة

بالاحداث ، والمفاجآت فى الواقع العربي بالرغم من قصرها ، فقد مر خلالها الفكر العربي بتجربة خصبة ، وقاسية كانت محكا لمدى قدرته على تجاوز المراحل الظرفية ، وتركيز أسس النظرة الشمولية المستقبلية ·

فقد تأثر الفكر العربى بهذه الاحداث تأثرا عميقا ، وانعكست عليه ظلال مأساوية الواقع العربي ، وقد أصبح هذا الواقع اثر هزيمة حزيران يشكو أزمة ضياع خانقة ، وأضحى الوعي العربي متمزقا ، ومهزوزا ، فلا غرو ــ اذن ــ أن يلمس المتتبع لحركة الثقافة العربية المعاصرة فى مختلف الاقطار العربية خلال هذه المرحلة مظاهر التشرذم الفكري لدى بعض الفئات من المثقفين العرب ، وصمتا عميقا لدى فئة أخرى ، ومراجعة نقدية جذرية لدى فئة ثالثة (2) ·

ثم جاءت حرب أكتوبر ، وما حققته من انتصار نسبي فظن الكثير أن الفكر العربي سيتخلص مما أصيب به من تمزق ، وانقسام ، وقد كان الظن مخطئا ، ولم تنجح بعض الاقلام التى حاولت استغلال صمت الفكر العربي فى وقفته النقدية العميقة من اثبات أن حرب أكتوبر كان لها تاثير ايجابي وعميق فى حياة الفكر العربي أيضا ، ولا يرجع ذلك ــ فى نظرنا ــ الى ما أثير من جدل حول نسبية الانتصار ، أو الى الاحداث السريعة المؤلمة التى عرفها الواقع السياسي العربي ، والتى عصفت بنتائج حرب أكتوبر عصفا شديدا ، ونعني هنا الحرب الاهلية بلبنان ، ونتائجها الخطيرة ، بل يعود أساسا الى شعور عدد كبير من المثقفين العرب بضرورة مراجعة نقدية جذرية ، واعادة النظر فى كثير من المفاهيم والقيم التى طفحت على سطح الفكر العربي المعاصر ، فقد وعي الكثير أن معركة المستقبل العربي ليست معركة سياسية واقتصادية واجتماعية تحتاج الى مرحلة معينة ، بل هي معركة حضارية تتطلب مراحل عديدة ، تتمثل نقطة انطلاقها فى تركيز رؤية شمولية معينة لمستقبل الوطن العربى (3) · انه لا يمكن أن نتحدث عن موقف واحد للنخبة المثقفة العربية تجاه هذه القضايا ، أو حتى عن موقف متشابه ، فقد ابرزت مرحلة ما بعد هزيمة حزيران الفروق العميقة بين التيارات المختصة فى الثقافة العربية المعاصرة ؛ فلم يشعر كثير من المثقفين العرب بحتمية تلك المراجعة الجذرية المشار اليها ، فانتهز البعض الفرصة لملء الفراغ الذى تركه ممثلو الفكر الواعى الهادف ، واصبحوا يبادرون للقيام بعملية تبريرية فى الميدان الثقافى خدمة لابطال الواقع السياسي العربي المهزوم ، المأزوم ، وسيطر القلق والتمزق على فئات أخرى وقعت فى خطأ كبير ، حيث خلطت بين سلبيات الاحداث السياسية ، وما تحدثه من هزات ظرفية وبين رسالة الفكر العربي الجديد ، وهي رسالة ثقافية حضارية طويلة المدى · ونقف فى تتبعنا لمواقف تيارات الفكر العربي المعاصر فى أحداث المرحلة الاخيرة على الظاهرة التالية المتمثلة

فى أن التيارات التى لم تمسها أزمة التمزق والتشرذم الفكري ، ووقفت من الاحداث موقفا نقديا ، ايجابيا هي التيارات المتبنية لرؤية جدلية ، شمولية لآفاق المستقبل العربي والتى تعتمد المنطق السببي والجدلية التاريخية فى تحليل حاضر المجتمع العربي ، وبالرغم من هذه الجدلية التى توحد بينها فى استعمال أساليب البحث والتحليل ، فهي متباينة عقائديا ، وتتجاذبها تيارات سياسية مختلفة ·

وبرز ضمن هذه التيارات التى يجمع بينها قاسم مشترك ـ بالرغم من اختلافها تجاه كثير من القضايا العربية ـ يتمثل في الوعي العميق بضرورة دعم الاتجاهات الرامية الى عقلنة المجتمع العربي ، والى غربلة السلبيات ، والمعوقات التى قادت الى تعاقب الهزائم تيار يحاول أن يجد المعادلة الصعبة بين مفارقات ، وتناقضات الواقع العربي السياسي ، والاقتصادي ، والثقافي وبين وضع أسس جديدة لعملية حضارية طويلة المدى ، وتهدف الى بناء الوحدة العربية بناء سليما ومتينا ، انطلاقا من الهياكل التحتية ، والتحول الحضاري الجذري البطيء الذي يحتاج الى عدة مراحل تاريخية موضوعية ،وسيكون لهذا التيار شأن خطير فى المرحلة القادمة · يقف أنصار هذا التيار اليوم مناهضين للنظرة الميكانيكية فى التفسير ، وضد سرد الاحداث فى شتى ميادين المعرفة بطريقة استاتيكية جامدة ، ويناهضون العشوائية فى السياسة ، والاقتصاد ، والتربية ، والثقافة ، ويندون بالواقعية الفوتوغرافية ، أو التسطيح الواقعي الآلي فى الحياة الثقافية العربية الراهنة ، وبظاهرة تسييس الانتاج الثقافى الذي يوقعه فى الآنية ، والمباشرة السطحية ، ولكنهم يفضحون فى نفس الوقت التشرذم الاديولوجى ، والمعتقدية (الدوغمائية) التى اساءت الى الفكر العربي الجديد ، واستغلتها بعض النظم العربية عن وعي لتحريف رسالة هذا الفكر الذي ينطلق من معطيات واقع المجتمع العربي وقيمه ، رابطا ذلك بالقيم الثابتة فى تراث الحضارة العربية الاسلامية ، ولا سيما بالجوانب المشرقة فى هذا التراث (4) ·

ان أنصار هذا التيار الفكري الجديد بين تيارات الثقافة العربية المعاصرة يسعون جاهدين :

- الى عقلنة شتى مظاهر الحياة فى المجتمع العربي ، ويعلقون فى هذا الميدان بالذات آمالا واسعة على السياسة التربوية ، والعمل الثقافى فى الاقطار العربية
- والى بلورة آفاق التحول والحداثة ،

– والى نشر ثقافة وطنية ، قومية ، انسانية ·

– ويجب أن يهدف هذا العمل الثقافى فى مستوياته الثلاثة الى التحرر الوطنى، والتقدم الاجتماعى ، وتحقيق الوحدة العربية ،

– والى ضرورة التخلص فى الحياة الثقافية العربية من الروح التشاؤمية والانهزامية ·

وهم يشعرون بخطر الهجرة الثقافية عن الارض العربية من جهة ، وبخطر الهجرة الداخلية التى يضطر اليها المثقفون فى كثير من الاقطار العربية ·

ان رسالة الثقافة العربية المعاصرة تتجاوز فى نظرهم الاحداث الظرفية ، وتقلبات الواقع السياسي العربي ، فهي رسالة تعتمد فى أهدافها رؤية مستقبلية تنطلق من تحليل اقتصادي ، واجتماعي ، وثقافى للمرحلة الحالية التى يمر بها المجتمع العربي ·

ان بعض التيارات الفكرية العربية المتطرفة ، ولا سيما التيارات التى تشكو داء المعتقدية ، تتهم هذا التيار الذى وضحنا بعض معالمه بأنه تيار توفيقى ، تلفيقى ، ولكنها لا تمثل خطرا على رسالته الثقافية فى المرحلة التاريخية الراهنة ·

أما الخطر الحقيقى الذي يهدد انصار هذا التيار فى محاولتهم ايجاد المعادلة الصعبة المشار اليها ، وهو خطر قد يضطرهم الى الهجرة الداخلية ، كما هو الشأن الآن فى بعض الاقطار العربية فلا يمكن أن يأتى الا من تيار الفكر الفلسفى ، وذلك لسببين رئيسيين :

أولا : ان بعض النظم العربية تدعم هذا التيار لظروف سياسية معينة ، وهي نظم تفكر فى الحاضر ، وتسعى بشتى الوسائل للمحافظة على الوضع السياسى الراهن ، وليست لها رؤية مستقبلية وطنيا ، وقوميا ، وكونيا ·

ويدرك قادة هذا التيار الفكرى السفلى أن دعم هذه النظم ليس لوجه الله ، بل لحاجة فى نفس يعقوب ، فهي – اذن – لعبة متبادلة ·

ثانيا : ان هذا التيار يجد أصداء عميقة فى صفوف الجماهير العربية لارتباطه بمعطيات دينية وحضارية عميقة الجذور ·

ومن الصعب على هذه الجماهير أن تدرك الحقيقة ، وتفرق بين الاعتزاز بقيمها الثابتة فى تراثها الحضارى ، والاعتزاز بها وبين استعمال هذه القيم لاهداف سياسية ،

ومغامرات قد تهدد تحررها الوطني ، وتقدمها الاجتماعى والحضاري ٠

ونود فى هذا السياق طرح القضايا التـالية :

1 ـ ان العلاقـة بـين التخلف الفكرى والتخلف الاقتصادى والاجتماعى عميقـة . فانه لا يمكن فصل الثقافة العربية المعاصرة عن البنيات الاقتصادية والاجتماعية فى الوطـن العـربي ٠

يقول الكاتب المغربي محمد زفزاف : « أنا لا أستطيع أن أفكر تفكيرا ايجابيا اذا لم أجد خبزا آكله ، سوف أفكر فى معدتي أولا » (5) ٠

2 ـ انه لا يمكن ـ فى نظرنا ـ فصل الثقافة العربية المعاصرة عن تراث الحضارة العربية الاسلامية ، وليس هنالك تناقض بين ما يسعى اليه الفكر العربي الجديد مـن عقلنة المجتمع العربي ، وترسيخ أسس المعاصرة وبين احيـاء الجوانب المضيئة فى تـراثنـا ٠

انه حل سهل ان نلقى تبعة الهزيمة على تراثنـا ، وحضارتنا ، متهمين اياها بأنها « حضارة لفظية » ، ومتهمين انفسنا باننا شعب يتكلم اكثر مما يفعل دون أن نبحـث الاسباب الحقيقية التى تحول بينه وبين الفعل الخلاق (6) ٠

ولكن يجب أن نفصل بين التراث والرجعية الفكرية ، فهناك تيار رجعي محـافظ يعيش فى الماضى ، ويقدس التراث العربي الاسلامي ، ويجمد عنده فيسقط فى عدمية وجودية كاملة فكرا وسلوكا ، ولا يحاول التفتح على الثقافات العالمية ، مجمدا التاريخ مصنما السلف ، فهـم وحدهم على صواب مطلق ٠ وهـو تيار يؤكد شكلية التـراث ، ويضفى عليه مسحة القداسة ، فهو يضر بالتراث ، ويحجره ، وينفر الناس منه ٠

وينبغى ان نعترف بأن لهذا التيـار تاثيرا كبيرا فى صفوف الجماهير العـربية ، فالرجعية تظهر فى صورة الحاميـة للتراث وحـدها فى المجتمع العربى الاسلامى ٠

وهنالك تيار آخر ليس له شان يذكر فى صفوف الجماهير العربية هو تيار فئـة الرافضين للتراث باسم المعاصرة فهم يرون صورة الحاضر فى المستقبل ، وفى المستقبل فقط ، فقد ارتموا فى احضان الآخرين ، واغتربوا ، وفرضوا على أنفسهم عـزلة فى الواقع العربي ، وهي فئة قليلة تشكو ضروبا من المركبات ، فمنطق نظرتها الاندحارية الى التراث منطق نظري هروبي ٠

أما الموقف الثالث من التراث فيمثله أولئك الذين يحاولون خلق المعادلة الصعبة فى الحياة الثقافية العربية المعاصرة ، فهو تيار تقدمي مجدد يختلف فى رؤيته التاريخية كل الاختلاف عن التيارين السابقين ، فهو يسعى جاهدا لتحـرير التاريخ والتـراث ، وغربلته من مظـاهر الخرافة والتزييف ، وتخليصه من نظـرة التوثين والقداسة ، واخضاعه لمقاييس المنهجية العلمية ، فهو يقاوم النظرة الطوباوية للتراث التى تستقطب الجوانب المظلمة البلهاء دون انفلات ، ويندد بهذا الموقف الذى يريد ان يحول التراث الى تراث شكلي خال من محتواه الانساني ·

ان المثقف العربي الواعي ، الحامل لرسالة التجديد يتطلـع الى التـراث العربي الاسلامي فكرا وحضارة من زاوية شمولية متحدة ذات أبعاد تقدمية تسقط من مضامينها كل مظاهر الاندحار ، والانغلاق ، والسوداوية ، وتؤكد على ما فى تراثنا من شـك ورفض ، وتمرد عميق ، وفكر عملاق ثوري ، وبذلك يصبح تراثنا وثيقة انسانية رائعـة تلتقى مع أهداف العمل الثقافى المشار اليه وطنيا ، قوميا ، وانسانيا (7) ·

3 ـ ان الحديث عن الثقافة العربية المعاصرة يجر حتما الى الحديث عـن النخبة المثقفة فى الاقطار العربية ، فقد لمحنا الى تياراتها المتباينة ، والى بعض مظاهر التأزم فى صفوفها ·

ونـود هنا أن نلاحظ أمرين بارزين :

أ ـ أن بعض الفئات داخل هذه النخبة تشكو تخلفا مهولا بالرغم من الدور الطلائعى المناط بها ، فهي مطالبة بالمساهمة الفعالة فى معركة الخروج من التخلف فى نفس الوقت الذي تعاني فيه من مظاهر تخلف رهيب !!

ب ـ ان التخلف الذي تشكو منه الاقطار العربية يقتضي منطقيا أن يكون للنخبـة المثقفـة دور واضح فعال فى تسيـير شؤونها ، والمشاركة فى تحديد مصيرها . ولكننا نجدها فى الواقع تعيش هامشيا فى مجتمعاتها ، بل قل محاصرة تكاد تختنق فى أغلب الاقطار العربية ، فتضطر الى الهجرة الخارجية والداخلية معـا ، ونعني بالخصوص المجموعة الفعالة ذات النظرة العميقة المحللة لقضايا بلدانها ، والتى بلغت درجة النضج الفكري ، فاصبحت لها رؤية شمولية كونية ·

اننا نقرأ احيانا ، أو نسمع نقدا لاذعا موجها الى رجال النخبة المثقفة لما يبدو من تباين فى وجهات نظرهم ، واختلافاتهم العقائدية ·

اننا نؤمن ان هذا الصراع الايديولوجى المعروف اليوم فى صفوف النخبة المثقفة العربية أمر طبيعي ، فهو مرتبط بنظرة افرادها المستقبلية ، وبتحديد رسالتهم فى تغيير أوضاع مجتمعاتهم ، فقضية المصير العربي ما تـــزال مطروحة : أي سبيل ينبغى ان تسلك ؟ ولا ننسى أن المثقفين العرب هم أبناء بيئاتهم بتناقضاتها ، ومظاهر تخلفها ٠

ان المؤلم فى هذا الصراع الداخلي ليس الاختلاف فى الرؤية ، بل انعدامها لـدى عدد كبير من أفراد النخبة المثقفة العربية (8) ٠

ومن المشاكل العويصة التى تواجه المثقفين العرب يوميا :

- مشكلة الحرية بمختلف مظاهرها ٠

- وقضية علاقتهم بالسلطة ، فقد روي أن احدهم قال لمعاوية :

« اذا ارضينا الله اغضبناكم ، وان ارضيناكم اغضبنا الله » ، وهي جملة تصور اليوم علاقة النخبة المثقفة بالسلطة ، فاذا حاول المثقفون الواعون اداء رسالتهم الثقافية وطنيا وقوميا ، وهي تهدف أولا وبالذات الى نشر الوعي العميق ، ونقد مظاهر التخلف السياسي ، والاقتصادي ، والاجتماعى اصطدموا بالسلطة ، وان حاولوا الركض وراء ركبها ، والدوران في فلكهـا سقطوا ، وفقدوا دورهم الطلائعي الصعب فى بيئاتهم ٠

ولعل صعوبـة هذه العلاقة ، وما يحف بها من ملابســات وأخطار جعل بعض المثقفين يقيمون جدارا برلينيا بين الثقافة والسياسة ، وهو اتجاه مخطىء فى رأينا ، فلا يمكن الفصل بـين الثقافة والسياسة ٠

المرحلة الوطنية وآفـاق الوحدة العربية :

انه مـن المعروف ان مفهوم الامة الاسلامية الذي يعد سمـــة أساسية فى التفكير الاصلاحي خلال القرن التاسع عشر قد تقلص ظلــه فى مطلــع القرن العشرين نتيجة ظروف موضوعية معروفة ليفســح المجال لمفهـوم الوطنية فى مرحلـة تاريخية جديدة دخلتها اكثر الاقطار العربية ، وهو مفهوم متاثـر - دون ريـــب - بالمفهوم الاوروبى للوطنية ، ولكنه ارتبط بالاسلام ، وبمفهوم الجهاد فى سبيل الذود عن مميزات الشخصية العـربية الاســلامية (9) ٠

وقــد كان لهذا المفهوم دور ايجابي فى مرحلة التحرير الوطني من جهة ، وتــاثير واضح فيما نلمسه اليوم من مميزات الذاتية الوطنية فى مختلف الاقطار العربية ٠

ومن المعروف أن ما يسمى بطبقة البورجوازية الوطنية بفئاتها الوسطى والصغيرة هي التى قـادت مرحلة التحرير الوطني فى البلدان العـربية ، وهي مرحلة عـرفت بمميزاتها وتناقضاتها · يتحدث الاستاذ فائق محمد عن هذه التناقضات قائلا :

« 1 ــ كان المخاض الاول لحركة الثورة مخاضا بورجوازيا ، عاجزا عن ادراك ، أو تبني حتمية الصراع الجدلي بمختلف مدلولاته الطبيعية ، والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، وبالتالي كانت عملية المخاض تتصف بالعمومية ، وباثارة الحوافز القومية وبتزكية المبادرات الفردية فحسب ·

2 ــ كـان التركيب الاول لحـركة الثورة العربية تركيبا فوقيـا ، قاعدته الطبقات الوسطى ، والبورجوازية الصغيرة بجميع تداخلاتها ومشاكلاتها ···

3 ــ جـاءت اسهامات البروليتاريا العربية متأخرة فى هذه الحـركة ونعنـي بالبروليتاريا العمال والفلاحين » (10) ·

وان هذه التناقضات جاءت نتيجة طبيعية للاوضاع المعقدة والمتناقضة التى عرفتها مرحلة التحرر الوطني ، ووجدت نفسها الفئات القيادية للمرحلة فى مفترق الطرق غداة الحصول على الاستقلال السياسي ، فقد احتـدت التناقضات الداخليـة ، واستمرت التناقضات مع البلد المستعمر بالامس القريب ، فقد اتضح ان الاستقلال الحقيقى لا يتم الا بالاستقلال الاقتصادى والثقافى ، وقـد كان لاستمرار التبعية فى هذين الميدانين أثر سلبي ليس وطنيا فحسب ، بل قوميا أيضا ·

وكما فشلت القيادات الوطنية فى كثير من البلدان العربية فى حل مشاكل مرحلة ما بعد الاستقـلال السياسى ، والقيام بعملية تحول جذرى فى الهياكل الاقتصاديـة ، والاجتماعية والثقافية ، والتخلص نهائيا من الهياكل البالية المتحجرة التى تحول دون تحديث جذرية فقد فشلت الثورة العربية أيضا فى تحقيق ما طرحته فى اذهـان الجماهير العربية من مفاهيم وشعارات جديدة مثل حرب التحرير الشعبية ، الحـرية والعدالة الاجتماعية ، تسريع عملية التحويل الاشتراكي ، الارض لمن يفلحها ، القضاء على الفروق الاجتماعية ، تحرير الارض السليبة ، وغيرها من الشعارات · اننا لا ننكر الخطوات الايجابية التى انجزت هنا وهناك ، ولكن المهـم أن تقف الثقـافة العـربية المعاصرة موقف نقد جذري تجاه تلك المفاهيم والقيم ·

وينبغى أن يرى الفكر العربي الجديد فى الوطنية مرحلة تاريخية ضرورية لا تتناقض أبدا مع المصير الوحدوي للوطن العربي بشرط الا تستغل مـن قوى داخلية وخارجية لتعميق هـوة الاختلاف ٠

اننا لا نذيع سرا حين نقول هنا : ان كثيرا من القوى المعادية للامـــة العربية فى الداخل والخارج قد استغلت فى الاعوام الاخيرة فشل العمل الوحدوي العربي لاسباب ظرفية موضوعية لتقوية الشعور الوطني ، وابراز المفهوم الاقليمي الضيق ٠

فلابد ـ اذن ـ من التفرقة بين التنوع الثقافى اي السمات المميزة لثقافة وطنية ما وبين مفهوم التعددية الحضارية ، أو الحضارية المتوسطية ، أو النزعة الاقليمية الشوفينية الضيقة لان وراء هذه المفاهيم تكمن فى حقيقة الامر أهداف تجزيئية تحاول أن تـؤجل أكثر ما يمكن بداية مرحلة الانتقال من حالة التجزئة الى الحالة الوحدوية ٠ ان للفكـر العربي المعاصر شانا خطيرا فى هذا الميدان ، فلابد أن يعي معطيات المرحلة ، ويحـدد المفاهيم تحديدا دقيقا ، ويشعر بخطر تيارات العزلة والتقوقع ٠

سئل أخيرا الكاتب المصري الشهير نجيب محفوظ : « الى أي مدى تؤيد الدعـوة التى تنادي بضرورة انعزال مصر عن الوطن العربي ، ومشاكل الامة العربية لتهتـم بمشاكلها الخـاصة ؟ » ٠

فـأجـاب :

« طبعا ، انا لا اريد هذه الدعوة على الاطـلاق ، فحاضر مصر ومستقبلها مرتبط ارتباطا ارتباطا عضويا بالمجموعة العربية سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الثقـافية » (II) ٠

قد يتساءل المرء فى النهاية عن دور الثقافة العربية المعاصرة فى مصير وحـــدة الـوطن العـربي ؟

انـه دور أساسي ومستقبلي ، فاذا أصيبت الاوضاع السياسية ، أو الاقتصادية بالتعثر ، والتازم ، فان رسالة العمل الثقافى الوحدوي يجب أن تستمر ، وان تتغلـب على العراقيل الظرفية ، وينبغى على ممثلي تيار الفكـر العربي الجديد فى محاولتهم ايجاد المعادلة الصعبة التوفيق بين التغيير الداخلي ذي الطابع الوطني والعمل الوحدوي العربي الذي سيستفيد من كل تحول جذري يحدث فى أي قطر من الاقطار العربية ٠

يقـول محمد زفـزاف :

« نحن نشـعـر انـــنا مدعوون الى التغيير فى نطاق التشبث بماضينا وحاضرنا العربيين ، اذ لا يمكن ان يتم هناك تغيير بعيدا عن الرقعة العربية ، فبقدر مـــا نطمح لتغيـير أوضاعنا الداخلية ، نزداد تشبثـــا بروحنا الوحدوية العربية » (12) ٠

1) أنظر : فى هذا الصدد ازمة التطور الحضاري فى الوطن العربي الكويت 1975 ·

2) أنظر مثلا : ملف عبد الناصر بين اليسار المصري وتوفيق الحكيم ، القاهرة 1975

3) راجع دراستنا عن « اختلاف الاتجاهات الادبية وآفاق المستقبل العربي » ضمن كتابنا « من قضايا الفكر » ، تونس ، 1975 ، ص 91 وما بعدها ·

4) أنظر دراستنا « احياء تراث الفكر العربي دعامة أساسية لبناء مجتمع عربي حديث » ، ن· م· ، ص 111 وما بعدها ·

5) مجلة «المعرفة» ، كانون الاول ، 1977 ، ص 135 ·

6) راجع دراسة أدونيس : « خواطر حول بعض مظاهر التخلف الفكري فى المجتمع العربي » ضمن كتاب « ازمة التطور الحضاري ·· » سبق ذكره ، ولا سيما خلاصة الدراسة ص 192 · وقد عرف بموقفه من التراث فى كتابه « الثابت والمتحول » ، أنظر نقد الاستاذ يوسف اليوسف « هل الامة العربية معادية للابداع ؟ » الموقف الادبي ، كانون الثاني ، 1978 ، ص 107 وما بعدها ·

7) راجع دراستنا « احياء تراث الفكر العربى ··· » سبق ذكره ، ص 121 وما يليها ·

8) أنظر بحثنا : « من قضايا النخبة المثقفة فى الاقطار العربية » ، مجلة « آفاق عربية » ، حزيران 1977 ، ص 100 وما يليها ·

9) راجع دراستنا : « التيارات الاصلاحية ومفهوم الامة والوطن » ، أبحاث الندوة الاسلامية الرابعة عن « العالم الأسلامي المعاصر : أوضاعه ومشاكله » ، القيروان ، فيفري 1978 ، تحت الطبع ، أنظر أيضا تحقيقنا لوثيقة حول عدم مشاركة ممثلين عن اليهود فى المؤسسات الدستورية للدولة التونسية قبيل الحماية ، المجلة التاريخية المغربية ، جانفي ، 1978 ، ص 117 وما بعدها ·

10) الموقف الادبي ، تموز ، 1975 ، ص 96 وما يليها ·

11) الموقف الادبى ، آب ، 1977 ، ص 119 ·

12) مجلة « المعرفة » ، كانون الاول ، 1977 ، ص 134 ·

الـــدين و اللغـــة و التـربيـــة عنـد فيختـه (*)

ترجمة وتعليق من مولود قاسم نايت بلقاسم



يقول الفيلسـوف الالمانى الكبير يوهـان غوتليب فيختـه ، فى كتابه الكبير : « نداء الى الامة الالمانية »، فيما يقول،عن العنـاصر المكونة للامـة ، ما يـاتى:(1)
« ان وجود أمـة من الامم بوجود إنيتها " Ichheit " ، التى هى شخصيتها ، وان هذه الشخصية تتكون من عناصر ثلاثة : الدين ، واللغة ، وحب الوطن .

« أن تربية الشعب على التمسك بالدين والاخلاق هى أساس كل حكومة ، وعلى الحكومة ان تؤسس معهدا دائما لهذه التربية الدينية ، وهذا المعهد جزء لا يتجزأ من مؤسسات كل دولة حكيمة طيلة دوامها » .

(*) هذه الفقرات المقتبسة سبق أن نشرناها فيما مضى . ولكننا نعيدها هنا نظرا لما أثير حول موضوع اللغة فى السنوات الاخيرة من نقاش فى ألمانيا مثلا ، حيث كتبت الجريدة الالمانية الشهيرة « فرانكفورتر الغماينى تزآيتونغ « Frankfurter Allgemeine Zeitung » بتاريخ 12 أغسطس 1978 افتتاحية تحت عنوان « اللغة الالمانية هى المادة الرئيسيـــة « Superfach » أن اللغة الالمانية ينبغى أن تعود هى « مادة المواد » « Fach der Faecher » وكتبت لوموند الفرنسية بتاريخ 15 يوليو 1978 مقالا هاما فى الصفحة الاولى تحـت عنوان « اللغة هى الجنسية » « La langue, c'est la nationalité » ودار ما دار من أخذ ورد عندنا منذ أقل من عامين عن اللغة هل هى « شكل أم جوهر ؟ » .

نعيد اذن نشر هذه الفقرات من الفيلسوف الالمانى متمثلين بقول أبى الطيب :

وليـس يصـــح فى الاذهـــان شىء ◦ اذا احتـــاج النهـــار الى دليـــل !

(1) J. G. Fichte « Reden an die deutsche Nation »

« وان ظن الدولة (أى الالمانية) بانها فى استطاعتها تسيير الشعب بدون هـذه التربية الدينية والاخلاقية ، وتهاونها فى هذه المسالة ، هما اللذان أديا بها الى الحالة التى تتخبط فيها اليوم ! » . (1)

« على ان هذه التربية الدينية والاخلاقية لا ينبغى أن يكون هدفها العالم السماوى غير الحسى فحسب ، اذ ان الحياة ارضية وسماوية ، والذى لا يؤمن بالحياة الارضيـة مصيره الى الزوال السريع » .

« ان الفهم الحقيقى للاشياء هو ان الحياة الارضية حياة حقيقية جميلة ، علينا أن نحياها ونتمتع بها بحق شاكرين ، فى ظل احترام الدين والاخلاق ، وفى انتظار الحياة السماوية التى هى أعلى منها » .

« على انه اذا كانت فى الدين تعزية للعبيد المضطهدين عن عبوديتهم ، فان الروح الدينية فى الواقع هى التى ينبغى أن تحث هؤلاء العبيد على رفض عبوديتهم تلك ، وعلى تحرير انفسهم . ويجب علينا ان نعمل كل ما نستطيع ضد استغلال الدين وامتهانه الى دركة (أى عكس درجة) جعله تعزية وسلوى للعبيد ! » .

« ان الطغاة يميلون طبعا الى امتهان الدين واستعماله كمخدر لحرمان ضحاياهم من الحياة الارضية ، بدعوى ان حياة سماوية تنتظرهم . ولكن علينا ألا نقبل من الطغاة هذا الامتهان للدين ، كما ان علينا أن نمنعهم من تحويل الارض الى جهنم ، ليشوقونا أكثر الى الحياة السماوية » .

2) ـ « ان اللغة هى رمز وجود الامة ، وبقدر أصالة اللغة والمحافظة على اللغة الاصلية (2) أو فقدانها تكون المجموعة البشرية أمة وشعبا أصيلا أو مجرد أشتات فحسب » .

« واللغة أو المحافظة على الاصل تؤثر على التراب ، أى الوطن الجديد . فالالمان الذين هاجروا الى امريكا وكونوا هناك جاليات ومدنا ،كاملة يتكلمون بلغتهم ، ويحيون حياتهم ، ويحافظون على تقاليدهم ، وبقوا ألمانا رغم تبدل التراب ، أى رغم حياتهم فى

(1) 1804-1814.

(2) Ursprache.

بلاد غير بلادهم الاصلية . أما الالمان الذين لو تغلب عليهم المحتل الاجنبى وانساهم لغتهم فهم لن يعودوا المانا رغم انهم بقوا فى ألمانيا » .

« ان اللغة هى التى تكون الانسان ، وليس العكس ، وهى التى تؤثر فيه ، وليس العكس . فهى صدى روح الامة ، وتؤثر فى التصورات ، وتصبغ عليها معانى والوانا، وتعكس عليها اشعة أو ظلالا خاصة بها هى التى تجعل الانسان من هو ، وليست مجرد أداة يعبر بها الانسان عن نفسه . بل هى ، اى اللغة ، الطبيعة الانسانية التى تبرز منه فى شكل أصوات خاصة معينة لا يمكن ان تكون غيرها ، اذ بهذه الاصوات الخاصة التى هى صدى الروح ، بما تحمله من شحنات عاطفية ، وتصورات ، ومفاهيم ، وذكريات مشتركة ، يتفاهم الانسان مع من يشاركونه نفس التصورات . ونفس المفاهيم، والطبائع ، والتقاليد ، والعادات ، والذكريات ، أى مواطنيه ، ولو كانوا ولدوا فى قارات أخرى غير قارته ! » .

« فهى تلك الطبيعة الانسانية ، أى الطبيعة الوطنية المشتركة ، التى تبرز فى شكل اصوات ، هى الالفاظ ، هى اللغة . انها التى تكون الحلية ، وتطبع الانسان بطابعها ، وتشكله بشكلها ، وتؤثر فيه التأثير العميق الذى يجعل منه انسانا آخر ، بمميزاته الخاصة به ! » .

« انها تلك القوة الطبيعية العارمة Naturkraft التى تتدفق تلقائيا ، وتؤثر فى الانسان والحياة تأثيرا مباشرا فعالا ، بما تشحنه من طاقة كامنة ، وقوة ديناميكية فياضة تدفع الى الامام ! » .

« انها ذلك السيل المتواصل stetiger Fluss ، لا بمعنى السيلان الدائم الديمقريطى (1). أى التغير ، بل بمعنى الدوام ، والاستمرار ، والتواصل ! » .

« ان الذى يفقد لغته يمزق الخيط الذى يصله بالاجداد ، ويفقد معها حلقات ماضيه ، ويشعر بفجوة عميقة حقيقية فى تطوره ، ينقطع عن أصله ، كجلمود صخر انفصل عن

(1) ديمقريطى ، من ديمقريطوس ، الفيلسوف اليونانى الشهير صاحب نظرية السيلان الدائم ، أى التغير ، ونظرية الذرة .

الصخرة الأم ، وحطه السيل من عل ، فجرفه وقذف به بعيدا الى اعماق الذوبان ، والامحاء ، واللاوجود . لان اللغة الاصلية هى الحياة ، والتى تمد بالحياة ، ولان الامم المغلوبة التى تفقد لغتها تندمج وتذوب فى جنس اللغة الغالبة ! » .

« ان اللغة تؤثر فى الشعب المتكلم بها تأثيرا لا حد له ، يمتد الى تفكيره ، وارادته ، وعواطفه . وتصوراته ، والى أعماق اعماقه ، وان جميع تصرفاته تصبح مشروطة بهذا التأثير، ومكتفية به » .

« بل وابعد من هذا : ان الشعب المتأثر بلغة أجنبية يبتلع بدون شعور حتى الشتائم الموجهة اليه ، ويتبناها ، ويوجهها الى نفسه ، رغم انها ضده ، وعندما يفيق من ذلك فكل ما يبقى له هو محاولة التجرد من نفسه . وتقمص شخصية الامة الغالبة ماديا ، أو روحيا ، أو كليهما معا ، حتى يتم اندماجه فيها كلية ولا تنطبق عليه كلمات التحقير المخصصة لبنى قومه » .

« ولأن اليونان غرسوا فى الرومان مركب النقص وسموهم المتوحشين Barbaren ، حاول الرومان طاقة جهدهم تقليد اليونان فى كل شىء ، ليتخلصوا من جلبابهم ، ويصبحوا يونانا . ولا تنطبق عليهم صفة المتوحشين » .

«وكذلك لان الرومان وصفوا الالمان بهذا النعت بذل هؤلاء الاخيرون كل ما استطاعوا من جهد لتقليد الرومان والاندماج فيهم ، وذهب بهم مركب النقص،والتأثر بالرومان ، والتعلق بهم ، والحرص على التشبه بهم ، الى حد الغاء جميع الكلمات التى يبدو عليها طابع الاصالة الجرمانية ، ليحلوا محلها كلمات لاتينية ، لان هذه الاخيرة فى نظرهم مثال النبل ، والاناقة ، ورمز الثقافة الرفيعة ! وحتى عندما بقيت هناك كلمات المانية بجانب كلمات لاتينية بنفس المعنى كان أجدادنا الجرمان اولئك يستعملون الكلمات اللاتينية طبعا ، ويفضلونها على الالمانية التى كانت فى نظرهم بحكم اندماجهم ومركب النقص لديهم رمز التأخر . والبدائية ، والهمجية ! »

« مساكين أولئك المندمجون الهاربون من اصلهم ، اللاجئون الى اعدائهم ! وهذا مرض عميق فى نفوسنا ، نحن الالمان ، حتى جاء مارتين لوتر فاحيا الالمانية من جديد ، وبعث فيها النشاط والقوة ، وأرجع لها مكانتها وأصالتها ! » .

« ان لغة أمة من الامم هى قوتها الطبيعية ، كما ذكرنا ، وعليها ان تستنفد كل ما فى هذه اللغة من امكانيات ، وملكات ، وقوة طبيعية للتعبير عن نفسها ، مع تنسيق الالفاظ ، واختيار المعانى ، بحيث تصبح كلا متناسقا ، منسجما انسجاما منطقيا ، ودالا دلالة واضحة تامة » .

« اما تلك الطبقة التى تتساهل فى لغتها ، او تريد تبسيطها ، وتتوخى السهولة ، وتتحاشى الالفاظ الصعبة النطق ، فهى لا حق لها اطلاقا فى المشاركة معنا فى هذا الموضوع ، اذ ان هذه الطبقة نفسها هى التى تتباهى بكل ما هو أجنبى عنا من لغة ، وعادات ، ولباس ، وترى فيه النبل كل النبل ! » .

« وان هذا المرض ، مرض التهافت على كل ما هو من الخارج لدى طائفة من مواطنينا ، هو أصل جميع مصائبنا ، وسبب الهوة التى تزداد اتساعا بين هذه الطبقة المترطنة بلغة الاجانب ، والمتباهية بزيهم فى الملبس ، والمقلدة لهم فى الاخلاق ، وعامة الشعب المتمسك بأخلاق البلاد ، والمحافظ على لغته التى هى قوته الطبيعية ، والضامنة لأصالة شخصيته ، واستمرار وجوده ! » .

« والدولة التى تفرض على الشعب التجنيد الاجبارى لرد الغزو المادى ، مع احترام حقوق الفرد وحريته فى الظروف العادية ، لا يحق لها فقط ، بل يجب عليها ، ان تفرض عليه أيضا التربية الصحيحة لتحصينه من الغزو الروحى ، وتضمن له الاستمرار والخلود ، **وكل تربية صحيحة سليمة لا يمكن ان تقوم الا على أساس اللغة القومية الاصيلة التى هى القوة الطبيعية الاولى للامة ! »** .

« **ولان ضمان استمرار الامة متوقف كل التوقف على هذه التربية ، نرى ان حل مشكلة التربية شرط أساسى لحل جميع المشاكل الاخرى ، وان الامة التى تحقق التربية المثلى هى الوحيدة التى تستطيع أن تحقق الدولة المثلى ! »** .

« **وفى هذا السياق تتحتم علينا كتابة تاريخ أمتنا** ، تاريخ يلهب ويحمس ، ويدفع بنا الى الامام ، تاريخ يكون لدينا مثل الانجيل ، ويقرأ بنفس الحب ، والتقديس ، والاجلال ، تمجيدا للاجداد ، وحثا لأنفسنا على اقتفاء أثرهم ، لنكون جديرين بالانتساب اليهم ، ولنترك شيئا للاجيال المقبلة ، لاستمرار شخصيتنا ! » .

« ان هذا الفسخ والمسخ لروحنا ، وان هذا المحو لشخصيتنا وإنيتنا " Ichheit " **وان هذه التبعية العقلية والعاطفية للاجنبى ، وهذا الانسلاخ عن الشعب،كل هذا يؤدى الى حب التقليد للاجانب** . وترك الشعب بعيدا ، **بل يؤدى حتى الى خيانته وغدره، وصراخ فى وجهه اذا ما نادى للرجوع الى اصله واحترام اصالته ! »** .

« وهذه التبعية نجدها احيانا تختفى ، وتتستر ، وترتدى اردية مختلفة تتقنع بها . ولكنها تتكشف فى النهاية ، مهما كان مخبؤها عميقا ! » .

3) وعن العنصر الثالث للشخصية وحياة الامة ، وهو حب الوطن ، يقول فيخته :

« فكما ان الدين هو العنصر الدائم لحياتنا الروحية العليا ، كحياة روحية بمعنى الكلمة . فان حب الوطن هو العنصر الدائم والاساسى لحياتنا المدنية كمواطنين » .

« ان الوطنى هو الذى يعمل على تحقيق هدف الانسانية قبل **كل شيء فى امته التى هو عضو منها** . ان الوطن خالد ، هذا الوطن الارضى الحسى الذى نحن فيه ، وان الذى لا يحب وطنه ليس له وطن . وانى لأرثى كل الرثاء لمن لا وطن له ! » .

« ان الذى يريد الخلود لنفسه لابد أن يريده لوطنه ، وان الوطن لخالد ، والحب لا يتعلق الا بالخالدات ، والذى يريد الخلود لوطنه ارادة حقة يدركه لا محالة ! » .

« انظر فقط الى مثل الرومان وتمجيدهم لروما . لانهم كانوا يرون فيها الخلود لها ، ولانفسهم من خلالها ، ولكل ما تمثل من قيم فى نظرهم ! وقد تحقق لهم ذلك ! فكل ما فى روما حقيقة خالد ، لانها ارادة شعب كامل اراد لها ذلك الخلود ! » .

« ونحن الالمان ، كيف كنا سنصبح تحت حكم الرومان الذين كانوا يزحفون لاحتلال أرضنا ، ومحو لغتنا ، والقضاء على ثقافتنا . لولا حب الوطن هذا ، ولولا رغبة الخلود لدى اسلافنا ، ولولا كفاحهم الطويل المرير ؟ » .

« لقد حاول الرومان أن يغدقوا علينا نعمهم كلها ، التى كانت تتمثل فى الالقاب ، وفى ثقافتهم ، ولغتهم ، وعاداتهم،مع العبودية ، لتعويضنا بذلك كله عن حريتنا ، وثقافتنا ، ولغتنا ، وعاداتنا » .

« ولكن اسلافنا اعتبروا جميع تلك النعم نقما ، وقاوموا،وتشبثوا بلغتهم ، وثقافتهم ، وعاداتهم ، وحريتهم . وبفضل كفاحهم ورغبتهم فى الخلود بقينا من نحن ، أى الالمان الى الابد . ولاسلافنا أولئك تدين أيضا حتى تلك القبائل والشعوب الجرمانية الاخرى التى لم يمحها الرومان من الوجود ! » .

« وعلينا يقع اليوم عبء ومسؤولية العمل على ازالة شبح العبودية الجديدة فى شكل الرومان الجدد ، الذين يريدون أن يمحوا كياننا ! » . (1)

« علينا ان ندافع عن ثقافتنا ، وأصالتنا ، ولغتنا ، حتى نبقى دائما المانا ، ونضمن الخلود لانفسنا وابنائنا ، وأحفاد أحفادنا الى أبد الآبدين ، ولنبقى من نحن ، بجميع مقوماتنا وعناصر كياننا ، أى ان نبقى ألمانا ! » .

« وانا سنتغلب فى النهاية ، لان النصر ليس للقوة المادية ، ولا لكثرة الاسلحة وتنوعها ، بل للقوة الروحية ، للعزم وارادة الخلود ! » .

« ارجو ــ وربما أخطأت فى هذا الرجاء، ولكن بما انى لا اريد ان ابقى حيا بعد اليوم الا من أجل هذا الرجاء ، لا اريد الا ان اتمسك به ، وهو ان اقنع بعض الالمان بان التربية وحدها هى التى ستخرجنا من هذا المأزق ، وتنقذنا من جميع هذه المصائب التى بلينا بها ، وليضحك كل من تساوره نفسه بالضحك من هذا الامل ، وليسخر بى من شاء » .

« ان الاشياء بأسبابها . ونحن نعرف الاسباب التى أدت بنا الى ما نحن عليه الآن ، وهو الاهمال والتهاون . ولكن هذا الاهمال كان فى الماضى ، ولنترك الماضى ماضيا لانه خارج طاقتنا » .

« ولئن كان الحاضر أيضا ليس فى وسعنا لانه نتيجة لذلك الماضى ، فان المستقبل بايدينا ، وعلينا ابتداء من اليوم ان نعد أنفسنا لمستقبل جدير بنا وبامتنا . **وكل من تتجاوز اهتماماته البحث عن الخبز فقط مطالب بان يساهم فى هذا التجنيد لاعداد المستقبل** . وليكن المسؤولون الاولون فى الدولة ، ومساعدوهم ، ومستشاروهم ، على

(1) حملة نابليون على المانيا والنمسا .

رأس العاملين لهذا المستقبل ، حتى نرى فى حياتنا ذلك اليوم الذى يمحى فيه العار الذى ألحق بالاسم الالمانى وبالمانيا محوا نهائيا والى الابد ! » .

« **ان التربية فقط هى التى تستطيع أن تنقذنا من هذه الهمجية الانحلالية الزاحفة علينا** ، ولذا يتحتم على جميع الالمان **الذين يتمتعون بمعرفة الالمانية ، وليس فقط بالجنسية الالمانية** ، ان يعملوا من أجل هذا الهدف الوطنى المشترك بين جميع الدول والدويلات الالمانية اللغة ! » .

« **ان هذه التربية ينبغى طبعا ان تكون باللغة الالمانية ، والمعلمون ينبغى أن يعلموا بالالمانية ، والكتب الدراسية تكون بالالمانية ، وذلك انى لا اتصور كيف يكون الامر غير ذلك ! انى لا اتصور أن تكون هذه التربية بلغة اخرى غير الالمانية ، انى لا أتصور ان يعلم المعلمون وتؤلف الكتب الدراسية بلغة أخرى غير اللغة الالمانية ، اية كانت هذه اللغة ! »** .

« **ان هذه التربية يجب أن تكون وطنية** بمعنى الكلمة ، **لا مواد اجنبية مترجمة** ، بل باللغة الالمانية ، تتدفق من ينابيعها ، وتستمد قوتها من حياة هذه اللغة ، **التى سميناها القوة الطبيعية للامة ! »** .

« انى ادعو الدول الالمانية الى التسابق فى هذا المجال ، وان الفضل سيكون للتى ستأخذ المبادرة ، وستتلوها جميع الدويلات الالمانية الاخرى معترفة لها بالجميل ، والاحترام للجذع المشترك ، وشاكرة لها قصب السبق كاكبر محسن الى الامة كلها ! » .

« ان الموقف خطير ، وانى لا أمزح ، ولست هنا لأحكى لكم آخر نكتة ، هذه العادة السيئة التى بدأت تتفشى لدينا ! وذلك ان الامة الالمانية أمة مهددة فى كيانها وانيتها المميزة لها عن الغير ! » .

« ان اللغة تسير جنبا الى جنب مع الاستقلال ، فالشعب الذى يفقد الاستقلال ، يفقد

لغته بصورة آلية ٠ وحتى اذا لم يفقدها ، فلا يمكن ان يكون لها ادب ، وذلك انه اى ادب يمكن أن يكون لشعب فقد استقلاله السياسى ؟ » ٠

« كما ان الذى يفقد لغته ينتهى به الامر الى الذوبان ، كما ذكرناه آنفا ، وذلك ان اللغة هى القوة الطبيعية الاولى لأمة ما ، فهى صدى روحها وأصالتها ، (1) وهى لسان شخصيتها والحافظة لتراثها ، والضامنة لاستمرارها الروحى ، والرابطة بين أجيالها الى آخر الايام ! » ٠

« **ان العبد ياخذ لغة سيده** ، الا نرى الآن أدباء لنا وقد بدأوا يتسابقون الى الكتابة بلغة المحتل ، للمدح،والتملق ، والتقرب ؟ ماذا سيكون المصير بعد جيل ، أو جيلين ، أو ثلاثة ؟ » ٠

« ان التاريخ يعلمنا انه كلما وجدت أمة من الامم الا وكانت لها لغتها الخاصة ، وان فقدانها لهذه اللغة يؤدى بها لا محالة الى فقدان وعيها ، وانيتها ، وذاتيتها ، لان المحتل يحرص دائما على فصل ضحاياه عن ماضيهم بقطع وسيلة الاتصال التى هى صدى اسلافهم ، والقوة الطبيعية الحية لامتهم ، اذ ان اللغة المكتوبة هى الاسمنت الذى يضمن تماسك الوحدة الوطنية ، وهى العروة الوثقى التى تربط بين الاحياء ، وتصل بالاموات، ويكتب بها سجل الامم ! » ٠

« ان شخصية امة من الامم ليست شيئا اصطناعيا ثانويا ، بل هى شجرة تضرب بجذورها فى اعماق تلك الامة ٠ وان عظمة أمة من الامم ليست فى المظاهر العابرة ، وعبقرية الرجال لا تقاس بالتماثيل التى تقام لهم ، ولا بالتصفيق والهتاف اللذين يقابلون بهما ، ولا هى فى الالقاب التى يسبغونها على أنفسهم ، وانما تقاس بالاعمال التى يقومون بها ، وتتمثل فى راحة ضميرهم ، وحكم الاجيال ، وسجل التاريخ ! » ٠

« ولذا لا أفهم هؤلاء الذين يتملقون هذا العبقرى العظيم (1) الذى يريدون ان

---

(1) يقصد نابليون الذى احتل المانيا ورحب به غوته Goethe مهللا ، وهمبولدت (Humboldt)، وموللر Mueller ، وهيغل Hegel ،وغيرهم ، بينما كان هو ، فيخته ، وبيتهوفن، وصديقهما الشاعر الثورى شيللر Schiller يرفضون كل اتصال به ويقاومونه ، كل فى ميدانه ، وينادون الشعب الالمانى الى المقاومة ٠ وعندما كتبت زوجة فيخته الى زوجها تخبره باستقبال نابليون لهمبولدت أجابها فيخته ، وهو بعيد عن برلين ، « انى لن يحصل لى مثل هذا الشرف المخزى ! » «diese schmachvolle Ehre !» S. Rosenkranz : « Hegels Leben »

يسندوا اليه مهمة توجيه العالم وتسيير الشؤون الدولية ! » .

« ان هؤلاء المساكين لا يعرفون معنى العظمة والعبقرية ! » .

ويمضى فيخته فيقول لهؤلاء المتملقين ـ كما يسميهم ـ : « لا ، أيها الالمان ، أيها المواطنون ، لا نسمح لكم بهذا الهراء ، **ولا نتركم تدنسون لغتنا الى هذا الحد بتملقكم هذا ، وهى التى خلقت للتعبير عن الحقيقة !** » .

« أيتها الامة ، أيها الالمان ، استمروا فى نومكم وتهاونكم ، حتى تفقدوا جنسيتكم ولغتكم . وان أبناءكم هم الذين سيدفعون ثمن تهاونكم هذا ! **افقدوا أعز ما يملكه الانسان ، الخلق ، وذوبوا فى غيركم !** » .

« لا أيها المواطنون ، بل قوموا ودافعوا عن بلادكم ، وشخصيتكم ، ولغتكم ، وثقوا ان اصوات الاجداد الذين طردوا الرومان من هذه الربوع ، وحرروا هذه الجبال ، والسهول ، والانهار ، تمتزج الآن ، فى هذه اللحظة ، بندائى هذا اليكم ، لتحثكم على انقاذ أصالتكم ولغتكم ، واسترجاع حريتكم ، ولا تلحقوا بهم العار والشنار ! » .

« قوموا ، ان مصير الانسانية كلها مرتبط بكم ، ومتوقف على مصيركم ، واذا غرقتم فستغرقون الانسانية كلها ! » .

« هل تعرفون شيئا أدهى من الموت ؟ ان الموت ينتظرنا على كل حال ، قمنا أم لم نقم . وقد ضحت شعوب بحياتها لمسائل أقل أهمية بكثير من قضيتنا . وهل هناك قضية أهم من هذه ؟ » .

« هذا ما أردت أن قوله لكم ، وأؤكده ، وكان واجبا على أن أقوله وأؤكده ! » . (1)

يوهان غوتليب فيخته

---

(1) وبهذا ختم نداءه الى امته وذهب ليتطوع فى الجيش، وتبعه أغلب تلامذته من جامعة برلين ، كما تبعته زوجته ، ولكنه لم يقبل فى الجيش ، ورجع الى الجامعة يحاضر ، ويوجه نداءاته ، وينتقل من جامعة الى أخرى . ثم اعاد الكرة ورفض من جديد ، ولكن زوجته قبلت كممرضة فى احد مراكز الجرحى ومرضى الاعصاب من الجيش فى برلين . فأصيبت بعدوى ومرضت ، وعوض العناية بها ظل فيخته يحاضر ويوجه نداءاته فى جامعة برلين ،

« ليغطى بصوته طبول نابليون ومزاميره وهى تضج حول الجامعة » (2) . وفى احدى المرات قفل الى البيت مهرولا فوجد زوجته فى حالة سيئة وقد تفاقم مرضها ، فأخذته الشفقة عليها واقترب منها كثيرا يسألها عن حالها ، فأصابته العدوى ومرض بدوره !

وعندما قدم له ابنه دواء قال لـه فيخته رافضا : « دع ، كفى ، (3) انى انتهيت ! » . ومات فى سبيل مبادئه ووطنه بعد أن تحررت بلاده بأيام قليلة ، وذلك فى 27 من يناير 1814 ، مرتاح الضمير ، هادئى البال ، راضيا عن نفسه ، ولا يزال يعتبر حتى اليـــوم كاكبر (4) أنصار الحرية من بين الفلاسفة الالمان ، الى جانب استاذه كنط ، وصديقه شيللر، وصديق الجميع : الموسيقى الثائر الخالد : لودفيغ فان بيتهوفن ، الذى ظل يزمجر بأقواله ، ويرعد بألحانه (5) ، ويحرك العزائم والهمم ، انتصارا لبلاده ، ولقضية الحرية ككل !

(1) Fichte : « Reden an die deutsche Nation ».
(2) Th. Vogt : « Fichtes Biographie ».
(3) W. O. Doering : «Fichte ».
(4) Th. Vogt : « Fichtes Biographie ».
(5) Pahlen : « Musikgeschichte der Welt ».

الحرية والحتمية فى الفلسفة الاسلاميـــة

نظمت وزارة الشؤون الثقافية التونسية بمدينة المنستير أيام 20 ـ 21 ـ 22 أكتوبر 1978 الملتقى الثـانى للامام المازرى وخصص هذه المرة لمعالجة موضوع من أهم المواضيع الفلسفية لا في تاريخ التفكير الفلسفى الاسلامى فحسب ، وانما فى تاريخ التفكير الفلسفى عموما • وهو موضوع : « الحرية والحتمية فى الفلسفة الاسلامية » •

وشاركت فى هذا الملتقى نخبة من رجال الفكر والثقافة فى تونس ، من الجامعة ، ومن قطاعات ثقافية أخرى ، بالاضافة الى اطارات ولاية المنستير ، وطلبة الثانويات بالجهة •

وبالنسبة للخارج ، فقد دعيت الجزائر ، ومثلها كاتب هذه الكلمات ، بالتعقيب والمناقشة • ومن المغرب الاستاذ الدكتور محمد عزيز الحبابى •

واشرف على جلسة الافتتاح الاستاذ محمد اليعلاوى ، وزير الشؤون الثقافية ، والعميد السابق لكليـة الآداب بالجامعة التونسية ، الذى القى كلمة رحب فيها بالوفد الجزائرى والمغربى • وعبر عن أمله فى استمرار هذا التعاون الثقافى على المستوى المغاربى (كما يحلو لصديقنا الحبابى ان يقول) ، خاصة ، وتنميته عـــلى الدوام • ودعا الى تركيز الموضوعات مستقبلا ، على الاهتمامات المشتركـــة للبلدان المغربيـة لوحدة تراثنـا الثقـــافى •

ثم قدم توجيهات ، وملاحظات حول أسلم السبل لنشر الثقافة فى مختلف المناطـق التونسيـة ، وضرورة الانطلاق من مبدا العدالة فى توزيع النشاطات ، أو ما يسمى باللامركزية الثقافية والح ، بصفة خاصة عـــلى ضرورة مشاركة اطارات الجهة التى تعقد فيها هذه الملتقيات لان هذه فرصة لابراز المواهب ، والكفاءات المتوفرة خارج العاصمـــة •

والملاحظ أن هذه الملتقيات تعقد دائما تحت شعار شخصية من الشخصيات الثقافية التونسية ، ويكـون موضوع الملتقى مستمدا من الاتجاه الثقافى الغالب على هذه الشخصية •

والملاحظ ان التجربة التونسية فى هذا الميدان تقوم على أساس تكوين لجان ثقافية فى كل ولاية ، تتوفر على تجهيزات مادية من شانها أن تلبى حاجيات السكان فى الاستمتاع بالثقافة بمختلف فنونها • وتتولى تنسيق نشاطات هذه اللجان ، لجنة تسمى « اللجنة الثقافية القومية » ، مركزها بالعاصمـــة •

وكل المحاضرات التى تلقى تطبع فى كتب تعميما للفائدة ، العاجلة والآجلة •

ان هذه التجربة التى تتبعها تونس تستحق كل التنويه ، ونتمنى لها التطور المستمر ، والفعالية المتزايدة لما فيه خير الثقافة ، وخير المواطنين التونسيين •

ونامل ان تتضافر الجهود ، وتتكامل ، بين المسؤولين عن الثقافة فى البلدان المغربية خاصة ، لاشاعـــة الثقافة على أوسع نطاق ممكن ، ومجاوزة حالة التخلف التى عرقلت ، وتعرقل ، كل طموحنا الى الحياة الانسانية الراقيـــة •

وفى اطار المساهمة فى خلق هذا المناخ ••• مناخ التفاعل والتكامل تنشر الأصالـة فى هـذا العـدد بعض محاضرات هذا الملتقى الهام ، الملتقى الثانى للامام المازرى •

عثمـان شبـوب

حـول مشكلـة القضـاء والقدر
فى الفكـــر الاســلامى

د. الحبيب الفقي
أستاذ الفلسفة بالجامعة
التـونسية



ابعـاد المشكلة :

لقد أحس المفكرون المسلمـون بوضعية الانســان الغامضة والمقلقة ، وبالظروف التى يعيش فيها وعلاقاته بنواميس الطبيعة وبالاله · وقد فهموا ان كـل دقيقـة تمر من عمر الانسان الا وتحمل فى طياتها سرا من أسرار القدر المجهـول · نعـم ان وضعية هذا الكائن وتصرفاته وعلاقاته بالآخرين وما تعرض له من أحداث لتبعث على القلق والحيرة وبالتالى على التامل والنظر · فمنـــذ القرن الرابـع الهجرى وصف اخوان الصفـاء ملحمة البؤس والشقاء التى يتقلب فيها الانسان فقالوا : « ··· تعيش النفس محبوسة فى عالم الغربة وموضع المحنة والبلوى غريقة فى بحر الهيولى ، مبتلاة فى اسر الطبيعـة مشتعلة فيها نيران الهاويـة الموقـدة · المطلعة على الافئدة من حريق الشهوات ، فاصبح الناس فى الدنيا مغذبين فى صورة المنعمين ، مجبورين فى صـــورة المختارين ، مغرورين فى صورة المغبوطين ، أحـــرارا

كراما فى صورة عبيد مهانين ، مسلطا عليهم خمسة حكام يسومونهم سوء العـذاب ، ينفذون احكامهم عليهم شاءوا أو ابوا ، ليست لهم حيلة فى الخروج عن احكامهم ولا دفع سلطانهم ولا الخلاص من جورهم الى الممات ٠

أما الحاكم الاول فهو هذا الفلك الدوار الذى نحن البشر فى جوفـه محبوسون ، وكواكبه السيارة التى لا تزال تدور علينا ليـلا ونهارا لا تقر ، تـارة تجيئنا بالليـل وظلمته ، وتارة بالنهار وحرارته ، وتارة بالصيف وسمائه ، وتارة بالشتاء وزمهريره ، وتارة بالرياح العواصف فى زعازعها ، وتارة بالغيوم وامطارها ، وتارة بالرعـود والزوابع وصواعقها ، وتارة بالجدب والغلاء والموتان والبلاء ، وتـارة بالحـروب والفتن ، وتارة بالهموم والاحزان ، ليس منها نجاة الا بجهد وبلوى وكـدر وعنـاء وخوف ورجـاء الى الممـات ٠

واما الثـانى فهو هذه الطبيعة وأمورها المركوزة فى الجبلـة ، من حرارة الجـوع ولهب العطش ، ونار الشبـق ، وحريق الشهوات والآلام والامراض والاسقام ، وكثـرة الحاجات،وليس لنا شغل ليلا ولا نهارا الا طلب الحيلة لجر المنفعة ، أو لدفع المضرة عن هذه الاجساد المستحيلة التى لا تقف على حالة واحدة طرفة عين ، فنفوسنا منها فى جهد وبلاء ، وكد وعناء ، وبؤس وشقاء ، ليس لنا راحة الى الممات ٠

واما الثالث فهو هذا الناموس ، وأحكامه وحـدوده ، وأوامـره ونـواهـيه ، ووعيده وزجره ، وتهديده وتوبيخه ، ان خرجنا من احكامه فضرب الرقاب والحدود ، وان فررنا منه لم نجد لذة العيش ولا صـلاح الوجود فى الوحدة ، وان دخلنا تحت احكامه فما نقاسى من الجـهد والبلوى ، فى اقامة حدوده ، أكثر مما يحصى من ألـم الجوع عند الصيام وتعب الابدان عند القيام للصلاة ، ومقاساة برد الماء عند الطهارات ومجاهدة شـح النفوس عند اخراج الزكاة والصدقات الواجبات ، ومشقـة الاسفار والاحكام عند قضاء الحج والجهاد ، وما نقاسي من الالم عند ترك اللذات والشهوات المحرمات ، وان لم نأتمر ولم ننته ، فـالحدود والاحكام بحسب الجنايات ، ومع هذه كلها « كلا سوف تعلمون ثم كـلا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثـم لترونها عين اليقـين ثم لتسالن يومئذ عن النعيم » ٠ فهذه حالنا ليس لنا منها خلاص ولا نجـاة الى الممـات ٠

وأما الرابع فهـذا السلطان الجـائـر الذى قد ملك رقاب الناس بالقهر والغلبـة ، واستعبدهم جبرا وكرها ، يتحاكم عليهم كما يشاء ، ويرفع ويكرم من يريد ممن يخدمه

ويطيعه ، ويتصرف بين يديه ويتمثل امره ونهيه ، ويضع ويبعد من خالفه ، ويعذب ويقتل من خانه أو غشه • فاذا خرجنا من مملكته ، وفررنا من سلطانه فلا عيش لنا فى الوجود فى هــذه الدنيا ، الا عيشا نكدا ، لاننا قد نحتاج فى لذة العيش وصلاح المعاش الى الجم الغفير من المتعاونين فى المدن والقرى ، فى اصلاح أمر المعاش ، ولابد لهم من سلطان يملكهم ويراسهم ويحكم بينهم فيما يختلفون فيه ويتنازعون ، ويمنع الظالم القوي من التعدى على الضعيف المظلوم ، ويامن لخوفه السبل ، وياخذ الناس بلزوم سنة الناموس ، وتادية موجبات فرائضه التى فى اقامتها وحفظها صلاح الجميع •

فلهذه العلة وبهذا السبب لا يمكننا الخروج من المملكة ، ولا الفرار من سلطانه فان خدمناه وقمنا بواجب طاعته ، فما نقاسى من الجهد والبلوى أكثر من أن يحصى من تعب الابدان ، وهموم النفوس ، وعناء الارواح وتلف الاجساد ، واحتمال الذل وشماتة الحساد ، ومداراة الاخوان ، وعداوة الاقران ومشقة الاسفار ، ومخاوف الحروب ، وما يتكلف من التعب والعناء فى جمع الآلات والاثاث من السلاح والدواب وحوائجها ومرافقها مما لا يحصى عدها كثرة ، وليس لنا منها راحة الى الممات •

واما الخامس فهو شدة الحاجة الى المواد التى لا قوام لهذا الهيكل الا بها من المأكولات والمشروبات واللباس والمسكن والمركب والاثاث ، وما لا بد منه فى قوام الحياة الدنيا ، وما نقاسي من الجهد والبلوى فى طلبها ، ليلنا ونهارنا ، فى تعلم الصنائع والتجارات المتعبة ، والمكاسب المكدة من الحرث والزرع ، والبيع والشراء ، والمناقشة فى الحساب ، والحرص والشره ، وجمع الاموال وحفظها من حيل اللصوص ومكابرة القطاع ، وأخذ السلطان لها بالجور والظلم ، وحراستها من الآفات العارضة التى لا يحصى عددها • كل ذلك بالكد والعناء والهموم والغموم ، وتعب الابدان وعناء الارواح وشقاء النفوس التى لا راحة لنا منها الى الممات • فهذه حالنا يا أخى وحال أكثر أبناء جنسنا فى هذه الحياة الدنيا (1) •

ان هذا النص الذى يحدد ابعاد المشكلة ليصف الحيرة والقلق الناجمين لا عن قسر الطبيعة وحدها بل وعن الظروف السياسية والاجتماعية وعن ضعف الكائن البشري • وهذا ينطبق تماما مع ما جاء فى القرآن : « لقد خلقنا الانسان فى كبد » (90 : 4) •

---

1) رسائل اخوان الصفاء ج 3 ص 306 ــ 309 •

وفى هذا المعنى يقول ألفريد نورث وايتهد بعد عشرة قرون : « فان عادات الطبيعة المادية-عموما وقوانينها الصارمة هي التى تعد المشهد الصارخ لعذاب البشر ، ونجد ان المولد والموت والحر والبرد والجوع والفراق والمرض والطابع اللاعلمى العام الذى يطبع كل اهدافنا · هذه العوامل كلها هي التى تقيد النساء والرجال ، ولا تستطيع تجربتنا ان تلحق بآمالنا » (2) ·

الحرية والوضع الاسلامي :

لقد ظهرت مشكلة الحرية فى المجتمع الاسلامى فى ظروف الصراع المذهبى حين اتسعت الرقعة الاسلامية ، ودخل الى الاسلام شعوب متباينة لغة وحضارة ، ورامت ان تفهم الاسلام فاختلفت فى فهمها له ، وتحزب كل فريق الى آرائه ومبادئه ، ولعب رجال السياسية دورهم حسب ما تقتضيه مصالحهم · وادى الاحتكاك بين العناصر المختلفة فى الثقافة الى تلاشى مفهوم الحرية فى جو من الجدال لم تجن منه الاجيال غير الحلول المبهمة · · ومن الخطل أن ننظر الى هذه المسألة نظرة جدال ونزاع فكرى فحسب فقد لعبت دورا حاسما فى الميدان العلمى · وبنيت عليها مسائل كان لها أكبر المساس بالحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية،لكن هذه المسائل وما دار حولها من نقاش والف فيها من كتب كانت قد اهملت الانسان بما له من قدرات وطاقات خلاقة ، وسلبت منه الاطمئنان وارغمته على قبول ما تشيعه من آراء فى سبيل الحماس الديني الذى كانت بواعثه عداوة الفرق لبعضها ·

واستمرت هذه الآراء التى ظهرت فى القرون الاولى للاسلام والتى تمثل الاتجاهات الكلامية المختلفة ، خلال قرون عديدة ، بل الى اليوم ، وانطلقت اقلام كثير من المدافعين عنها على انها صرح حضارة الفكر الاسلامي ، بينما بقي الفرد المسلم فى حيرة ولم تسعفه تعدد التفسيرات الكلامية الغامضة ، كذلك ظهر فريق من المسلمين يرى فى النظام الجديد الذى فرضه الاسلام فى المجتمع الجديد تحديدا لحرية الفرد وكبتا لمشاعره وطفق يمزق الحواجز التى عندها تقف الحرية الانسانية ، وينادى بالفوضى متسترا بمبدا القدرة الالهية المطلقة (3) ·

---

2) مغامرات الافكار ، ص 106 ·

3) يروي انه اتي بسارق الى عمر ، فقال له الخليفة : لم سرقت ؟ فقال : قضى الله علي بذلك ، فامر به عمر فقطعت يده ، وضربه اسواطا ·

اثـر الالوهية والنبوة فى المفكرين واصحاب المذاهب :

غير ان هناك عاملين لعبا دورا حاسما فى معالجة المسائل الاسلامية وفى تحديد وجهة التفكير الاسلامي وهما الالوهية والنبوة ٠

ان مسالة الاله كان لها بعيد الاثر فى تحديد نشاط الانسان وبواعث اعماله ، وقد اهتم علمـــاء الاسلام بموضوع الاله وبالشريعة أكثر من اهتمامهم بالفرد الذى لاجلـه نزلت الشريعة ، فاضفوا على الاله صفة الكمال المطلق ، وكل صفة دلـت على معنى الاطلاق وحدوه بها ، وبالتالى اصبحت نظرتهم الى الانسان فاترة ، فحكموا عليه لا من حيث هو الفرد الحائز على التقويم والتكريم بل من حيث هو العبد المقهور المتلقي من الله أوامره والمنفذ لاحكامه دون ارادة منه ، فقضوا عليه بالتبعية ، وسلبوه كل استقلال لذاتيته واضحى دور الفرد مبهما ٠

ولاشك ان هذا الاتجاه ونقيضه قد ساهما فى وضـع مجموعة من الاحاديث التى اذا فحصناها فى ضوء الحقائق الدينية بدت متناقضة ، فكانت سببا فى خلق مشاكل عجزت عن حلها اسلم العقول فى الاسلام ٠ ولا ريب ان ما نقراه من مقالات للطوائف المختلفة ليعرض النص القرآنى للمسخ ولسوء النية فى النبى المخبر ٠ فبينما يقول الله انه أوحى « قرآنا عربيا غير ذي عوج » ، نرى الفرق تبحث عن الاعوجاج فى القرآن فى كـــل صوره مستترة وراء متطلبـــات لغوية وعقائدية وعقلية ، فجوزت القول بوجود تناقض فى القرآن ورأت انها مطالبة بتسوية هذا الخلاف ٠

كـل هذا الاختلاف فى وجهات النظر يرجع مـــن بعض الجوانب الى ان الحركات الفكرية لم تستطع ان تهضم ما ابتلعته من المؤثرات الاجنبية ، فظهرت فى بعض الاحيان فى أشكال غـير متناسقـة ولا متناغمة فيما بينها ، وان كانت دوافعها موجودة ، فمن بـين الحركات ما كان يمثل الفكر الاســلامى ويتماشى مع الاصول العامة للعقيدة ، ومنها حركات متطرفة اتهمت بالزندقة ، بيد ان المعايير التى استخدمت لاخراج بعض الطوائف من الدائـــرة الاسلامية والحكم عليها بالالحاد والكفر لا تعكس فى حد ذاتها الا مواقف جد مشبوهة ٠ فالرمي بالكفر والالحاد والزندقة كان طوال قرون عديدة العملة النافقة للتخلص من الخصوم (4) ٠

---

4) أنظر مواقف أصحاب كتب الفـــرق مثل البغدادي فى الفـــرق بين الفـــرق والاسفراييني فى التبصير فى الدين ، والغزالي فى فضائح الباطنية ، ازاء فرق الشيعة.

واما النبوة فقد كان لشخصية النبي الاثر العميق فى توجيه الفكر الاسلامي ، ولا غرو فهو النبي الموحى اليه ، والمعلم المعصوم ، وصاحب الشريعة التى نزلت لتنظيم حياة الانسان ، وهـــو العقل المسير للشؤون الدينية والدنيوية ، وهـــو الموجه لاعمال الفرد مهمـــا كان نوعها ، لذلك كله عز على بعض الفرق الاسلامية أن يتوفى الرسول ولا وكيل على المؤمنين ، منه تصدر السياسة العامة واليه يرجمون فى أمورهم الشخصية • فقالوا بالامام ، وقمصوه شخصيـــة الرسول ، واضفوا اليه كل الصفات التى كان يتحلى بها صاحب الوحي ، وبذلك قبلوا فكرة استمرار هذا العقل المسير فى شخص الامام •

ولا غرو من ان نجد هذه الفكرة التى تبدو باهتة على المستوى الدينى قويـــة وذات اشراق مباشر على الفرد وسلوكه • فعند الصوفية يرمز الى هذا العقل بالشيخ الذى يطلع على أحوال جماعته العائلية منها والمادية • وعند اخوان الصفاء ومذاهب الشيعة عامة يحتل الداعي الذى هو صورة الامام أكبر مكانة عند أفراد دائرته ، وفى الفلسفة نجد الفارابي يتحدث عن المثال الرائع الذى يراس المدينة ، وعند ابن باجة يهتم المتوحد بازالة الشيلم ، ويبسط سياسة انسانية مثالية ، وهدف كل هذه الطوائف التعليمية هو فى تحديد السلوك وبيان حقول العمل لكل الافراد •

لكن الرسول فى القرآن ليس أكثر من مبلغ عن ربـــه رسالته ، وقد جرده الدين الاسلامي من كل صفة تخرجه عن دائرة الانسان ، بل ان الله من أجل اثبات هذه الصفة عمد الى اظهار بعض الافعـــال التى صدرت منه ، فهـــو يلومـه عليها ليحـــدد معالم شخصيته وليبين انها الرسم الحقيقى للانسان • غير ان أغلـــب المسلمين لم يتقبلوا الافعال التى تستحق التقويم والتى صدرت عن الرسول ، وجعلوها من بين الطرق التربوية التى اختارها الله لتعليم البشر خشية أن تذهب بمبدا العصمة ، مع ان هذه الافعال التى صدرت عنه لا تمس عصمته ، لان العصمة من شأنها ان تحفظ علاقة الرسول بربه ، فلا يزيد شيئا ولا ينقص اذا ما بلغ عن ربه ، ولا يرتاب فى شيء وصل اليه من العالم العلوى • أما علاقته بأفراد المجتمـــع فلا تخرج عن دائرة الانسان وملابساته ، فقد يخطيء وقد يصيب غير انه ربي على ان يعامل افراد المجتمع بنفس السلوك الذى يعامل به ربه • لكـــن فريقا من الناس هالهم ان يتحملوا مسؤولية كان الرسول قد تحملها عنهم ، اذ كـــان يرشدهم الى العمل الصالح ويستغفر الله لهم عند المعصية • فكان من بعض الطوائف كما ذكرنا سابقا ان ناصر مبدا الامامة بل ان البعض الآخر بالغ فى ذلك الى درجة ان

أصبح هذا الامام الذى هو صورة الرسول أعلى رتبة منه (5) ، وهذه صورة تعبر عن أهم مسالة خاض فيها مفكرو الاسلام وهي القضاء والقدر ، اذ ان هؤلاء نظروا الى أنفسهم نظرة كلها عبودية وتبعية سخيفة ، وتبرأوا من عقولها المميزة لافعالهم ، لذلك احتاجوا الى من ينظم أعمالهم ، ويرفع عنهم المسؤولية بالاستغفار ، فاذا كانت هذه عقيدة هؤلاء فى الامـــام ، فـلا غرابة ان تكون مسألة الامامة قد لعبت دورا أساسيا ودينيا من أخطر الادوار · وفى هذا القول لاحد الخوارج : « وقد قلدوا أهل بيت من العرب دينهم ، وزعموا ان موالاتهم لهم تغنيهم عن الاعمال الصالحة وتنجيهم من عقاب الاعمال السيئة » (6) ما يكفى لبيان مدى تحمل الامام مسؤولية شيعته.ومهما احتوى هذا النص من اسراف فى المبالغـــة فانه قد يقرر عقيدة من يرمون الانسان بالعجز التام وتلاشيه أمام مسؤولياته عند فقدان الامام ·

الحـرية ومشكلة القضـاء والقـدر :

واذا تتبعنا كتب التاريخ والسير ، فاننا نجد ان مسالة القضاء والقدر قد طرحت على عهـــد الرسول ، ودار حولها نقاش دل على اهتمام المسلمين بها ، ولكن لم يمـــر دون ان يغضب الرسول · وقد أشار القرآن كذلك الى اثارة هذه المشكلة « سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين مـــن قبلهم حتى ذاقوا باسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، ان تتبعون الا الظـــن وان انتم الا تخرصون » (6 ـ الانعام ، 148) وورد فى حديث ان القدر خيره وشره من المسائل التى لا يكمل الايمان الا به · وكان الصحابة الذين عاشوا تجربة دينية الـــى جانب الرسول على وعي تام بهذه المسالة ، ولـــم يشك واحد منهـم فى كونه المصدر الحقيقي لما يقدمه من أعمال ، فكان عمر لا يرحم الذين يتسترون وراء القدر من اجـــل افعالهم الشريرة · فقد أتى بسارق فساله الخليفة عمر : لم سرقت ؟ فقال : قضى الله علي بذلك ، فأمر به فقطعت يده وضربه اسواطا ، فقيل له فى ذلك فقال : القطع للسرقة والجلد لما كذب على الله ـ تعالى.

---

5) أنظر فى الولاية عند الشيعة الغالية وبعض الصوفية ، الصلة بـــين التصوف والتشيع لكامل مصطفى الشيبى القاهرة 1969 ·

6) جولد زيهر ، العقيدة والشريعة فى الاسلام ص 203 ·

ولعلي محادثات طويلة مع القدريين وردود على دعواهم نجد ذلك مبثوثا فى كتاب نهج البلاغة • ومن بين هذه المحادثات ما كان من السؤال الذى وجهه شيخ الى علي فى خصوص مسير علي واصحابه الى الشام لمحاربة معاوية : أكان ذلك بقضاء الله وقدره ؟ فقال علي : والذى فلق الحب وبرا النسمة ما وطئنا موطئا ولا هبطنا واديا الا بقضاء الله وقدره — فقال الشيخ — وكان من شيعته — : فعند الله أحتسب عناى ما أرى لى من أجر شيئا — فقال الامام : أيها الشيخ ، لقد عظم الله أجركم فى مسيركم وانتم سائرون ، وفى منصرفكم وانتم منصرفون ، ولم تكونوا فى شىء من حالكم مكرهين ولا مضطرين — فقال الشيخ : كيف والقضاء والقدر ساقنا — فقال الامام : ويحك لعلك ظننت قضاء لازما وقدرا حتما ، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب والوعد الوعيد والامر والنهى ، ولم تأت لائمة من الله لمذنب ولا محمدة لمحسن ، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسىء ولا المسىء أولى بالذم من المحسن ، تلك مقالة عبدة الاوثان وجنود الشيطان وشهود الزور أهل العمى عن الصواب ، وهم قدرية هذه الامة ومجوسها ، ان الله أمر تخييرا ونهى تحذيرا وكلف تيسيرا ولم يعص مغلوبا ولم يطع كارها ولم يرسل الرسل الى خلقه عبثا ••• (7) واجاب علي الشيخ عن سؤاله : ما القضاء والقدر ، فقال : هو الامر من الله والحكم ، وتلا قوله — تعالى — : « **وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه** » • فاذا اسقطنا علاقة النص بالظروف السياسية نستطيع أن نقول بانه يؤكد وعي الصحابة لمشاكل الانسان •

لكن الغموض الذى عم هذه وغيرها من المسائل جعل تفكير الناس ينقصه الوضوح والدقة بشكل واضح ، فنشات خلال القرون الاربعة الاولى فئات واتجاهات كبيرة فى الحياة الدينية ويمكن لنا ان نرى دوافع الخلاف الاولى تتسع حتى تصبح محاولات فكرية ولكن بعضها يطمح لايجاد تفسير عقلي للفوضى وهذا ما نراه عند الجبرية الذين مروا بظروف سياسية غامضة وربما كانوا من مساعدي خلفاء بني أمية على التمسك بالحكم بدعوى انهم خلفاء الله ولا يصدرون احكامهم الا بقضائه وقدره • واستطاع الامويون استغلال هذا الراي ليثبتوا أمرهم ويلجموا السنة المعارضين.وليس اصدق فى التعبير عن أهداف هذه الحركة من قول قدري : « ان الملوك يسفكون دماء المسلمين وياخذون الاموال ويفعلون ويقولون : انما تجرى أعمالنا على قدر الله (8) وهذا عبد

---

7) عن محمد أبو زهرة : الامام الصادق ، ص 141 — 142 وانظر عيون المناظرات للسكوني تحقيق سعد الغراب ، الجامعة التونسية 1975 ، ص 177 •

8) جولد زيهر ، العقيدة ص 98 •

الملك بن مروان ، الخليفة الداهية ، احضر الى قصره احد نظرائه وخصومه فذبحه باستحسان صاحب مشورته وأمر برمي رأسه الى جمهور المخلصين له الذين كانوا ينتظرون امام القصر عودته كما أمر باعلامهم ان أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق والامر النافذ (9) ·

تستر هذا الفريق وراء فكرة القدر مستندا فى ذلك الى الآيات القرآنية التى ظاهرها يصرّح بالجبر وهو من وراء ذلك يعلن الثورة ضد القوانين الاخلاقية · بل ان التمسك بالقدر يعتبر بحق تحديا لكل النواميس مهما كان مصدرها ، لان الاعمال لابد ان تصدر دون سابق علم الانسان بها · وهنا نسجل المفارقة التالية · ففى الوقت الذى يفيد القدر معنى الجبر والتقييد ، يفيد أيضا معنى الحرية المطلقة التى تعادل الفوضى ، اذ ان الانسان المجبر لا يختلف عن المجنون الذى لا يقيد عمله شىء ، فهو كالريشة فى مهب الريح تتجه بطريقة فوضوية حيثما يسوقها الريح · لكن هذا الموقف يختلف نوعا ما عن موقف الخوارج الذين عبروا عن رأيهم بقولهم : لا حكم الا لله ، ظاهرة هذه القولة الشهيرة التى وجهت الى علي وهو يخطب من على المنبر ، تحطيم اية سيادة انسان على انسان آخر ، وبالتالى سيادة الرئيس على المرءوسين ، فهذا الشعار وان دل على الفوضوية فانه يجب ان نوجهه وجهة سياسية واجتماعية لا وجهة عقائدية لان التاريخ سجلها من أجل ظروف سياسية واضحة ·

فهذه الحركة وإن كانت بدائية فوضوية الا انها حفزت الهمم ودفعت عقول المسلمين الى النضج والحركة ، وفعلا لعبت الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية دورا فى ايجاد حركة مقابلة للحركة الجبرية ، ولعل شعور هذه الفرقة بالواقع السياسي والاجتماعى قد ساهم فى بحث مثل هذه القضايا وان كانت النظرات الكلامية والفلسفية فى ذلك العصر باستثناء مسألة الامامة لم تكن على وجه العموم ذات صلة مباشرة بالمشاكل السياسية والاجتماعية المعقدة ، فرأت هذه الفرقة انه من الواجب رعاية الافكار وعزلها عما قد يركبها وتعميمها تعميما واسعا وتنسيقها مع الأساس الدينى ، فدعت الى اقناع العامة من الناس بالاستناد الى ما هو محل ثقة الجميع واليه يتحاكمون وهو القرآن · اعتمد هذا المذهب الجديد الذى عرف باسم المعتزلة مبدا وجود قوة عاقلة فى الانسان ، بها وحدها يقرر افعاله ويتمها · ولقد نجح هذا المذهب فى التعبير عن

---

9) المصدر السابق ·

القوى الواعية فى الانسان ولاحظت ان الانسان يمثل الطرف المقابل لله فى القرآن ، وقد خصه الله بالخطاب وحمله امانته · ومذهب كهذا من شانه ان يحدث ثورة داخل المحيط الاسلامي ، وان تفهم هذه الثورة فى بداية الامر وعند المحافظين على انها تحد للقوانين الالهية وترك الاخذ بالنصـــوص الدينية ، ولا حاجة لنا الى ذكر المبادىء التى تحدد معالم هذا المذهب ، ويكفى ان نشير الى انه كان يرمي الى نشوء اسلوب جديد فى المعتقد الاسلامي ، ووضع قواعد تحضى بثقة العقل لها القدرة على توفير حياة دينية قوية ، وهو فى ذلك يسعى كما ذكرنا الى تقرير وتاكيد ان الدين نظام خص به الانسان · لذلك علينا ان نراجع مبادىء العقيدة فى ضوء مقاييس العقل ، ونزن بـ ما اشتبه من القضايا · وأهم هذه المبادىء هي فكرة الاله التى هي فى صراع دائـم مع الانسان · فنصوص الوحي وكذلك أحكام العقل تقرر ان موقف الانسان من الاله لا يختلف عــن موقف الاله من الانســـان ، كل ملتزم نحو الآخر بقوانين عليه أن يرعاها · أحس هؤلاء العقليون ان فكرة الالوهية غير واضحة فى عقول المسلمين ، فنشأ عنها لبس واظـلام وتشويه لفكرة التوحيد ، ورأوا تنقية هذه الفكرة مما علقها من اوهام ، كذلك يجب ان نبعد عنه كل التصورات التى تنافي الاعتقاد بعد له ، ولهذه الفكرة نتائج تتعلق بالانسان اذ مفهوم الانسان لا يتحدد الا من خلال الصورة التى تعكسها فكرة الله · وهم فى ذلك يعبرون عن ايمان أكثر جدية وعن حرية لا تقف دونها النصوص التى لم يكن لها معنى عند جميع الفئات الا عن طريق التاويل · ففكرة الله كما وردت فى القرآن لا يمكن ان تقوم الا على أساس مبدأ حرية الانسان وتحمله لمسؤولياته ، لذلك رفضوا كل التهافت الذي احدثه القائلون بمبدا الجبر ، وأوضحوا ان العدالة الالهية تقتضي فرض حـرية كاملة حتى يكون للثواب والعقاب وجه مقبول ، وقد أوجب اللهّ على نفسه ان من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ، لكن هذا الالتزام لا يعـني بحال تقلص النفوذ الالهي ، وان نقصا قد طرأ على استقلاله فى ذاته وافعاله ·

بيد ان هذا الراي ـ الذى استطاع ان يداعب عقول ثلة من المفكرين ، فاعتبر شيئا طريفا فى المنهـــج والبحث ـ لم يكن له وقع حسن عند المحافظين أو أصحاب الحديث ، أو بالاحرى لم يتقبـــل هؤلاء هذه الفلسفة الجـديدة التى تعطى السيادة والقول الفصل للعقل فظهرت طائفة تميل الى التحديد من سلطان العقل وتنادى بالمحافظة على جوهر الاسلام فى صيغته التقليدية مع شيء من التوفيق بين مذاهب مختلفة · هذه الطائفـة يتزعمها أبو الحسن الاشعـــري الذى كان قبل ارتداده عن المذهـــب العقلى من اكبـــر

مناصريه · كل ما جاء عنه فى خصوص فعل العبد لم يجد قبولا الا عند عامة الناس ومن اشكلت عليهم نصوص الوحي ، فارتاحوا لحله المبهم لانه رفع سيادة النص على العقل · وانكر ان يكون فى الكون قوانين تحمله على الحركة والفعالية وقرر ان الله هو الفاعل ولا فاعل سواه ، وحتى يفر من فوضوية الجبرية جاء بفكرة مبهمة عبر عنها بالكسب الذى به يثاب الانسان أو يعاقب · ورغم ان آيات عديدة تذكر صراحة كلمة الكسب الا ان الاشعري جرده من كل فعالية حقيقية وعبر عن ارادة وقدرة انسانيتين جد محدودتين تشملهما قدرة الله وارادته ويبقى مفهوم الكسب عند التحقيق لا يختلف عن مفهوم الجبر ·

ولعل ابن رشد الفيلسوف الذى يؤمن بانسانية الدين قد أحس بالمغالطات فى التعبير على الحقيقة الدينية فشوهتها ، اهتم فيلسوف قرطبة بنقد المفاهيم الكلامية لاخطر مشكلة فى تاريخ العقيدة الاسلامية · فابان عوار تفكير أصحاب الكلام فى الاستفادة من النصوص الدينية دون تفكير وتدبر وروية فوقع كل فريق ممن ذكرنا فى مزالق لم يهتد الى الخروج منها ، فلا احد أصحاب الحقيقة : لا الجبرية التى تجعل الانسان مجرد آلة بيد الصانع فجردته من أعظم صفة الابداع الالهي وهو العقل ولا المعتزلة التى تطرفت فى استعمال العقل فجعلت كل فعل صادرا عن الانسان بدافع من ذاته دون مراعاة للعوامل الخارجية التى تشارك فى تحقيق الفعل · فابن رشد لم يعب على المعتزلة الا تطرفهم فى استعماله لانه يرى ان الافعال التى يريد العقل تحقيقها معرضة فى نفس الوقت لقسر الطبيعة التى يرى فيها مطلق قضاء الله وقدره · فلا تكفى ارادة العقل حتى يتم المراد ولابد من موافقة الاسباب الخارجية ، وهذا يؤدي بنا حتما الى مسالة السببيّة التي كانت موضع نقاش طويل ، وهي أيضا من المواضيع التى يصطدم فيها العقل بالدين عند الحرفيين · فالمعتزلة لا ينكرون مسالة السببية ولكنهم لم يعالجوا مسألة الحرية الانسانية على ضوئها · والسببية فى مفهومها العام تعنى مجموع القوانين التى أودعها الله فى الكون · وهذه الاسباب ـ كما ذكرنا ـ قد تساعدنا على اتمام أعمالنا وقد تقف دون ذلك ، بل تجبرنا فى بعض الاحيان على أفعال معينة نعجز عن القيام باضدادها وهي تلك الافعال الاضطرارية مثل السعال والتثاؤب والهرب أمام الخطر الخ · والافعال الاختيارية التى يتردد المرء فيها بين شيئين تتوقف كذلك على الاسباب الخارجية · واذا اخترنا فعلا محددا كانت حريتنا كاملة · وعلى هذا فهناك أساس معقول ومنطقى للتكليف والعقاب أو الثواب · وهكذا ينتهى ابن رشد الى ان

الجبر لا يمكن ان يكون محضا ، وان الاختيار لا يمكن ان يكون مطلقا ، بل الحق فى التوسط بين هذين الرايين ، فافعال الناس ليست اختيارية تماما ولا اضطرارية تماما ، وانما تتوقف على عاملين : ارادة حرة ترتبط فى الوقت نفسه باسباب خارجية تجـري دائما على نمط واحد (١٥) ٠

وننتقل الآن الى ذكر موقف بعض الحركات الفكرية التى اتهمت بالزندقة والالحاد والتى سجلت فى نفس الوقت أروع صفحات فى تاريخ الفكر الانساني ، فكانت هـذه حـركة اخوان الصفاء ٠

ذكرنا فى بداية هذا البحث نصا من رسائلهم يعبر عن حيرة الكائن البشري والواقع المر الذي فرض عليه ان يتجرعه ، وعن مجموعة الظروف التى احدقت به من كـل جانب فتـلاشى فيها ، ومهما كان هذا النص صادقا فى التعبير عن قيمة الفرد فى القرن الرابع ، فاخوان الصفاء لا يقفون هذا الموقف السلبي ، ويرون ان الانسان لا يمكن له ان يضع حدا لهذا القهر ويعطي لذاته استقلالها الا اذا حدد علاقاته من كل الظواهر التى شعر أمامهـا بالعجز ، لذلك لم يرضوا أن يكون الانسان عبدا لقوى تسيطر عليه ، فقالوا بحرية الانسان ، وحملوه مسؤولية أعماله ، وما نسبة الاعمال التى تجرى فى هـذا العالم الى الله الا كنسبة افعال الملوك التى تتم على أيدي عمالهم ورجال الصنائع وفى هذا يقولون : « واعلم ان هذه الصنائـع والافعال التى تجرى على أيدى عباده ، اذا نسبت الى الباري ، فان نسبتها على مثل نسبة أفعال الملوك ، اذا قيل : بني فلان الملك مدينة كذا ، وحفر نهر كذا ، وعمر بلد كذا كما يقال بنى الاسكندر الرومى سد يا جوج وما جوج وبني سليمان بن داود ، عليه السلم مسجد ايليا وبنى ابراهيم الخليل ، عليه السلام ، البيت الحرام ، وبنى المنصور مدينة السلام ، اذ كان ذلك بامرهم وارادتهم ومشيئتهم ، لا انهم تاولوا الافعال بانفسهم أو باشروا الاعمال باجسامهم ، وكذلك حكـم اضافة أعمال ملائكـة الله وانبيائـه وعباده ، طبيعية كانت أو اختيارية ، فنسبها اللـه ـ تعالى ـ لنبيه ، عليه السلام ، وما رميت اذ رميت ولكن اللـه رمى » (8 ، الانفال ، 17) وقوله : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » (8 ، الانفال ، ١٧) وقوله ـ تعالى ـ : « افرايتم ما تمنون أنتم تخلقونـه أم نحن الخالقـون ؟ » (56 ، الواقعة 58) وما شاكل هـذه الاضافات من الافعال والاعمال والصنائع والتاليف والتركيب والجمع والتفريق والكون

---

١٥) ابن رشد ، مناهج الادلة ، ص ١١٩ ٠

والفساد والنشوء والبلاء ، اذا نسب الى الله ـ تعالى ـ فعلى هذا السبيل تكون تلك النسبة ، لان الله ـ تعالى ـ خلق الفاعلين والصنائع والعمال ، وافعال البشر كانت ، أو الجن والشياطين والملائكة ، أو الطبيعة فحكمها كلها بالاضافة الى الله حكم واحد ، لانهم جميعا عبيده وجنوده وخدمه خلقهم ورباهم وانشاهم وقواهم وعلمهم وهداهم وأمرهم ونهاهم ··· » (11) ·

ويعرف الاخوان هذه المسالة من خلال الازمة الروحية التى تعكسها الفلسفة اليونانية وغيرها من التيارات الفكرية فيقولون : فان قال قائل من الاطباء والطبيعيين ان هذه كلها أفعال الطبيعة فليعلم ان القدماء قد قالت : ان الطبيعة فعل النفس ، وان قال قائل من الشرعيين ان هذه كلها للخالق البارىء يفعل ما يشاء ويصور كما يريد ، فليعلم أيضا ان النفس من فعل البارىء ـ تعالى ـ لا يباشر الافعال بذاته ، بل يصدر منه على سبيل الامر (12) فاعمال الانسان من خير وشر ترجع الى جزئيه النير والمظلم، النفس واخلاط الجسد ، فهو بمجموعهما يتحمل نتائج أعماله ، وبحسب ذلك يكون جزاؤه ، « وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى » (53 ، النجم ، 40) وكما جاء عن صاحب الرسالة : « انما هي أعمالكم ترد اليكم » (13) ·

راي المحدثين فى علاقة الانسان بالاله والمجتمع وموقفهم من نصوص القرآن :

وفى القرنين التاسع عشر والعشرين ، ظهرت فى العالم الاسلامي عقلية جديدة ساعد على ظهورها جملة عوامل داخلية وخارجية ، فمن جهة توجهت هذه العقلية الى اعادة النظر فى القيم الاسلامية ، دعت الى ذلك الاوضاع المتردية فى النظم الاجتماعية والمفاهيم الخاطئة للمعتقدات الاسلامية ، ومن جهة أخرى تكون نوع من الشعور المعاكس جراء هجمات اعداء الاسلام ·

فمن بين مفكري هذا العصر نذكر محمد عبده الذى لاحظ ان الاسلام المعمول به انما هو مقام على التقليد الاعمى وانه يحرم اعتباره مادة خالصة للاسلام · كذلك ذم القيام الآلى بالواجبات الدينية · والاسلام ينبع من العقل ويقع كله تحت الادراك ، وهو فى ثورته هذه لم يتقبل ان ينفذ كلام الجهال الى قلوب الجماهير · فالانسان عنده

---

11) رسائل ج 2 ص 128 ، 153 ·
12) رسائل ج 2 ص 394 ·
13) أنظر رسائل ج 1 ص 259 ، ج 2 ص 130 ـ 131 ·

لم يخلق ليكون مقودا باللجام ، بل كان مطبوعا على انصياعه للعلم والمعرفة ، والاسلام ينهانا عن التسك بما جاء به آباؤنا ويعلمنا التفكير والاعتماد على أنفسنا بعد الاستفادة من سير الماضي والاتعاظ بالاحداث التى طوتها اسداف التاريخ ٠ وهو أيضا يطلق العقل من سلاسل قيوده ويحرره من المحاكاة العمياء التى كبتت نشاطه وحدت من حيويته ، ثم يقيمه حكما يقضى بالقسطاس المستقيم ٠٠٠ فليس له أن يقف خاضعا الا أمام الله وحده والا أمام أصول الدين التى نزل بها القرآن ٠٠٠ أما فيما عدا ذلك من حدود وقيود فما من حاجز يحول دون نشاطه ، وما من قوة تمنعه من التامل فيما يعيش فى ظله (I4) ٠

عالج محمد عبده وغيره من المصلحين مسالة الحرية الانسانية ضمن المسائل العامة التى اثيرت لبعث اليقظة الاسلامية ، وكما قلت سابقا ان موقف المصلح المصري اتجه الى ايضاح المعطيات الازلية ودفع الشبهات عنها ٠ ولقد شعر ان العقلية الجديدة اصبحت ترفض بالفعل كل مخلفات الماضى ، ولا تقبل القوانين الازلية فى صورها التقليدية . لذلك مالت هذه العقلية الى الفكرة التى تحمل ضمير الانسان نفسه مسؤولية اعماله بعد ان اصطبغ تفكير العامة مدة قرون بالقدرية الماخوذة من الجبر ، وكانت سببا فى ايجاد مناخ ملائم لانتصار الفكرة التى تنفى الارادة الحرة ، وبحسبها ردت الفضائل والرذائل وكل نوع من الافعال الى ارادة الله وحدها بعد ان اسقطت ارادة الانسان من الحساب ٠ لذلك يقر محمد عبده فى رسالة التوحيد ان الانسان يدرك اعماله الاختيارية ويزن نتائجها بعقله ويقدرها بارادته ثم يصدرها بقدرة ما فيه ويعد انكار شيء من ذلك مساويا لانكار وجوده فى مجافاته لبداهة العقل (I5) ٠

فى القرآن آيات تتضمن المسؤولية ومن ثم الحرية اللازمة ، وكل فرد له من القدرة ما يجعله حرا فى ان يطيع الله أو يعصيه ، وفى كل ظرف من ظروف حياته فرصة له لكي يبدى ما له من أهلية أو عدمها ٠ ومهما ارتبط الانسان بالقوانين الالهية أو القوانين الدنيوية ، فهو حر حين يعمل بها أو يخرج عليها ، وهو فى كلتا الحالتين اذا خرق القانون تعرض لقضاء السلطة الاخلاقية وعقابها ٠

لكن رأي هذا الشيخ الذى عرضناه وان كان يعبر عن عامل التغيير فى المجتمع الاسلامي الا انه فى عرضه هذه المسالة من خلال القرآن لا يزيد على ان يذكرنا بمنهج

I4) أنظر جيب ، الاتجاهات الحديثة فى الاسلام ص 7I ٠
I5) محمد عبده ، رسالة التوحيد ص 69 ٠

القدماء ولا يقدم حلا للمعضلة التى كانت من أهم أسباب اختلاف الامة الاسلامية وهو ما عبر عنه بالتناقض فى عرض القرآن لهذه المسألة ·

وقد حاول بعض الباحثين المحدثين النظر الى القرآن على انه وحـــدة متكاملة كالمحاولة التى ذكرها هارولد سمت فى مسالة الحرية الانسانية ازاء القانون الالهـي أو القضاء والقدر · فهذا الكاتب يرى ان فى القرآن آيات صريحة تؤيد مبدأ الجبـر وأخرى تؤيد مبدأ الحرية · فحتى يستقيم الجمع بينهما لابد من الملاحظة التالية وهي انه حيث ما يكون الاهتمام موجها الى الله فان سلطانه المطلق الكامل يكون موضع تأكيد · وفى هذا السياق تعتبر أعمال البشر ، خيرها وشرها على السواء مسببة عن الارادة الالهية مباشرة ، اذ انه لا يحدث شيء ما لم يرده الله أو يأذن به ، وان مشيئة اللـــه الازلية الابدية لتنفذ حتى فى مسائل الاعتقاد وعدمه ، فيهدى قوم الى الايمان ويوجه آخرون الى الضلال ··· هذا حين يكون الاهتمام موجها الى الله ، فاما حين يحـول الاهتمام الى الانسان فان التأكيد ينصب على ان الانسان قد وهب له اللـه الحـــرية والمسؤلية الاخلاقية فكل انسان ذات اخلاقية حرة ، وهو مسؤول أمام الله عن أفكاره وأحكامه وأعماله · وهذا الذى يجعله فردا ذا مشابه من الله الذى هو الموجود الاسمى والله يرشد الانسان عن طريق الوحي الى مبادىء اخلاقية عامة منبعثة عن ارادتـه الابدية المقدسة · الا ان فى الانسان قوة كامنة ، اذ ان فى استطاعته ان يتقبل هـدى اللـه أو يتحمل عنـه (16) ·

اما محاولات اقبال التى ضمنها كتابه « تجديد التفكير الديني فى الاسلام » (17) فهي وان قدمت فى أسلوب فلسفي رائع الا انه سرعان ما نشعر عند قراءتنا لبحثـــه باننا نغادر عالم اللاهوت الى عالم الفكر حيث نقف على مزيج من أفكار ترجع الى اشهر فلاسفة عصره تطغى عند التحليل على نصوص الوحي · يثبت اقبال خصوصية الذات الفردية وسلطتها ويقـرر ان القرآن يـؤكد للنفس الانسانية باسلوبه البسيط حـريتها وخلودها المفعم بالقوة ، ويقول اقبال : لي فى نظري رأي معين محدد فى مصير الانسان بوصفه وحدة مـن وحدات الوجود وهذا الـــرأي فى شخصية الانسان وفرديته رأي

16) الثقافة الاسلايمة والحياة المعاصرة ص 60 ·

17) محمد اقبال : تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ترجمـــة عباس محمود ط 2 القاهـرة 1968 ·

يستحيل معه ان تزر وازرة وزر أخرى · بل يقتضي ان كل أمر بما كسب رهين (18) أي ان كل كائن انساني يستقل بمسؤوليته الاخلاقية ويرى اقبال ان علماء المسلمين وغيرهم وقعوا فى اخطاء جسيمة من جراء عدم فهمهم لمعنـــى التقدير الذى ورد فى القرآن فى قوله تعالى : « انا كل شىء خلقناه بقدر » (54 ـ القصر ـ 49) فتقدير شىء اذن ليس قضاء غاشما يؤثر فى الاشياء من خارج ، ولكنه القوة الكامنة التى تحقـق وجود الشىء وممكناته التى تقبل التحقق ، والتى تكمن فى اعماق طبيعته ، وتحقـق وجودها فى الخارج بالتتالى دون اى احساس باكراه من وسيط خارجى . والآيـــة 49 من السورة 54 تفيد ان كل مخلوق قد وهب امكانية محددة هو حر فى تحقيقها أو عـدم تحقيقها · ويرى اقبال فى قـدرة الانسان على الخلق دليـــلا على حريته اذ يقول : « والواقع ان كل نشاط خالق هو نشاط حر · فالخلق يضـاد التكرار الذى هـو مـن خصائص الفعـــل الآلى » (19) · وهكذا ـ كما يقول سمث ـ يرفض اقبـــال كل الصور المتطرفة من فكرة القضـــاء الازلى سواء انتسبت الى تقدير الله أم الى الضرورة الآلية ·

كل هذه المحاولات لا ترمي الى التبرير كما يرى بعض الباحثين المغرضين ولكـن الهدف منها هو ايجاد قراءة تتفق والمبادىء العقلية الانسانية من جهة ومفهوم التقديس والتعالي لنص الوحي من جهة أخرى · لذلك لن تقف هذه التفسيرات ما دام الفكـــر البشري فى تطور مستمر لاعتقادنا ان ما أتت بـه الرسل يساعد على وزن المفـاهيم العقلية ولا يمكن الا ان يكون مسايرا لحركة التطور التى هي سنة الطبيعة ·

اننـا نعتقد ، رغـم وجاهة التفسيرات التى ذكرناها فى مسالة الحـرية ومشكلة القضاء والقدر ، ان الباب ما زال مفتوحا لاستنتاجات أخرى · فالقرآن مادة الهيـة غزيرة بالمعاني وهو كما قال الامام علي بن أبي طالب : « ظاهره انيق وباطنه عميق » · ومن ذلك اننا لاحظنا من خلال قراءتنا للقرآن ان الاهتمام كله متجه الى الانسان وحده ولكن فى مستويين اثنين : فهناك عالم الانسان وفيــه يتجلى الله بمظهر الانسان ويتصـور بصورته ، فهـــو الله الادمى الذى بارتياده ثوب الآدمية فى أجلى صورها ينغمس فى الشعور الباطني للانسان المثالي وترتسم فيه صورته ويكون بمثـابة المراقب للسلوك والمساعد على تحمل المسؤوليات ·

---

18) تجـديد ، ص 109 ·
19) انظر تجديد ص 61 ·

أكد القرآن حضور الاله فى العالم المادي : « ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله » (2 ـ البقرة ـ 116) ، « الم تر ان الله يعلم ما فى السموات وما فى الارض ما يكون من نجـــوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أين ما كانوا » (58 ـ المجادلة ـ 7) · وقولـــه مخاطبا موسى وهارون : « قال لا تخافا انني معكما اسمع وأرى » (20 ـ طه ـ 46) · وهذا الحضور فى ضمن الاجتماع البشري يمثل نقطة اللقاء بين الصورة المظهرية للاله وبين الانسان الذى هو خليفة الله فى الارض ، هذا الخليفة يحمل سمات الذات الخالقة ، وهو مع ذلك يحاول أن يكون على أكمل صـــورة تشبهه ، وهذه النظرة التنازلية التى تجعل من الله فى صورة آدمية والتى نجد صداها فى هذا الحـــديث : « خلق الله آدم على صورته) ترمى الى ربطه بالقوانين العامة التى تنظم الكون · ولا عجب ان نرى عند بعض التيارات الفكرية صورة الاله ممثلة فى الشيخ أو الحكيم أو الامـــام (20) الذى ينظـم أعمـال جماعته فيجازى محسنهم ويردع مسيئهم والله كذلك بالنسبة لمخلوقاته الذين احسن خلقهـم وسواهم واقدرهم على الخير والشر · فهو الحكيم الذى لا يكلف نفســا الا وسعها ليجزى كل نفس ما كسبت،وهو القائل : « وما تنفقوا من خـــير يـوف اليكـم وانتم لا تظلمون » (2 ـ البقرة ـ 272) « ثـم توفي كـل نفس مـا كسبت وهـم لا يظلمون » (2 ـ البقرة ـ 281)، «ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد» (3 ـ آل عمران ـ 181).وفى القرآن حوالي 44 آية تحمل الفرد مسؤولية اعماله · وفيها يخاطب اللـــه اناسا قد امتثلوا لسياسته ، لذلك فهو يراقب اعمالهم ولا يظلم منهم أحدا · وما دام الانسان حريصا على احترام ما حدد له الشرع ، فهو داخل فى جملة قول الله : « ولقد كرمنا بني آدم » (17 ـ الاسراء ـ 70)،وفعلا لم تكون غاية الله من هذا الانسان الا ان يحيا وســـط مجموعة من الافراد فيقوم بحقهم ويعاملهم معاملته لنفسه · ويمكن ان نلخص هذه الغاية فى العبارات التالية لاندرية كرسون : « كـف عـن ارضاء جميع نزعاتك وعن الخضوع لها خضوعا فوضويا ، احمل نفسك على ان تحدد بعض رغباتك وان تتخـــلى عن بعضها من أجل مصلحة الآخرين ، ضح بشيء من مطامحك ، ومـــن هواياتك من أجل اشباهـــك أو من أجل بعضهم ، كف نفسك ، هذب نفسك ، لانه بدون حد

---

20) انظر كيف يولد الامام ويتصور بالصورة الربانية عنـد الشيعة والاسماعيلية وغيرهما من المذاهب وكذلك مقام الشيخ فى الطرق الصوفية ، وأنظر كذلك ما توجيه الآية : « وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنـت أنت الرقيب عليهـم » (5 ـ المائدة ـ 120) ·

أدنى من الاحترام والتعاون بين الافراد سواء أكان عن طواعية أم عن خوف السلطان لا يمكن لجماعة أن تتابع حياتها » (21) • فاذا التزم الفرد بهذه المبادىء كان الله معه أين ما كان وتجلى باطنيا عليه فى ضميره الاخلاقى ، وهو التواب ذو الرحمة ، ذو الفضل العظيم ، خير الناصرين وخير الرازقين ، غافر الذنب وقابل التوب ، وهو القريب يجيب دعوة الداعي اذا دعاه ، وهو الصورة المظهرية للخير •

فهذا الحضور لا يمكن ان يفهم على انه ربط علاقة بذات فردية محدودة ، بل يتعداها الى ربط هذه الذات بهيكل المجموع ولان الدين وهو مجموعة القوانين الاسلامية ليس وقفا على الشعائر والطقوس ، ان جميع مظاهر الحياة الجماعية خاضعة لاحكامه وانه ليهدف الى ربط كل عمل من أعمال الفرد بواجباته الدينية.والدين يهدف الى ربط الناحية الفردية بالناحية الجماعية لانه لا يصبح قوة رهيبة فى تكييف المجتمع الا عندما تندمج ناحيته الشخصية بناحيته الاجتماعية اندماجا خالصا •

أما الذين أرادوا ان يدفعوا بالدين وبالمسائل الدينية خارج الحقل الذى يعمل فيه المجتمع فهم الذين يرون صرف كل القوى فى الفعاليات المعقدة للعصر الصناعى • وهذا الموقف يذكرنا بما جاء فى مقال بادو (22) من موقف المهندس الامريكي الذى يعمل فى مدرسة هندسة النفط بالجزيرة العربية ازاء خروج الطلبة وقت الدروس لاداء الصلاة حيث قال للملك : « ينبغى يا صاحب الجلالة أن تقرروا نهائيا ما تريدون من هؤلاء الناشئين هل تريدونهم أن يتعلموا كيف يديرون آلات النفط أو كيف يؤدون الصلاة فى اوقاتها • فهم لا يستطيعون ان يقوموا بالامرين معا فى وقت واحد » • ويذكر صاحب المقال حادثة أخرى جرت هذه المرة فى مصر سنة 1939 عندما هب بعض كبار المسؤولين يناقشون جملة من المقترحات الاجتماعية فسال احد الحاضرين عن ما يكون موقف الاسلام والمسلمين من امثال هذه المقترحات ، فكان الجواب : « اذا لم يكن بامكاننا ان نحقق هذه الاصلاحات بمساعدة الاسلام فسوف نحققها دون مساعدته » • وغير ذلك من الاحداث مما يدل على ان هؤلاء يرون ان الدين لا ينطوي الا على أهداف وغايات مبهمة غامضة • من أجل ذلك نادى بعض من يسمون بالتقدميين بفصل الدين عن الدولة او الفصل بين القانون والدين (23) أى بين عقائد الدين ومقرراته وبين مبادىء القانون

---

21) اندريه كرسون ، المشكلة الاخلاقية ص 27 ـ 28 •
22) دراسات اسلامية بحوث ودراسات لكبار المستشرقين بيروت 1960 ، ص 256 •
23) أندريه كرسون ، المشكلة الاخلاقية ص 99 •

وقواعده · ولاشك ان هذه النظرات مبنية على ان الدين مسالة روحية لا غاية منه الا ربط علاقة بين الله والناس فالاسلام على خلاف ذلك هو دين وهو فى الوقت نفسه دولة وهو قوة اجتماعية وسياسية ، لان الوحي الذى يقرر وحدانية الله ورسالة الرسول يعين أيضا الاهداف الاجتماعية والسياسية للمجتمع الاسلامي ، ولا خير فى دين لا يشمل مجال تطبيقه كل أنواع الفعاليات الاجتماعية ، لان النشاط الديني لا يتمثل فى تحديد الاطار الذى تفعل فيه القوة الالهية بقدر ما يرمي الى تحقيق اسمى مبادىء الانسانية وايجاد نظام اجتماعى أكثر اتفاقا مع المبادىء الاسلامية ·

كل ما حواه القرآن يخدم الفرد والجماعة ، وحتى تلك الطقوس الدينية التى يرى البعض فيها انها مجرد أعمال تعبدية ، ليس لها معنى أكثر من ذلك ، ولا نجد لها انعكاسا على سلوك الانسان فى المجتمع هي أيضا فى أساسها قوانين اجتماعية كالصلاة التى معناها الحساب والمحاسبة وحفظ مصالح أفراد المجتمع · ونستطيع أن نقول بأن الصلاة كانت أساسا لايجاد أول رابطة ربطت بين أفراد المجتمع الالهي ، وكذلك نقول فى بقية المفروضات الدينية ان لها معنى اجتماعيا ينظم سلوك الفرد ، وليس فيها من معاني التعبد غير المستوى الرفيع للانسانية التى تحاذى فى كمالها عالم الالوهية · فالعلاقة بين الانسان وبين الله فى قيمة الانسانية الكاملة التى لا تختلف فى مظهرها عن الالوهية المتجلية لعالم الانسان ، وحديث عيسى « اذا حملت قربانك الى الهيكل ثم تذكرت ان فى نفس أخيك منك شيئا فاترك قربانك أمام الهيكل وعد لتصلح ما بينك وبين أخيك أولا ، وبعد ذلك عد الى الهيكل وقدم القربان (24) ليقرر ان العلاقة الالهية لا تبتدىء الا عند صفاء العلاقة الانسانية وبلوغها مرحلة يتخلى الفرد فيها عن كل ما يخلده الى الارض ، وكلما اقترب الانسان من الله اقترب الله منه وهو التجلى الباطني الذى يشير اليه الحديث : « اذا تقرب العبد الى الله شبرا تقرب اليه ذراعا ، وكلما ازداد هذا التقرب تصبح عملية التجلي أقرب الى الكمال حتى تصل فى النهاية الى أن يكون الله سمعه وبصره ولسانه ورجله (25) ·

أما المظهر الثاني للالوهية تجاه الانسان فهو فى حالة انخارم أسس المجتمع حين يبرز الانسان فرديته وانيته ، عند ذلك يتخلى الله عنه ويتركه وشانه ، ويتبرأ منه ،

---

24) أندريه كرسون ، المشكلة الاخلاقية ص 99 ·

25) حيدر آملى ، جامع الاسرار ، تحقيق هنرى كربين وعثمان يحيى ، طهران 1969 ، ص 675 ·

وهنا يظهر الله له ولامثاله بمظهر القوة والشدة : « اين ما تكونوا يات بكم الله جميعا ، ان الله على كل شيء قدير » (2 ـ البقرة ـ 148) « قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم باس بعض » (6 ـ الانعام ـ 65) « ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز » (35 ـ فاطر ـ 16) « ان **بطش ربك لشديد** » (35 ـ البروج ـ 12) .

ولا ريب ان خروج الفرد عن الجماعة بانتهاك حرمة أفرادها ليجعل الله يظهر اليه بمظهر البعد والجفاء ، كذلك كانت حال الامم التى جارت : « الا ان عادا كفروا ربهم الا بعدا لعاد قوم هود » (11 ـ هود ـ 60) « الا ان ثمودا كفروا ربهم ، الا بعدا لثمود » (11 ـ هود ـ 63) « وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون » (23 ـ المؤمنون 44) . وهنا تتعارض الانية والغيرة الالهية بانية وغيرة هذا الانسان المتمرد . فتعالى الله عليه وافقده كل اثر وجرده مما يعد أساسا لاكتمال ذاته ، واصبحت أعماله غير مراعى فيها القوانين . فكل فعل يفعله فهو مقدور الى الله ، ولا يستطيع النجاة الا بالرجوع اليه وطلب الهداية والرشد ، لان الله فى هذه الحالة هو القاهر فوق عباده لا يسأل عما يفعل وهم يسالون ، « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة » (28 ـ القصص ـ 68) « قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة » (33ـ الاحزاب ـ 17) . وهذا النوع من السياسة الالهية خاص بالدين فضلوا العمى على الهدى علوا واستكبارا ، فمحق الله كل اثر لهؤلاء وعبر عن ذلك بقوله : « ساصرف عن آياتي الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق ، وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وان يروا سبيل الغيّ يتخذوه سبيلا » (7 ـ الاعراف ـ 146) وليعلم هؤلاء ان « ما أصاب من مصيبة الا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه » (64 ـ التغابن ـ 11) وما نسبة الخير والشر الا فى الهداية والاضلال : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء » (6 ـ الانعام ـ 125) .

فأى تغير فى الطبيعة الانسانية وأى شعور بالاستقلال والاستغناء عن القوة الالهية ولو كانت فى مستوى الظن يجر حتما الى اطفاء الذات ومحو كل اثر لقدرة الانسان . وهذا الجانب من الشعور الباطني تؤكده الآية : « وذا النون اذ ذهب مغاضبا

فظن ان لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات ان لا اله الا انت سبحانك إني كنت من الظالمين» (الانبياء ، 87) ٠

فليس اذن من باب التناقض ما نجـــده من اختلاف فى السياسة الالهية ٠ وما علينا الا ان نتدبر النصوص الدينية « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كبيرا » (النساء ، 32) ٠ والقرآن لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فيكون معنى اختـــلاف السياسة الالهية ان الموقف الالهى متصل اتصالا مباشرا بموقـف الانســــان ٠

الجبر والاختيار فى التفكـير
الاســلامى الحديث

محيى الدين عـزوز
متفقد أول للفلسفـة ـ تونس



1) موقف المسلم المعاصر من الجبر والاختيار :

يتحدد موقف الانسان من القضايا الدينية والفلسفية تبعا لمدى فهمه لها ولما واكبها من ظروف تاريخية مستجدة مضافة الى ما خلفه فيها الماضى من قدرة على التطور والتفاعل ويتحدد هذا الموقف أيضا تبعا للظروف النفسية والاجتماعية التى تحيط بالانسان ولما تحصل عليه من مستوى ثقافى الى غير ذلك من العوامل الاخرى.

والانسان المسلم فى العصر الحديث لم يجد نفسه ازاء قضاياه الدينية ملـزما باتباع موقـف واحد ولا حتى باتباع أحد موقفين يسهل عليه الاختيار بينهما ؛ فهو على النقيض من ذلـك يشعر بالتردد ويحس بالحيرة اذا ما رام أن يبت فى الامر لتعـدد الوجهات فالناس حوله يتجاذ بهم توالي المواقف المتباينة والآراء المتعارضة ولا يكـاد ينحاز الى شق حتى يستهويه الشق الآخر ويشعر بأن الثالث له من الحجج المعقوله ما يجعله جديرا بالاتباع وأن الرابع هو أيضا من المتانة بمكان …

فاذا ما اخذنا مثلا موضوع الجبر والاختيار فاننا نجد له من الجوانب ما يجعل حصره عسيرا لكثرة ما قيل فيه فقد نشأ فى أحضان مناقشة الجدود لمسألة القضاء والقدر والتشبع بالمعانى التى ولدها أنصار الحرية وخصومهم القائلين بالحتمية فادى طول البحث فى هذه المعانى الى ربطها بقضايا أخرى لها من أواصر الشبه ومن أسباب الاختلاف ما يجعل اثارتها عملا ضروريا حتى وان كان الموضوع الاصلي نفسه مثقلا بالمعاني التى اكتسبها عبر تاريخه الطويل ٠

فقد وصلت للمسلم المعاصر اصداء بحث هذا الموضوع من طرف قدماء المصريين والهنود واليونانيين ومن طرف أصحاب الديانات السابقة كاليهود والمسيحيين ووجد فى القرآن آيات كثيرة ورد فيها بألفاظ مكررة أو مختلفة ذات معان متقاربة أو متباعدة ذكر قضاء الله وقدره وحرية الانسان واضطرازه وجبره واختياره ٠

وأدرك المسلم المعاصر ان السنة عززت ما ورد فى كتاب الله وأعطت لهذا الموضوع أبعادا جديدة كان من نتيجتها أن كيف المسلم فى عهد الصحابة وما تلاه من عصور موقفه بما يتناسب واستعداده للعمل الحر أو جنوحه الى تكبيل نفسه العراقيل وتهيأ لذلك للتفاعل مع بيئته ومع محيطه ٠

ففى عصور الفتح جرد كبار العاملين موضوع الجبر والاختيار من كل أهمية فهو « كلام » ولفظ يلفظ لا أثر له يذكر فى القوة الجارفة لتيار الحياة العملية التى استقطبت وحدها عنايتهم ٠ ولاحظ المسلم المعاصر أيضا أن الفتنة الكبرى التى مزقت وحدة الامة وما عقبها من تطورات اجتماعية وسياسية كانت بمثابة البؤرة التى أحاطت بهذا الموضوع ٠

فان تقلب الاحوال وتعدد القيادات السياسية وما نجم عن ذلك من مآسى ومحن اضعف فى الحياة تدفقها السليم مما سمح للجانب الكلامي لهذا الموضوع بأن يتغلب على الجوهر العملي فتعددت المفاهيم وتشابكت المعاني وبلغ توسعها حدا صار فيه من الممكن لكل شخص ان يكون لنفسه رأيا خاصا يتماشى مع درجة اعتقاده أو تمذهبه الفلسفي أو مستواه الثقافى والاجتماعى ٠

وبالاضافة الى هذا الرصيد الذى تغلغل فى أعماق لا شعوره وجد المسلم المعاصر حوله خضما من الاراء جادت بها قريحة مفكرى الغرب حول الحرية والحتمية والقضاء والقدر والجبر والاختيار فكان لها انعكاسات سلبية وايجابية فى نفوس المسلمين زادت المسألة تعقيدا ٠

فتولد من كل ذلك بناء فلسفي متواصل الشموخ يتغذى باستمرار من الاحداث اليومية المشابهة لهذه الحالة التى سمعنا بها جميعا وهى :

قبل بضعة أسابيع توفى البابا بول السادس « فاختير خلفه » يوحنا بولس الاول وعلل بعضهم سرعة اختيار الكرادلة له بانه يمثل فى أعينهم « مرشح الله » فالعناية الالهية هي التى اختارته لهذا المنصب ·

وبعد شهر من الزمن مات البابا الجديد قبل أن يشرع فى القيام باي عمل يذكر وطرح الناس هذا السؤال على الرهبان : ان كان الله هو الذى رشحه فلماذا أماته بعد شهر فقط ؟ فكانت مناسبة لانتصاب الحوار بين الكاتوليك حول قضاء الله وقدره أو حول علمه وارادته ·

وتلقفت المجلات والصحف اليومية أصداء الحوار لتنشره فى أوساط أخرى غير مسيحية (1) ·

فى هذه الحادثة دلالة على أن موضوع القضاء والقدر وما تفرع عنه من قول بالجبر والاختيار لا يزال يحتل مكانته من اهتمامات الناس وتختلف هذه المكانة باختلاف درجة تدين صاحبها ·

أولا : موقف المتدين المعاصر :

ان الاطار الديني هو المجال الاول الذى أثير فيه هذا الموضوع لذا سنبحث الجبر والاختيار من هذه الزاوية قبل أن نستعرضه من جوانبه الفلسفية والسياسية · فالمؤمن يصدق بأنه مخلوق ويسلم بأن خلقه ليس ضربا من العبث أو المحال ويطمئن الى خالقه الذى هو رب السموات والارض ·

قال تعالى : « أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون » (2) فقد خلقه الله لغاية وهي المعلن عنها فى هذه الآية : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدوني ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمونى ، ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » (3) ·

خلق الانسان ليعبد ربه وللعبادة معان كثيرة لغوية واصطلاحية الا اننى أفضل المعنى الذى يتماشى مع التفكير الفلسفى رغم قدمه وهو الذى اختاره الكندى فى شرحه لمعنى آية : « والنجم والشجر يسجدان » فقال بأن ذلك هو تحقيق ارادة البارىء والانتهاء الى أمره وتأدية الوظيفة المعينة للمخلوق فى نظام العالم (4) فالعبادة الحقة هى التى تجعل صاحبها يتفاعل مع نظامه الكوني وتحدد له اتجاهه السليم فى الحياة · فهي حقيقة يعيشها صاحبها وليست مجرد ادعاء أو مظهر سطحي تبعثره الالفاظ ويتلاشى امام المطامع ·

وعندما يقر المتدين بانه حادث وأنه أحدث لغاية وسبب هي العبادة فهو يتعرف فى نفس الوقت بأن ليست له حرية مطلقة وبأن نشأته خارجة عن ارادته ولا يستطيع الافلات من الزمن الذى ظهر فيه مهما اتجهت مشاعره الى الماضى والحاضر والمستقبل ·

وبعد ما يولد لا يمكنه الاستغناء لمدة قد تطول أو تقصر عمن يوفر له الغذاء والملبس والمسكن ويدفع عنه الخطر ويلقنه اللغة ويدربه على السلوك لضعفه البدني والفكري · فشعـــوره بالتبعية للظروف البدنية والنفسيـــة والاخلاقية والاقتصادية والثقافية يحتم عليه القول بالجبرية وفى نفس الوقت يرى نفسه حرا لان كل هذه الظروف مما سخره الله له (5) · فبالايمان والعمل الصالـــح يتحرر من سلطان الحوادث ويسمو عند ربه درجات قال تعالى : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون » (6) وقـــال أيضا : « أم نجعل الذين آمنـــوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض أم نجعـــل المتقين كالفجار » (7) ·

فباختياره للاسلام والعمل الصالح تحرر الانسان من الخوف من الله · وقد أعطى الله بوصفه السلطان الاوحد عند المـؤمن الحرية للانسان فى اختيار طريقه وعملـه وذلك عندما قال : « من عمـل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، ومـا ربـك بظـلام للعبيد » (8) وقوله : « ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد » (9) · ويطول بنا المقـــام لو أردنا سرد كل الآيات الدالـة على حريـة الانسان وعلى عدم ارتباطه الا بـاللـــه وحـده ·

وكذلك الشأن بالنسبة للاحاديث التى نذكر منها ما يلي : « عن عبد الله ابن عباس قال : كنت خلف النبيء (ص) يوما فقال لي : يا غلام اني أعلمك كلمات : احفظ اللـه يحفظك · احفظ الله تجده تجاهك · اذا سألت فسل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله . واعلم ان الامة لو اجتمعـــت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه (لك) وان اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك · رفعت الاقلام وجف الصحف (10) ·

والحرية المتاحـــة للانسـان فى هـــذا الاطار هى أكبـــر مما تتحملـــه قوته البدنية والعقلية لانها لا تقف عند حد ولو كان ما وراء العرش (II) والآفاق التى فتحها العلم للمعاصرين تدل على أن حريتهم تتجاوز تصوراتهم وخيالاتهم · فلم يحرم اللـه شيئا الا اذا تأكدت مضرته للفرد أو للجماعة ·

ثانيـــا : موقف المتفلســـف :

شاهد المسلم المعاصر تطعيم ثقافته بتيار قوي من الفلسفة الغربية وبما أحياه من فلسفته الخاصة فتفلسف بدوره على قدر تأثر تفكيره بتلك النظريات مما أدى الى تباين فى المواقـــف التى كانت اما مجارية لما هو قائم بالغرب واما مناهضة له وكان ذلك قبل أن يستقيم تفكيره الخاص · وما دام الامر كذلك فلا مفــر من استعراض بعض الآراء الفلسفية خاصة تلك التى كان لها اكبر حظ من النجاح فى بيئتنا كالعقلانية وكالوجودية وفى هـــذا الصدد يقول انقلز « كان هيقل أول من تمثل بوضوح علاقة الحرية بالضرورة فالحرية عنده هي ادراك الضرورة · وليست الضرورة عمياء الا بالمقدار الذى لا تكون فيه مفهومة · والحرية هي الاخرى ليست استقلالا موهوما عن قوانين الطبيعة بل هي معرفة لهذه القوانين ولامكانية الاستفادة منها بصورة منظمة ، فى غايات معينة · وهذا حق بالنسبة للقوانـــين الخارجية بقدر ما هو حق بالنسبة للتى تنظم الحياة الطبيعيـــة والنفسية للانسان نفسه : وهما صنفان من القوانين قد يمكن الفصل بينهما فى عالم التصورات لا فى عالم الواقع ·

فحرية الارادة لا تدل على شيء آخر أكثر من القدرة على اتخاذ القرارات عـــن بينة (I2) · وتحت دوافع سياسية واقتصادية اتجه الفلاسفة المعاصرون الى بحـث العلاقة بين الضرورة والحرية وبين الحرية والارادة ولا يهمنا من كثرة ما قالوه فى هذا المضمـــار سوى ما له صلة وثيقة بالجبر والاختيار وتأثيره الواضـــح فى العالم الاســلامي ·

ويمكن تصنيف هؤلاء الباحثين الى قسمين أنصار المعقول وأنصار اللا معقول :

ا ـ الفـلاسفة العقلانيـين :

وقد عرض لنا الاستـــاذ يوسف كرم وجهة نظر العقلانيين فقـــال : « الحرية كفاية للعمل باستقلال عن كل ضرورة تكون علة تامة له · أو هي اختيار الكائن العاقل فعله بنفسه دونما اكراه خارجى أو ضرورة داخلية ··· تاتي من جانب فاعل يجبر بالقوة على اتيان الفعل أو على تركه (I3) ·

يرى هؤلاء المفكرون أن الانسان مخير الا أن حرية اختياره وقدرته على ذلك محددة بشروط تاتي من الموضوع نفسه أو تاتي مما فى الانسان من قصور وشعور بالاضطرار

وموقفهم هذا يقربهم كثيرا من الآراء التى يعتمدها المتدينون مع اختلاف فى المقاصد والنظرة الى الاشياء وحتى فى الاساليب ·

ب ـ فلسفة اللا معقول :

لعبت الفلسفة اللا معقولة (I4) دورها فى حياة بعض الشبان المسلمين الذين درسوا بالغرب أو احتكوا بأوروبا عن طريق السياحة أو الاقبال على كتبها أو بواسطة وسائل الاعلام السمعية والبصرية ·

فكانت لثقافة هؤلاء الناس آثارها فى تحديد موقفهم من الجبر والاختيار · وتاتي الوجودية فى طليعة هذه الفلسفات اللا معقولة (I5) ولها فرعان متدين والحادى رغم انتمائهما الى أصل واحد ·

فيعتبر المفكر الدانماركى « صورين كيركيقورد » الاب الروحى للوجودية · وقد انتقد بشدة نظريات هيقل وكل الفلسفة العقلية بصفة عامة · وتطورت الوجودية كثيرا وكانت لها مدارس واتباع فى عدة اقطار من العالم الا اننى سوف لا أستعرض منها الا ما له صلة بالجبر والاختيار تاركا جانبا كل ما عدا ذلك من آرائها ونظرياتها ·

وفى هذا الشأن يكاد يتفق الوجوديون على مقولة أساسية عندهم وهي أن الوجود حدث يدعو كل من تأمل فيه الى الاستغراب والدهشة المشوبة بالقلق ويترك فى نفس صاحبه شعورا بالاشمئزاز والرعب والغثيان والرهبة والقلق ·

وذلك لان فكرة الوجود تحتاج الى تحديد وامعان نظر · ومن حق المرء ان يتساءل لماذا وجد وتساؤله هذا يقلقه · وفى وجود الانسان تحد للحرية وانكار لها · فهو لم يختر ساعة مجيئه الى هذا العالم ولا مسقط رأسه · وبعد ميلاده تفرض عليه لغة من يحيطون به وسلوكهم وطعامهم ولباسهم · وهو مضطر الى قبول سياسة دولته ونظامها الاقتصادى وثقافة مجتمعه الى غير ذلك من الفروض الاجتماعية ·

واذا ما نظر هذا الانسان الى محيطه الطبيعى فان شعوره بالضعف يزداد حدة واستفحالا اذ لا دخل له يذكر فى التأثير على ظواهر الكون المهددة لمصيره كالزلازل والفياضانات والجفاف ·

ورغم صورتها القاتمة فان هذه الاراء استهوت بعض الشبان المثقفين من مسلمي العصر الحديث فقد وجدوا فيها تعبيرا عما كانوا يشعرون به من حقارة الانسان فى

بيئتهم ومن عجزهم عن التفسير المنطقي لعالمهم • فلا شيء عندهم يبرر الحياة فيه ولا شيء فى الحياة نفسها له مغزى • واذا تجردت الحياة من كل معنى فلماذا يعني الحي نفسه باختيار أمر ما وتفضيله عن غيره • ففى مثل هذه الحياة لا قيمة للاختيار •

ان تطبيق مثل هذه النظريات يؤدى الى القضاء على الفوارق بين الانماط المختلفة للسلوك : فيصبح الشرير فى نفس المرتبة والخير • ولا مجال يذكر للحرية لان القوى اللامعقولة وغطرسة الطبيعة قضت على ارادة الانسان • فهل خلق الانسان نفسه حتى يدعى حريته ؟

وللظروف السياسية والعسكرية دورها الكبير فى نشر مثل هذه الآراء لان الانسان فى مثل تلك الظروف يفقد القدرة على التصرف الحر ويفرض عليه ان ينفذ بكل دقة ما تأمره به السلط العسكرية • لذا نجد الوجودية لا تقوى وتزدهر الا اذا كانت هناك حروب :

فقد ترعرعت وجودية هيدقر أثناء وبعد الحرب العالمية الاولى وترعرعت آراء سارتر بعد الحرب العالمية الثانية وخلالها •

ومن المعروف تاريخيا أن جبرية جهم بن صفوان نبغت أيام الفتن المتلاحقة التى هزت أركان الدولة الاموية فى أخريات سنواتها •

وهذا ما يجعل بين الجبرية والوجودية ملامح تشابه وأوجه تقارب •

ثالثا : الجانب السياسى فى قضية الجبر والاختيار :

لم يكن الجانب المذهبي ، سواء اكان دينيا أم فلسفيا ، هو وحده القاعدة التى انطلقت منها مباحث الجبر والاختيار فى العصر الحديث • فقد كان للجانب السياسي أيضا أثره فى بلورة الموضوع وفى تطويره •

وذلك أنه فى القرن الماضى تعرف العالم الاسلامى عن مدى البعد الذى يفصله عن قوة الغرب وعن تقدمه الحضارى وأحس بأن تلك القوة باتت تهدده بالاستعمار وربما بالفناء •

وفى مثل هذه الظروف تحتم على المسلم اعادة النظر فى فهمه لقيمه الروحية التى منها موقفه من موضوع الجبر والاختيار مثلما يسعى الى تحوير مؤسساته السياسة والاجتماعية وتجديده لثقافته •

وبوصفه رائد الحركة الاصلاحية ومحركها الاصلي اهتم جمال الدين الافغاني بهذه المسألة وتبعه فى عمله هذا محمد عبده وتلاميذه وعنايتهم هذه ناشئة عن يقينهم بأن هذه المسألة وان بدت دينية الا انه لا يمكن فصلها عن ملابساتها السياسية

والاجتماعية والاقتصادية · فقد وجدوا أن بعض أدعيـاء الصلاح استغلوا موضوع الجبر ليخدروا ارادة الجماهير ويبتزوا أموال الناس وحتى ممتلكاتهم ونصبوا أنفسهم وسطاء بين الله وعباده وأقاموا لذلك الغرضَ زوايا وطرق وتكاثر عدد الزوايا والطرق الصوفية واشتد التنافس بينها على اقتسام الجماهير الاسلامية ·

والاحظ هنا أنني أفرق بين سيرة مؤسسى هذه الطرق الذين اتصف أكثرهم بالتقى والصلاح وبين ورثتهم الذين كانوا فى أغلبهم من أعوان الاستعمار والمستبدين ونشروا بين الناس التواكل والاستسلام · طالب المصلحون معاصريهم بنبذ التواكل والاخـذ بمبدأ الاختيار وبذلك حرضوهم على التفكير الطليق وعلى العمل دون حرج من أجـل ازالة الاستعمار والقضاء على ركائزه وعـدم الاعتماد فى ذلك الا على اللـه وحده فالنبىء (ص) وهو رسول الله لا يملـك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا يملك لاحد شفاعة الا ان يـأذن اللـه لـه (16) ·

والناحية المذهبية من مسألة الوساطة بين الله والعبد مشهورة بفضل ما كتبه عنها ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب وأنصارهما وخصومهما ، الا أن الجانب السيـاسى لهذه القضية فى العصر الحديث لا زال فى حاجة الى مزيد من البحث ·

وأثناء عرض وجهات النظر المتعارضة أثيرت مسألة المسؤولية والدوافع الاخرى التى حدت بالمصلحين الى الاهتمام بهذا الموضوع وهى ادراكهم للترابط الذى أوجده الاسلام بين الناحيتين العقائدية والسياسية مما يجعل مطالبتهم بالاخذ بجانب الحرية فى مسألة دينية سيؤدى حتما الى تعميمها على ميادين السياسة وغيرها وأيضا لان السلطة فى ذلك العصر كانت بأيدي المستعمرين أو الحكام المستبدين الذين لا يسمحون بالحديث عـن التحرر والحرية · وكانت الحركة فى أولها أضعف من مواجهة أعدائها فى موضوع يمكن لها أن تثيره بشكل آخر مع علمهم بأن المتزمتين من خصومهم ربما كانوا عليهم أشد مـن الاستعمار ·

وسواء أثـير موضوع الجبر والاختيار من جانبه السياسى أو مـن جانبه المذهبى فنتيجته واحدة وهي التى تتمثل فى تحريض المسلم على ابراز قيمته كشخص موجود يتمسك بحريته ويتحمل مسؤوليته التى هي شرط لازم لذاتيته ·

وتزداد هذه الفكرة وضوحا عندما نستعرض فى شيء من التفصيل بعض الآراء التى صدرت عن أهم من ساهم فى اثارة موضوع الجبر والاختيار فى العصر الحديث ·

راي جمال الدين الافغاني :

طرق جمال الدين الافغاني موضوع الجبر والاختيار لعدة غايات تبرز منها اثنتان : الاولى تبرئة الاسلام مما اتهمه به المغرضون من أعدائه وضعفاء العقول من أبنائه الذين خلطوا بين الاعتقاد بمذهب الجبرية والاعتناء بالقضاء والقدر فظنوا أن الدين المحمدي بعقيدته فى القدر يجمد نشاط أتباعه ويخضعهم لارادة عليا تسلبهم خصائصهم النفسية وتقضي على امكانياتهم المادية وبالتالي تطمس وجودهم ·

أما الغاية الثانية فهي تذكير المسلمين بالمفهوم الصحيح للقضاء والقدر وهو المفهوم الذى يتماشى مع ما تحلى به دينهم من رونق وبهاء ·

وخصص لهذا الموضوع رسالة تحمل عنوان « رسالة فى القضاء والقدر » أقتطف لكم منها هذه الفقرة « هكذا ظنت طائفة من الافرنج وذهب مذهبها كثيرون من ضعفاء العقول فى الشرق · ولست أخشى أن أقول : كذب الظان وأخطاء الواهم وأبطل الزاعم وافتروا على الله والمسلمين كذبا لا يوجد مسلم فى هذا الوقت من سنى وشيعى وزيدى واسماعيلي ووهابي وخارجى يرى مذهب الجبر المحض ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة ، بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزءا اختياريا فى أعمالهم ويسمى بالكسب وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختيارى ومطالبون بامتثال جميع الاوامر الالهية والنواهى الربانية الداعية الى كل خير ، الهادية الى كل فلاح وأن هذا النوع من الاختيار هو مورد التكليف الشرعى وبه تتم الحكمة والعدل » (17) ·

راي محمد عبده ورشيد رضا :

لم يخصص محمد عبده لموضوع الجبر والاختيار رسالة بعينها كما فعل أستاذه جمال الدين الافغاني وانما تعرض لبحثه فى عدة أبواب من كتابه القيم : « رسالة التوحيد » وفى تفسير المنار ، وكذلك الشأن بالنسبة لرشيد رضا ·

والمسلم المعاصر مدفوعا دفعا للبحث عن الحرية التى اغتصبها منه المستعمرون الذين جعلوا لتصرفاته حدودا معينة حرمه منها الظالمون من حكامه الذين تعاونوا مع المغتصب كي يضيقوا عليه أنفاسه · ولم يصل المسلم الى هذه الحالة دفعة واحدة بغتة بل تدريجيا نتيجة تفكير ضاقت آفاقه تحت ضربات الاحداث المؤلمة التى تلقاها الناس طيلة قرون الاضطرابات والحروب والفتن · وخرج المسلمون من تلك الاحداث منهوكى

القوى عاجزين عن اعطاء الحياة المعنى الذى يريدونه لها وقصرت هممهم عن كتابة التاريخ كما يشاؤون ·

ومما يحسن التاكيد عليه أنه حتى فى مثل هذه الظروف الحالكة لم يشعر المسلمون فى معظمهم بأنهم سلبوا تماما من كل اختيار بل كان لهم ولو على المستوى النظرى احساس بأنهم ليسوا ريشة فى مهب الريح ·

وحتى ان وجد من قال بهذا الرأى فقد فعل ذلك عن « اختيار لمذهب فلسفى أو كلامي معين » ·

فبين محمد عبده أن الاختيار ملازم للانسان عندما كتب : « يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ولا يحتاج فى ذلك الى دليل يهديه ولا معلم يرشده · كذلك يشهد انه مدرك لاعماله الاختيارية ، يزن نتائجها بعقله ويقدرها بارادته ثم يصدرها بقدرة ما فيه ·

ويعد انكار شىء من ذلك مساويا لانكار وجوده فى مجافاته لبداهة العقل كما يشهد بذلك فى نفسه يشهده أيضا فى بني نوعه كافة متى كانوا مثله فى سلامة العقل والحواس ·

ومع ذلك فقد يريد ارضاء خليل فيغضبه ، وقد يطلب كسب رزق فيفوته · وربما سعى الى منجاة فسقط فى مهلكة ، فيعود باللائمة على نفسه ان كان لم يحكم النظر فى تقديم فعله ويتخذ من خيبته أول مرة مرشدا له فى الاخرى (18) ·

ويستخلص محمد عبده من ذلك النتيجة المنطقية التى لابد أن يصل اليها كل متدين وكل ذى فكر سليم فيقول : « يتجه من ذلك الا أن فى الكون قوة أسمى من أن تحيط بها قدرته وان وراء تدبيره سلطانا لا تصل اليه سلطته » (19) ·

وبالتدرج ينتقل محمد عبده من الناحية المذهبية الى مستلزماتها السياسية والاجتماعية فيلخص كلامه الذى يطول ترديده فى هذه العبارات القصيرة : « تقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الاعمال البشرية : 1) ان العبد يكسب بارادته وقدرته ما هو وسيلة لسعادته · 2) أن قدرة الله هي مرجع لجميع الكائنات وان من آثارها ما يحول بين العبد وبين انفاذ ما يريده ، وان لا شىء سوى الله يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه » (20) ·

أما رشيد رضا فانه يتفق مع أستاذه فيما قاله في شأن الجبر والاختيار واعتبر الجبر فسادا للعقيدة وهو من قبيل الخرافات وعلق على كلام محمد عبده الوارد في هذه الجملة : « وكثر ما ضل قوم وأضلوا ، وكان لمقالاتهم أسوء الاثر فيما عليه حال الامة اليوم » • فكتب رشيد رضا : « هم جهلة أدعياء الولاية بالتصوف التقليدى الذين افسدوا عقائد العامة بالجبر والخرافات » •

فالانسان حر بانه غير محتاج لغيره من البشر وهذا هو المعنى الذى عبر عنه رشيد رضا عند تفسيره لهذه الآية « قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين » (21) •

فقال : « ان صلاتي وجميع عباداتي وحياتى وشؤونها ومماتي وما بعده كل ذلك لله وحده أتوجه فيه الى مرضاة غيره ولا أستعين احدا على شيء منه استعانة معنوية بل اياه أستعين مهتديا بما شرعه من الدين » (22) •

وهو فى موقفه هذا يسير على منهج أستاذه محمد عبده الذي كتب « ••• تجلت بذلك للانسان نفسه حرة كريمة وأطلقت ارادته من القيود التى كانت تعقدها بارادة غيره ، سواء أكانت ارادة بشرية ظن أنها شعبة من الارادة الالهية وأنها هي كارادة الرؤساء والمسيطرين ، أو ارادة موهومة اخترعها الخيال كما يظن فى القبور واحجار والاشجار والكواكب ونحوها » (23) •

يبرز الهدف السياسى واضحا جليا فى هذه الفقرة : « ••• بهذا وما سبقه تم للانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما انسانيته واستعد لان يبلغ من السعادة ما يهيأه الله بحكم الفطرة التى فطر عليها •

وقد قال بعض الحكماء الغربيين من متأخريهم ان نشأة المدنية فى أوروبا انما قامت على هذين الاصلين • فلم تنهض النفوس للعمل ولم تتحرك الغقول للبحث والنظر الا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم وان لهم حقا فى تصريف اختيارهم وفى طلب الحقائق بعقولهم » (24) • فكانت دعوته الى التمسك بمبدأ الاختيار تشمل الجوانب الدينية والاجتماعية والسياسية وتهدف أيضا الى اشعار المسلم بأن فى أصول عقيدته ما يغنيه عن البحث فى كتب الغربيين • ورغم سمو هذه المقاصد فلقد وجدت آراؤه من يعارضها ويقاومها بشدة سواء أكان ذلك بين من عاصره أو بين من تأخر عنه قليلا مثل مصطفى صبري الذي كان يشغل منصب شيخ اسلام بالخلافة العثمانية قبل أن يزيلها مصطفى كمال •

رأي مصطفى صبـري :

يمثل مصطفى صبري طائفة الذين استمروا فى العصر الحديث يدافعون عن نوع من الجبرية ظنها قريبة الصلة بالكسب · وألف للدفاع عن نفسه كتابا كبير الحجـــم أسماه « موقف البشر تحت سلطان القدر » ·

ففسر القدر بأنه : « عدم التصديق بأن الله تعالى خالق لافعال العباد من خير وشر » وذكر عدة أحاديث واردة فى ذم القدر هذا أحدها : « قال (ص) : أخاف على أمتي من بعدي ثلاثا : حيف الايمة وايمانا بالنجوم وتكذيبا بالقدر » (25) ·

والدافع له على الخوض فى هذا الموضوع هو مقاومة النزعة التى جعلت جانبا من معاصريه يجارون الاوروبيــين في قولهم بحرية الانسان · فمجاراة الغرب تــؤدى الى ظهور نزعات معادية للاسلام كالكمالية مثلا ·

وهو يرى أن الاوروبيين اتخذوا من موضوع القدر ذريعة لمهاجمة الاسلام حتى ان بعضهم الف كتابا في ثلاثة أجزاء سماه « علم القضاء والقدر أو سر تأخر المسلمين » ·

ان مهاجمة الغربيين للاســـلام الداعي للايمان بالقدر كان الدافع الاول لمصطفى صبرى على تأليف كتابه المشار اليه فهو يقول : « ··· وصفوة الكلام ان القدر الوارد فى الاحاديث بشأن القدر غير متوجه الى مذهب الاشاعرة الكاملي الايمان بالقدر ، بل موجه الى مذهب المعتزلة وأحفادهم المقتفين بآثار الغربيين فان تكلمت أنا فى القدر فلم يكن ذلك مني لانكاره بل لاثباته وتحديد الايمان به · وما كنت بحاجة الى التكلم فيــه لو لم يتكلم غيري ضـــده ·

وقد كان لا ينظر الى مذهب المعتزلة فى مسألة افعال العباد بنظر الاعجا بفلماذا عد ذلك بعد تفرنجه حسنا مرغوبا فيه حتى عند علمائنا ؟ (26)

ووضح رأيه فى القضاء والقدر فى هذه الفقرة : « فمذهبي الذى أريد اثباته فى هذا الكتاب أن العباد يفعلون بارادتهم واختيارهم ما يريد الله أن يفعلوه ولا يحيدون عنه

فبالنظر الى أنهم لا يختارون الا ما أراد اللـــه أن يختاروه ولا يحيدون عنه فهـــم مجبرون أو كأنهم مجبرون ·

واني لا أقول كما قال بعض أئمة الدين واختاره المحققون : لا جبر وتفويض ،ولكن أمر بين أمرين ، بل أقول جبر وتفويض معا ··· فالانسان يفعل ما يشاء ولا يشاء الا ما شاء اللـــه أن يشاءه (27) ·

ويشتد بمصطفى صبري التصرف الى حد الخروج عـــن موقف الاشاعرة الذين نعتهم بكاملي الايمان والقدر للارتماء فى أحضان الجهمية · وذلك عندما يقول : « ان جميع أفعال العبـاد التى تدخـل فى استطاعتهم وتحصل بواسطة ارادتهم ، كبيـرها وصغـــيرها ، مما تراهم يقومون به كل يوم من الاعمال المعتادة لهم هى واقعة تحت حكم الله وارادته · وأن ما يقع فى الكون من الخير والشر الذي يكون مصدره الانسان منهما كله من عند اللـــه » (28) ·

والعجيب فى الامر أن منطلق مصطفى صبري فى بحثه للقضاء والقدر كان هـــو بعينه الذى اعتمد عليه جمال الدين الافغاني من قبل وهو تبرئة الاسلام مما حـاول أن يلصقه به المغرضون فى الغرب والبعض من الشرقيين الا أن مسار كلا الباحثين كـان مخالفا-تماما للآخر · فجمال الدين الافغاني دعا الى التحرر ونادى مصطفى صبـري بالجبـرية ·

جبـــر أم اختيـــار :

أدى هذا التناقض العميق بين الآراء وهذا الاطلاع الواسع على مختلف جـوانب الموضوع الى التعرف على الموقف السليم الذي قادتنا اليه مختلف التطورات ·

ويتمثل هذا الموقف فى أن الانسان بما وهبه الله من امكانيات عقلية وجسمية ، وبما أنعم عليه به من المؤهلات يستطيع بارادته الخاصة أن يختار طريقة العيش التى تناسبه ، وأن يقبل على العمل الذى يرتضيه والذى نجح فى تهيئة ما يلزمه من متطلبات وهو الذى يحدد بمفرده المدى الذى تقف عنده منفعته أو مضرته ولا يراعي فى ذلـك الاحترام مصلحة غيره الذى قبل عن طواعية معاشرته ·

وهو وحده المستفيد الاول من عمله عند الصلاح والمتحمل الاصلي لمغبة سعيه عند الفساد · فالله حباه بهـــذه الحرية · والآيات صريحة فى ذلك قال تعالى : « من عمـــل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد » (29) وقال أيضا : « فمـــن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمـــل مثقال ذرة شرا يره » (30) · وقال : « .. من يعمل سوءا يُجْزَ بـــه ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا » (31) ·

وأما الآيات المعارضة لهذه فهي خاصة ببعض الظروف العابرة والتى لابد للانسان أن يجتازها فى بعض الاوقات · وهذا ما يجعل الجبرية ، وان استهوت بعض الفلاسفة

والمتكلمين ، لا تستساغ الا فى بعض الاحكام العرفية التى وضعها الانسان بنفسه لمواجهة بعض الطوارىء ٠

وفى ما عدى ذلك فانها لم تعد تجد ، بين المعاصرين ، من يدافع عنها بحماس حتى فى الميدان الطبيعى ٠ وذلك لان التقدم العلمي أطلع الناس على كيفية تغيير العناصر وتكييف المبادىء بما فى ذلك الحتمية نفسها التى دخل عليها الاحتمال فأصبحت تخضع لمعطيات النظرية النسبية ٠

ولا يفهم من هذا الكلام أن الانسان أصبحت له الحرية المطلقة فى جميع تصرفاته لان الحرية المطلقة كما عبر عن ذلك الفيلسوف الفرنسى « سآرتر » هي التى تبلغ حدا تنكر فيه حتى وجودها ٠ فلابد اذا أن تكون لها بعض الحدود التى منها ضرورة وجود المقيم ٠

فالانسان وان كان هو المصدر الاول لعمله فلابد له من مقيم لعمله ذاك وهو الحق الذي يرجع الى الله ٠

ومن العبث أن يحاول الانسان أن يكون فى نفس الوقت القائم بالعمل والمقيم له ٠

لذا أسندت الشرائع تلك المهمة الى الله الذى وضع لنا سلما فى ذلك يعد الرضا به أمرا لازماً للعمل وان لم يكن من طبيعته ٠ والتسليم بوجود المقيم هو شرط أساسي لكل حياة حرة ٠ ويسر الدين على الناس هذا التسليم عندما طلب منهم الاقتداء بالرسل (ص) أولئك الذين كانت لهم حرية تغيير تفكير وحياة اكثرية أبناء الانسانية وجعلوا من اقتدى بهم ينتمي الى خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر .

التعاليـــــق

1) انظر جريدة La Presse بتاريخ : 8 أكتوبر 1978 :
Vatican : A la recherche d'un bon pasteur italien

2) المؤمنــــون : 115

3) الذاريـــات : 56 ·

4) قال الكندى : « نظرا لانه لا يمكن أن يقع من النجم والشجر سجود حقيقى بحسب الاصطلاح الشرعى فمعناه هو انها بجريانها على مجاريها والتزامها حركاتها الثابتة التى تنشأ عنها الظواهر الجوية والحوادث الارضية من كون وفساد وتغير تحقق ارادة بارئها وتنتهى الى أمره . وتؤدى وظيفتها المعينة لها فى نظام العالم » · (رسائل الكندى الفلسفية ص 54) ·

5) قال تعالى : «وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه» (الجاثية : 45) ·

6) القلـــم : 35 ـ 36 ·

7) ص 28 ·

8) فصلت : 46 ·

9) الانفـــال : 51 ·

10) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح ·

11) يقول النبى (ص) : « لو تعلقت همة المرء بما وراء العرش لناله » ·

12 Engels : Anti-Duhring

13) يوسف كرم : كتاب الطبيعة وما بعد الطبيعة ·

14) اللامعقول أى الذى يتجاوز الحدود المشهورة للعقل ·

15) الوجودية نزعة فلسفية تسعى الى معرفة الانسان المفرد المتشخص الممثل ، فى نظرها ، وحده الكائن الحق والموجود الحق وترفض للوصول الى تلك المعرفة الانطلاق من الانسان كجنس لان الانسان الفرد قادر على استخلاص أخلاقه واتجاهاته من مجرد معرفته لنفسه · وهو ما يصاغ فلسفيا فى هذه الكلمة « الوجود سابق للماهية » ·

وتعطى الوجودية أهمية كبرى للوجدان وللمشاعر بوصفها تساعد العقل على حل المشاكل الحياتية · وذهب البعض الآخر من الوجوديين الى حد انكار قدرة العقل على حل تلك المشاكل ·

16) قال تعالى : من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه (البقرة) ·

17) رسالة فى القضاء والقدر ص 67 ·

18) رسالة التوحيد ص 59 ·

19) « « ص 60 ·

20) « « ص 62 ·

21) الانعام : 162 ·

22) على هامش رسالة التوحيد : ص 155 ·

23) رسالة التوحيد ص 156 ·

24) « « ص 160 ·

25) أخرجه ابن عساكر عن أبى محجن ·

26) مصطفى صبرى : موقف البشر تحت سلطان القدر ص 27 ·

27) « « « « « ص 47 ·

28) يتعارض هذا الكلام مع صريح الآية : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » (النساء) ·

29) فصلـــت ·

30) الزلزلـــة

31) النســـاء·

الصوفية والعقيدة الجبرية

توفيق بن عامر
أستاذ بدار المعلمين العليا
- تونس -



توطئة :

تعتبر مسألة الجبر والاختيار من المسائل الهامة التى شغلت حلقات الجدل وعلم الكلام فى تاريخ الاسلام ، وتبوات مكانة مرموقة بين مشاغل الفرق وارباب الملل والنحل ، وقد اسفر تدارسها عن وجهات نظر مختلفة اذ ذهبت فرقة الى نفي الاختيار واثبات الجبر فسميت بالجبرية فى حين ذهبت أخرى الى الايمان بقدرة الانسان على خلق أفعاله فعرفت باسم القدرية وفضلت مذاهب أخرى حلولا وسطى بين هذين النقيضين كالحل الذى ارتأته الاشعرية فى اقرارها بمبدا الكسب • ولا حرج فى ان نقول انه ما من فرقة فى تاريخ الاسلام الا وكان لها موقف من هذه القضية ورأي تنفرد به عن غيرها أو تشترك معها فيه فلابد اذن ان نحاول التعرف على موقف المتصوفة من مشكلة الجبر وهى احد وجهى هذه القضية التى تقوم عليها مسؤولية الانسان وينبنى عليها مصيره وعلاقته بخالقه • وقد يكون من الطرافة بمكان

كبير ان نبحث عن صدى العقيدة الجبرية فى مذهب لا يعد عادة من المذاهب الكلامية لانه لم يؤسس على الحجاج المنطقى والاستدلال النظري وانما عماده الذوق والتجربة الروحية

عـلاقة التصوف بمبـدأ الجبـر :

لم يكن للتصوف الاسلامي فى عهوده الاولى علاقة بمبدأ الجبر والاستسلام بل كان على العكس مـن ذلك مذهبا اخلاقيا ينبني على تهـذيب الـروح وتصفيتها من الصفات المذمومة بشتى الرياضات والمجاهـدات ويتطلب من السالك لطريقه ارادة قوية تمكنه من السيطرة على غرائزه ونزوات نفسه ، وقد نجح الصوفية فى قمع شهواتهم وضربوا على هذا النجـاح أروع الامثلة وادلها على قوة العزيمة وثبات التصميم وابعدها عـن الميوعة والضعف والانحلال وحسبنا شاهدا على موقفهم هذا قول أبى يزيد البسطلمي : (كنت اثني عشر سنة حداد نفسي وخمس سنين مرآة قلبي وسنة أنظر فيما بينهما فاذا فى وسطى زنار ظاهر فعملت فى قطعه اثنى عشر سنة ، نظرت فاذا فى باطنى زنار فعملت فى قطعه خمس سنين أنظر كيف أقطع فكشف لي ذلك فنظرت الى الخلق فرأيتهم موتـى فكبرت عليهم أربع تكبيرات) (1) ٠

وكان أوائل الزهاد والمتصوفة يشاركون الناس حياتهم ويقومون بدور فعـــال فى توجيه المجتمع واصلاحه ويحثون على الجد والعمل ، ومن اليسير علينا ان نجـد فى مواعظ الحسن البصري محاولة جدية لمقاومة الادواء الاجتماعية والسياسية والعقائدية فى عصره وسعيا لتغيير الاوضاع وتحسينها مما لا يدع مجالا للريب فى إن هذا العـلم الذى ينتسب اليه الصوفية غالبا قد كان يؤمن بقدرة الانسان على تقرير مصيره وبـأنه مخير ومكلف وليس مجبرا ومسيرا ، ولم يكن الا وزاعي وسفيان الثورى فى مواجهـة الخليفة المنصور (2) وصالح بن عبد الجليـل فى صراحته مع المهدى (3) وابن السماك فى وعظه للرشيد (4) اقل ايمانا بمسؤولية الانسان وواجبه فى هذه الحياة ٠

وقد بات من الثابت ان اسم المتصوفة قد اطلق لاول مرة بمصر على جماعات كانت تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر وتتدخل فى شؤون الحكم متصدية لجور الحكام وعسفهم ومما اثر عنها فى هذا المجال انها تسببت فى خلع بعض الولاة (5) وقد اقتفى كبـــار

1) الرسالة القشيرية ـ ص 48 ـ مصر 1330 هـ ٠
2) العقـد الفريد ـ ج 3 ص 65 ٠
3) نفس المصدر ـ ج 3 ص 158 ٠
4) نفس المصدر ـ ج 3 ص 164 ٠
5) هـو أبو اسحاق المعتصم احد ولاة مصر فى عهـد المامون ـ أنظر ـ الـولاة للكنـدي ـ ص 445 ٠

الصوفية اثر سلفهم فى هذه النـزعة العملية وفى الايمان بجدوى العمل ولـــم يمنعهم تصوفهم من المشاركة الفعلية فى أمور الدنيا واعتبروا التصوف عقيدة وجهادا ٠ ويكفينا دليلا على نظرتهم هذه قول جـلال الدين الرومي : (ان اللـه وهـب الانسان الاعضاء والجوارح ومواهب وطاقات فدل ذلك على انه يريد منه السعي والجهد كما اذا منـــح سيد عبده فاسا أو معولا فالظاهر انه يريد منه ان يحفر الارض أو يشق صخرة نطـــق بذلك أم لم ينطق ولما أعطانا الله هذه الايدى العاملة والسواعد القوية والاقدام السائرة والطاقات الغنية فانه يريد منا بداهة ان نشتغل ونستخدم قوانا ونكدح فى الحياة ونجاهد فيها ونكسب رزقنا بقوة اليمين وعرق الجبين ٠٠٠ فالسعي شكر لنعمة القدرة والجبر كفران لهذه النعمة والله يقول : «ولئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد» (6) فاكسب وصب عرق الجبين ثم توكل على الرازق ذي القوة المتين (7) ٠ فقد آمن جـلال الدين الرومى بعقيدة الاختيار ايمانا جعله يسلـــم بها عند الانسان والحيوان ويعتبرها قطرة فطر الله عليها خلقه يقول متحدثا عن الانسان (لو كان الجبر لما توجه الامـــر والنهي الى الانسان وما كلف الانسان بالشرائع والاحكام فهل سمع انسان يامر حجـرا وينهاه ؟) (8) ثم يردف متحثا عن الحيوان : (اذا ضربت كلبا بحجر هجم عليك وأراد أن يعضك ولم يقبل على الحجر وينتقم منه كذلك اذا ضرب السائق بعيرا وهاج البعـير لم يثـر على الهراوة التى ضرب بها ، انما يثور على الجمال المسرف فى ضربه ، فعـــار عليك أيها الانسان العاقل ان تنسب الجبر الى الانسان ويفوقك الحيوان غير العاقل فى فهم هذه الحقيقة وادراكها) (9) ٠

ويمكن القول فى ايجاز بان كبار الصوفية الذين لم يخرجوا عن سبيل السلف ولـــم يخضعوا لتاثير المعتقدات الاجنبية عن الاسلام قد اعتبروا الانسان مكلفا اي مامـورا ومنهيا لانه قادر على الاختيار بين الخير والشر ولولا ذلك لما كان للامر والنهي الوارد فى القرآن معنى فى رأيهـــم ولسنا نريد سرد العديد من الامثلة على هذا الفريق مـــن الصوفية وانما نبغى الاجتزاء بقـول الغـزالى مفندا لعقيدة التوكل كما فهمها الجبرية ومبينا لاعمال المتوكلين يقول : (وقد ظن الظانون ان المتوكل ينبغى ان يكون كلحم على

6) القرآن ـ السورة ابراهيم الآية 7 ٠
7) مثنوى ـ ص 27 ٠
8) المصدر نفسه ـ ص 461 ـ 462
9) المصدر نفسه ـ ص 463 ٠

وضم وهذا غلط ونحن نبين ذلك فنقول : تلك الاعمال تنقسم الى جلب النافع وحفظه ودفع الضار وقطعه ٠٠٠) (٤٥) ٠

نشأة الجبر الصوفى :

الا ان التصوف الاسلامي لم يلبث ان تردى فى هوة الانفصال عن معترك الحياة والاستسلام للاقدار حتي امسى اسم التصوف مرادفا للتواكل والحتمية والسلبية وادى الامر الى نشأة عقيدة جبرية اعتنقها اعلام صوفيون تاثروا بنظريات أجنبية والى ظهور فرق جعلت من الضعف والعجز مبدأ أساسيا وعلمت الانسان الخضوع والخنوع والتغاضى عن المسؤولية بدعوى تفويض الامور الى الخالق فحاد الصوفية بذلك عن طريقهم الاول وصاروا يعرفون التصوف بأنه (الصبر تحت الامر والنهى) بعد أن كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ٠

لكن الاسباب التى حدت بالصوفية الى توخى هذا الاتجاه تبدو معقدة وجديرة بالملاحظة والدرس ولعل بعضها يرجع الى طبيعة التصوف نفسه وما يقوم عليه من سلوك زهدي أساسه نبذ الحياة واعتبارها عرضا زائلا والتعويل على حياة أخرى هي اخلد وابقى وليس من باب الصدفة ان نجد عند أصحاب الطريق نظريات فى الفقر والغنى وتفسيرا اصطلاحيا جديدا لهذين المفهومين وتفضيلا للفقر على الغنى حتى امسى الفقير فى نظرهم هو الغني والغني هو الفقير وحتى اطلق الصوفية على انفسهم لقب الفقراء ٠ يقول أبو طلب المكى فى مدح الفقر وتفضيله عن الغنى : (ان الفقير الزاهد يدخل الجنة قبل الغني المصلح بخمسمائة عام هؤلاء خصوص الفقراء وان الفقير غير الزاهد يدخل الجنة قبل الاغنياء بأربعين خريفا لاجل فقره فقط فصار الاغنياء مفضولين فى الحالين معا ٠٠٠ وقد روينا عن النبىء صلى الله عليه وسلم : (تحية المؤمن فى الدنيا الفقر) ، فجعل الفقر تحية له من ذي التحيات المباركات ، مع الخبر المشهور : (الفقر على المؤمن ازين من العذار على خد الفرس الجواد ، والفقر اختيار رسول الله صلى الله عليه وسلم وشعار الانبياء وطريقة علية الصحابة الاصفياء وروينا فى الخبر (آخر الانبياء دخولا الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه وآخر اصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لاجل غناه فى الدنيا) وفى الخبر الآخر (رأيته يدخل الجنة زحفا) ولا تعلم فى الامة أفضل من طائفتين المهاجرون وأهل الصفة وجميعا مدح الله تعالى بالفقر فقال للفقراء المهاجرين (**الذين أحصروا فى سبيل الله**) فقدم وصفهم بالفقر على أعمالهم الهجرة

والحصر والله تعالى لا يمدح من يحب الا بما يحب ولا يصفه حتى يحبه (II) ·

وليست هذه الآراء هي وحدها التى بعثت الروح الجبرية فى الكيان الصوفي بل ان من أسباب رسوخ مبدا الجبر فى العقيدة الصوفية هو التأثر بفلسفات دخيلة يؤمن أصحابها بضرورة القضاء على الارادة الانسانية وصهرها فى المشيئة الالهية وبافناء الذات البشرية أو « الانا » فى الذات الالهية أو المطلق على حد قولهم فنجم عن ذلك اتجاه صوفي جديد وظهر متصوفة آمنوا بالحلول ووحدة الوجود وأسقطوا عن العباد كل مؤونة حتى مؤونة التكليف بالواجبات الشرعية ·

ولم يكن التصوف علاوة على ذلك بمعزل من المذاهب الكلامية فقد تأثر اربابه بما كان يخوض المتكلمون فيه من مسائل عقائدية كبحثهم فى الذات والصفات والقدر وسائر القضايا الكلامية ولعل ما نقرؤه اليوم فى مؤلفات الصوفية يشهد بأنهم لم يكتفوا بهذا التأثر وتجاوزه الى وضع نظريات خاصة بهم فى هذا الموضوع ردوا بها على أصحاب الآراء المخالفة لهم · فكان تأثرهم بالمعتزلة مثلا واضح المعالم فتكلموا مثلهم فى مشكلة التنزيه وقال أحدهم وهو أبو علي بن الكاتب الصوفى (I2) ان المعتزلة نزهوا الله من حيث العقل فأخطأوا والصوفية نزهوه من حيث العلم فأصابوا (13) كما تكلموا فى موضوع الجبر والاختيار وقدرة الانسان على خلق افعاله وهو من المواضيع الجوهرية التى خاض فيها أهل العدل والتوحيد لكنهم اذا ما أخذوا عن المعتزلة طريقة الاستدلال والاحتجاج فانهم قد خالفوهم فى الاعتقاد وان كان هذا الخلاف لا ينفى ذلك التأثر المشار اليه · ومما يؤكد هذه العلاقة بين التصوف والفرق الكلامية اعتناق كثير من المتكلمين مذهب التصوف ويمكننا ان نجد مثالا على ذلك فى اعتزال أبى حيان التوحيدي وتصوفه (I4) وكذلك أبى القاسم الزوزنى الشاعر المعتزلي (I5) ·

الا أن الصوفية لم يكونوا علماء كلام بالمعنى الاصطلاحى للعبارة وذلك لانهم لم يخوضوا فى التفاصيل والجزئيات الجافة التى تورط فيها أرباب الملل والنحل ولم يقتصروا على المسائل النظرية المجردة فى عقيدتهم بل فضلوا أن يكتفوا من ذلك بما

II) قوت القلوب : ج I ص 242 ــ 243 ·
I2) توفى سنة 340 هـ ·
I3) الرسالة القشيرية ص 27 ــ ط مصر سنة I346 هـ الحضارة الاسلامية ج 2 ص 42
I4) الارشاد لياقوت ج 5 ·
I5) يتيمة الدهر ص 324 ·

يوضح موقفهم من جل المسائل التى كانت المذاهب الاخرى تعالجها واختاروا ان يعملوا بعقيدتهم ويعيشوها اكثر مما يتكلمون فيها وهو ما سنلاحظه عندما نتعرض لرأيهم فى قضية الجبـر والاختيار ٠

الجبـر الصـوفي أو التـوكل :

لقد تظافرت كل هذه العوامل اذن على السير بالصوفية فى طريق الاعتقاد الجبـري واذا ما رمنا البحث عن أول من خط للصوفية نهج الرضى بمشيئة القضاء والتجرد من كل بادرة شخصية وعلمهم الاعتقاد بأن اعتبار المجهود البشري يعد مشاركة لله فى قدرته فاننا نجـد فى أقوال شقيق البلخى (16) ما يدل على انه مؤسس هذه المبادىء ومرسخها حتى تسنى لها الانتشار بعد ذلك ٠ ولعـل كلا من البلخى والمحاسبى (17) قد عمل على نشر مذهب الاستسلام وان كان المحاسبي مع قوله بالتوكل يعتبر السعي وراء الـرزق واجبا ينال الانسان عليه الثواب وينتقد فى كتاب المكاسب موقف البلخى الذى يـرى التـوكل من غير عمـل ٠

وتتمثل العقيدة الجبرية عند الصوفية فى أن الله خالق لافعال البشر كلها خـيرها وشرها وان الانسان مسير فى تصرفاته وأعماله بقضاء الله وقدره فلا يتنفس نفسها ولا يطرف طرفة ولا يتحرك حركة الا بارادته ومشيئته واحتجوا لذلك بأن الله لو كان خـالقا للاعيان دون الافعال لما صح قوله : « خالق كل شيء » (18) وقوله : « والله خلقكم وما تعملون » (19) ولكان الانسان أكثر قدرة على الخلق لان الافعال فى الوجود أكثر مـن الاعيان وبرهنوا على خلق الله لفعل الشر بأنه لو كان خالقا للخير دون الشر لكان لـه فى خلقه شركاء ولما كان لقولـه (**من شر ما خلق**) (20) معنى كما نظروا فى القضية من طرفها الثانى أى المخلوق فتناولوها هذه المرة من الجانب النفسـانى والجسمانى بعد أن تناولوها من الجانب العقائدي الماورائى فتعرضوا لاحساس الانسان بالقدرة على الفعل وباستطاعته التحكم فى أعضائه التى بها يفعل فاذا هم لا يعترفون له حتى بهذه الاستطاعة ويرونها غير بشرية ولا علاقة لها بسلامة الاعضاء اذ كـم من صاحب أعضاء سليمة لا يقوم بفعل ولا فرق عندهم بين حركة العضو السليم وحركة المرتعش لان كلا منهما من

---

16) توفي سنة 194 هـ انظر الحضارة الاسلامية : هامش ص 46 ، ج 2 ٠
17) توفي سنة 243 هـ ٠
18) سورة غافر آية 62 سورة الزمراية 62 ـ سورة الانعام آية 102 سورة الرعداية 16
19) سورة الصافات آية 96 ٠
20) سورة الفلق آية 2 ٠

خلق الله وبأمر منه · وتاويل ذلك فى رأيهم ان الله يكسب العضو قوة عند الفعل تـزول بزواله وهي قوة لا وجود لها قبله ولا استمرار لها بعده اذ هي عرض لا يقوم بنفسه ولا بقاء لـهوبذلك يبقى الانسان دائما مفتقرا الى اللـه وهذا معنى قوله تعـالى (ايـاك نستعـين) (21) ·

لكن العقيدة الجبرية عند الصوفية قد تبلورت خاصة فى مظهر دينـي عملـي وفى ضرب من السلوك يسمونه التوكل ويعتبرونه أحد مقاماتهم التى يمرون بها فى معراجهم الصوفى · ولعلنا لا نعدو الصواب اذا قلنا ان عقيدتهم الجبرية لا تقوم على الاستدلال المنطقى بقدر ما تقوم على هذا النوع من التجربة الروحية التى يعيشها المريد ويؤمن بها عميق الايمان · واذا ما طالعنا بعض التعريفات والحدود التى وضعها المتصوفة للتوكل كقول سري السقطي (22) (التوكل الانخلاع من الحول والقوة) (23) وكقول ابن مسروق (24) التوكـل الاستسـلام لجريـان القضـاء فى الاحكـام (25) · وكقـول التسترى (26) التوكـل الاسترسال بين يـدى الله (27) فهمنا مـدى ما وصـل اليه هؤلاء من الثقة بالله والاستسلام لقدره · وقد حاول الصوفية أن يطبقوا فى حياتهم هذه المبادىء والآراء فوصلوا من ذلك الى محو كل ارادة شخصية واستقبحوا الاعتماد على النفس واعتبروه تقصيرا فى جنب الله وجعلوا (أول مقام التوكل أن يكون العبد بـين يدى الله عز وجل كالميت بـين يدى الغاسل يقلبه كيف شاء لا يكون له حركة ولا تدبير) (28) وأحسن دليل على هذه العقيدة وما تجسدت فيـه مـن تصرف مـا وراه الهجويري من أن درويشا وقع فى دجلة فرآه رجل وأدرك أنه لا يعرف السباحة فقال له

---

21) سورة الفاتحة آية 5 ، راجع كتاب التعرف ، الباب 13 و 14 الصفحات 50 ، 61 ، 62 ، 63 ·

22) هو أبو الحسن سوى بن المغلس المسقطى أستاذ البغداديين وامامهـم فى وقته تـوفي سنة 251 هـ ·

23) التعرف ـ ص 120 ·

24) توفى سنة 299 هـ وصحبالسرى والمحاسبى وغـيرهما وكان من كبـار مشائخ القـوم وعلمائهـم ·

25) التعـرف ص 120 ·

26) هو أبو حجر سهل بن عبد الله التستري توفي سنة 283 هـ ·

27) التعـرف ـ ص 120 ·

28) أنظر باب التوكل من الرسالة القشيرية ·

(أتريد أن أرسل اليك من ينقذك ؟ فقال : لا · فقال له الرجل : أفتريد أن تغرق ؟ فقال : لا · فقال له فأي شيء تريد ؟ فقال : أي شيء أريد ؟ أريد ما يريد الله لي) (29) وطبيعي أن يؤدي هذا الضرب من التفكير والسلوك الى عزوف عن السعي والداب وراء الرزق واذا كان بعضهم يرى كالقشيري (ان التوكل محله القلب وانه لا ينافى السعي والحركة لان ما تعسر من الكسب فبتقدير من الله وما اتفق فبتيسير منه)(30) واذا ما كان هؤلاء يتمثلون قول الرســـول (اعقلها وتوكل) فان غيرهم يعتبر الكد عديم الجدوى ما دامت الارزاق قد قدرت وقسمت فراحوا يعظون مريديهم ويقنعونهم (بأن لكل عبد رزقا هــو آتيه لا محالة ولو هرب العبد من رزقه كما لو هرب من الموت لا دركه) (31) (وان مــن اهتم برزق غد وعنده اليوم قوت فهي خطيئة تكتب عليه) (32) وذهب بعضهمّ الى أن الارزاق قد كتبت فى اللوح المحفوظ وخلقت قبل خلق الاجسام بالفى عام (33) وهكذا اسلموا انفسهم لعناية الله واعتقدوا أن العلي القدير كفيل بان يكفيهم حاجتهم فــلم يمارسوا تجارة ولا تعاطوا دواء فى مرضهم وأيقنوا ان حظهم الذي كتب لهم سيصيبهم حتما كما يصيب الطير ، وقد خاطب شقيق البلخى احد مريديه قائلا (ليس لك بد مــن أن تجعل عملك كله لله لا لغيره وانت لا تجعل عملك لغيره الا طمعا فيه أو حياء أو خوفا منه فاذا خفت أو طمعت في غــيره وهو مالك الاشياء ورازقها فقد اتخذت الها غيره) (34) وسال المنصتين لوعظه مرة (أرأيتم ان أماتكم اللــه اليوم يطالبكم بصلاة غد ؟ قالوا : لا · يوم لا نعيش فيه كيف يطالبنا بصلاته فقال : فكما لا يطالبكم بصلاة غد فانتــم لا تطلبوا منه رزق غد عسى الا تصيروا الى غد) (35) وليس غريبا أن يقول بعضهم فى شرحه لغاية التوكل (من أراد أن يقوم بحق التوكــل فليحفر لنفسه قبرا ويدفنها فيه وينسى الدنيا واهلها لان حقيقة التوكل لا يقوم له أحد من الخلق على كماله)(36) وكأن ابـــا سعيد الخراز قد شاء تحقيق هذا الكمال فيما رواه عن نفسه قائلا : (دخلت البادية مرة بغير زاد فاصابتني فاقة فرايت المرحلة من بعيد فسررت باني وصلت ثــم فكــرت فى

29) كشف المحجوب من ص 180 و 379 ـ الصوفية فى الاسلام ص 45 ·
30) انظر باب التوكل من الرسالة القشيرية ·
31) قــوة القلوب ج 2 ص 7 ·
32) المصدر نفســه ص 7 ·
33) المصدر نفســه ص 7 ·
34) حليــة الاولياء ج 8 ص 64 ·
35) المصدر نفســه ج 3 ص 69 ·
36) اللمــــع ص 53 ·

نفسى انى سكنت واتكلت علــى غيرى فآليت الا ادخل المرحلة الا ان أحمل اليها فحفرت لنفسى فى الرمل حفرة وواريت جسدي فيها الى صدري فسمعوا صوتا فى نصــف الليل عاليا : يا أهل المرحلة ان الله تعالى وليا حبس نفســه فى هذا الرمل فالحقوه ، فجاءنى جماعة فأخرجونى وحملونى للقرية (37) ·

هذه بعض الامثلة من سلوك القـــوم وتفكيرهم وهى لا تؤدى فى كل الحالات الا الى خلق صنفين من البشر صنف يعيش كـــلا على غيره وصنف مسالم لا يبالي بالاذى والعذاب ويعتبرها أحداثا جارية فى مأساة الحظ الابدية (38) ولا يسع الدارس الا أن يستنتج أن الصوفى قد صـــار درويشا هائما على وجهـــه فى البـــلاد بدون زاد حتى لا يفسد التزود اتكاله على الله فكان يحج الى مكة ماشيا على القدمين فارغ الجراب لا يبالي بأن يهلك تعبا وجوعا ومن المرجـــح على حـــد قول نيكلسون (أن يكون بعض هؤلاء المتوكيلين قد قضى نحبه على هذا النحو (39) وهو ما دعا سفيان الثوري الـــى القول بأن (من رفض السؤل فمات جوعا ألقى الله به فى النار) (40) الا أن الصوفية أنفسهم قد عدلوا بمرور الزمن من معنى التوكل نظرا لظروف حياتهم القاسية ولمـــا يمكن أن ينجر عنه من آفات فصاروا يرون أنه لا يتنافى مع الكسب وأمسى بعضهم يرى ضرورة التداوي من الامراض بعد أن كانوا يرفضون التطبب ·

الجبــر والتدهــور الصــوفى :

لكن مذهب التوكل قد أدى فى عصور الانحطاط وعند انتشار الفرق الصوفية الى استفحال ظاهرة الحتمية والاستسلام ومما أعان على انتشار هذه الافة اكرام جمهور العامة لاهل الطرق واسعافهم لهم بالولائم فى كل مناسبة فكانوا بذلك يكفونهم مؤونه التسول والكدية وقد وصف لنا المقدسي ولع الناس باستضافتهم (41) كما وصف لنـــا غيره من المتأخرين تهالكهم على الطعام حتى أمسوا مشهورين بالنهم فى الاكل بعد أن

37) الرســالة القشيرية ص 104 ·
38) الصوفية فى الاسلام ص 50 ·
39) فى التصوف الاسلامي ص 55 ·
40) المرجع نفسه (فى التصوف الاسلامي ص 55) ·
41) أحسن التقاسيـــم ص 417 ·

كانوا معروفين بالتقلل منه (42) وكانوا وما زالوا يسمـــون بعض أنواع الغذاء المجانى فتوحا لانها باب من أبواب الرزق التى فتحها الله لهم لقاء اعتكافهم وتحنثهم · ومما يذكر عنهم فى باب النهم ما يروي من أن أبا علي الروذباري (43) (اتخذ مرة أحمالا من السكر الابيض ودعا بجماعة من الحلوانيين حتى عملوا من السكر جدارا عليه شرافات ومحاريب على أعمدة ونقشوها كلها من سكر ثم دعا الصوفية حتى هدموها وكسروها وانتهبوها) (44) ولسنا هنا بصدد تعداد الانحرافات التى آل اليها التصوف الاسلامي وانما هدفنا التأكيد على أن هذه العقيدة الجبرية قد تسببت فى تدهور التصوف وفى توجيهه وجهة لم يكن ينحو نحوها فى عهوده الاولى ويبدو أن تأثير هذه العقيدة قد تجاوز الميدان الصوفى ليشمل فى وقت ما حياة المسلمين الدينية بصورة عامة ونحن لا نشك فى أن المجادلات الكلامية فى قضية الجبر والاختيار لم تؤثر فى الاسلام بقدر ما أثرت فيه عقيدة التوكل الصوفى وذلك لان المتصوفة قـد جعلوا من هذه العقيدة طريقة فى العيش اتبعهم فيها غيرهم وأصبغوا عليها لونا دينيا واعتبروها من طقوس العبادة حتى ظن العوام أنها من صميم الديانة وهكذا انعكس هذا الاعتقاد حتى فى لغة الخطاب وما زلنا الى اليوم نحتفظ فى كلامنا بعبارات هي من وحي الجبر الصوفى الدال على الرضى بمجاري القضاء واعتبار الرزق هبة نازلة من السماء ·

---

42) الحضارة الاسلامية ج 2 ص 33 – 34 ·

43) أحد الصوفية البغداديين توفى سنة 322 أو سنة 323 هـ ·

44) الحضارة الاسلامية ج 2 ص 34 ·

المصـــادر والمراجـــع

1 ـ المصـــار العامـــة :

ـ القـــرآن

ـ العقد الفريد لابن عبد ربه ـ القاهرة 1956/1375 ـ 8 اجزاء .

ـ ارشاد الاريب الى معرفة الاديب لياقوت الحموى ـ مصر 1923 ـ 7 أجزاء .

ـ يتيمة الدهر للثعالبى ـ القاهرة ـ 1947/1366 ـ 4 أجزاء .

ـ أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم للقدسى ـ ط 2 ـ ليدن ـ 1906 .

2 ـ المصادر الخاصـــة :

الرسالة القشيرية فى علم التصرف لابى القاسم عبد الكريم بن هوان القشيرى ط . مصر ـ 1330 هـ و ط . مصر ـ 1346 .

ـ المرشد الامين الى موعظة المؤمنين من احياء علوم الدين لابى حامد الغزالى ط 2 صطفى بابى الحلبى بمصر 1956 .

ـ مثوى لجلال الدين الرومى ـ ط 2 لندن 1898 ترجمة هوينفيلد Whinfield

ـ قوت القلوب فى معاملة المحبوب ـ ط القاهرة 1310 هـ (جزان) .

ـ التعرف لمذهب أهل التصوف لابى بكر محمد الكلابادى ط 1 ـ مصر بدون تاريـــخ .

ـ اللمع لابى نصر السراج الطوسى ـ مصر 1380 هـ ـ 1960 م .

ـ حلية الاولياء وطبقات الاصفياء لابى نعيم الاصفهانى ط 1 مصر 1357 هـ 1938 م

3 ـ المراجـــع العامـــة :

ـ الحضارات الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز ـ ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ط 4 بيروت 1387 هـ ـ 1967 م ج 2 .

ـ المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبد الباقى ـ كتاب الشعب مطابع الشعب 1278 هـ .

4 ـ المراجـــع الخاصـــة :

ـ الصوفية فى الاسلام : ر ـ أ ـ نيكلسون ترجمة نور الدين شريبة ـ مصر 1951

ـ فى التصوف الاسلامى وتاريخه : ر ـ أ ـ نيكلسون ـ ترجمة أبو العلاء عفيفى القاهرة 1956 .



اتصـــاف أهـل الفســاد بالنفـــاق والعنـــاد

سليمـــان المـــدني
عضو هيئة التوجيه الديني
بوزارة الشؤون الدينية ـ الجزائـر

بدانا في عدد 40/39 من الاصالة بتاريخ ذى القعدة ذي الحجة 1396 هـ نوفمبر ـ ديسمبر 1976 م بتفسير القرآن في خطب الجمعة تفسيرا مبسطا نستقيه من آخر ما وصلت اليه التفاسير ، وما صار اليه البحث العلمي ـ بقدر الامكان ـ ! ، وذلك تعميما للفائدة كما يقال ، وكلمة التعميم هنا في الصميم يطابق فيها الحال المقال ، حيث ان الخطبة نفسها تذاع على امواج الاثير من الجامع مباشرة ، فيستفيد منها لا جمهور المصلين فحسب ، بل جميع من يستمع الى المذياع داخل البلاد وخارجها ، من استاذ جامعي يساعد زوجته في المطبخ وقعد عن صلاة الجمعة ، الى الفلاح ، والراعي ، في حقل هذا وغابة ذاك ، بفضل هذه الآلة العجيبة التي تسمى الترانزيستور · «الأصالة»

الحمد لله الذى وجهنا الى الخير والاسعاد ، وحذر وانذر مروجى الفتنة بين العباد ، وأشهد أن لا اله الا الله الذى نهى عن الكذب والفساد ، وعن الغش والمراوغة والمكر والعناد ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى جاء لتصحيح الاعتقاد ، ونبذ النفاق والتذبذب والالحاد ، صلى الله عليه وعلى آله وصحابته الذين رفعوا منار الاسلام ، وطبقوا الاحكام . رضى الله عنهم أجمعين ·

أما بعد أيها المسلمون ، فيقول الله تعالى فى كتابه الكريم من سورة البقرة موضحا صفة المنافقين الذين اتصفوا بالفساد ، والعناد والالحاد : « **واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الارض ، قالوا انما نحن مصلحون** » ، هؤلاء هم المنافقون المكابرون ، اذا نهوا عن الفساد فى الارض لم ينتهوا . واذا حذروا أو نبهوا ، تمادوا وموهوا ، وعاثوا وشوهوا ، وقالوا مكابرة ومغالطة : « **انما نحن مصلحون** » يقولون بالسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، ويتظاهرون بالاصلاح والرغبة فيه ، اخفاء لخبثهم وتلونهم حينما يتقابلون مع المؤمنين ، فتلمس فيهم حلاوة اللسان ، ومظاهر الايمان ، حرصا منهم على اخفاء سمة العصيان ،

(*) خطبة الجمعة ليوم 03 رجب 1398 هـ (09 يونيو 1978 م) ·

ومهما بالغوا فان قلوبهم منطوية على الخديعة والعداوة والعدوان . وقد رد الله عليهم وفضحهم بقوله : « **ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون** » انهم قد جمعوا الى صفة الكفر . رذائل الخبث والمكر ، وتلك هى صفة أهل النفاق الذين يضمرون للمؤمنين الحقد والحسد ، وقد وصفهم القرآن بأوضح بيان فقال : « **قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر** » ، وقال : « **ها أنتم هؤلاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ، واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ ، قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور** » واذا عوتبوا عادوا الى اظهار الاسلام والندم، وحلفوا بالله عليه كما أخبر الله عنهم بقوله : « **يحلفون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر** » وقوله : « **يحلفون لكم لترضوا عنهم** » . واذا كان (الفساد) خروجا عن الطاعة، وعن العقيدة الاسلامية ، واثارة الفتن والانحياز الى الجهة المعادية ، فكيف يقولون : « **انما نحن مصلحون** » واننا بعيدون عن شوائب الفساد،وانما نريد الاصلاح والتوفيق، ففضحهم القرآن فى كل ميدان ، لانهم جاؤوا بتحايل الشيطان . اذ قالوا : « **ان أردنا الا احسانا وتوفيقا** » انهم يؤمنون : « **وجه النهار ويكفرون آخره** » ، اتخذوا لانفسهم وجهين : يقابلون هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه ، « **مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء** » ، « **وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا . وان يروا سبيل الغيى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين** » « **واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون** » .

فالآية الاولى نهت عن الفساد فى الارض ، والكفر فساد وعناد ، وعصيان والحاد . وجاءت الآية الثانية داعية للايمان كافة العباد ، « **واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس** » ايمانا خالصا كايمان من أنعم الله عليهم ورضى عنهم ، كما آمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه وهم معروفون لديكم ومعهودون عندكم ، وقد هاجروا اليكم وهم بين أظهركم ، أو كايمان عبد الله بن سلام واشياعه وهم من أبناء جنسكم، ومواطنون مثلكم، وهذه الدعوة موجهة اليكم : « **آمنوا كما آمن الناس** » ايمان المخلصين الذين دخلوا فى السلم كافة ، وأسلموا وجوههم لله ، وفتحوا صدورهم لرسول الله ، صلى

الله عليه وسلم ، يوجههم فيستجيبون مخلصين ، فلماذا لم تكونوا مثلهم مؤمنـــين صادقين؟ ملتفين حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا مكابرة واستهزاء : « **انؤمن كما آمن السفهاء** » ، قالوها منكرين متطاولـين متعالين ، كيف يسوى بيننا وبين فقراء المدينة؟ نحن أهل الرياسة والصدارة ، وهم من السوقة وأوساط العامة !؟ فكان الرد عليهم من الله جل جلاله حازما وصارما : « **ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون** » وذلك لفساد طبعهم ، وقلة انتباههم ، وخفة عقولهم ، وطيشهم وعدم ايمانهم ، وقد باعوا آخرتهم بدنياهم ، وذلك هو الخسران المبين؟ وكانت منزلتهم عند الله أسوأ دار ، فقال تعالى : « **ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار** » ، وذلك لتذبذبهم وعدم ثباتهم، وممالأتهم للكفار والمشركين ، ولليهود الحانقين ، فاكتسبوا من الكفار عنادا وتصلبا ، ومن اليهود خبثا ومراوغة وكذبا ، وبهؤلاء وأولئك كان ارتباطهم ، والتردد عليهم، والرجوع اليهم للاخذ منهم، والاسرار اليهم بما جد عند المسلمين . « **واذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، واذا خلوا الى شياطينهم قالوا : انا معكم ، انما نحن مستهزءون** » انها صفة من أضله الله ، فأتبع هواه ، وكان أمره قد بلغ منتهاه ، فى الخسة وفساد الطوية ، والتلون بكل صفة ، وعلى أية حالة ، من المقت والدناءة ، والذل والمهانة ، والمكر والمخادعـــة .

نجانا الله واياكم من مكر الماكرين ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

الخطبـــة الثانيـــــة

الحمد لله الذى أحيى قلوب المتقين بالعبادة ، وأمات قلوب الكافرين بالمعصيـــة ، وارتكاب الفاحشة ، واشهد ان لا اله الا الله الذى جعل الايمان طريقا الى السعادة ، والعصيان طريقا محفوفا بانواع الشقاوة ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله

الذى كانت رسالته رحمة للعالمين،صلى الله عليه وعلى آله،ورضى الله عن التابعين وتابعيهم باحسان الى يوم الدين ٠

أما بعد أيها المسلمون : فان المنافقين وهم الذين فسد باطنهم كالكافرين ، ولكنهم قد ظهروا بين المسلمين كالمسلمين ، قالوا كلمة التوحيد كما يقولون ، وصلوا كما يصلون ، وظنوا انهم يخادعون الله ورسوله والمؤمنين ، ظهرت هذه الطائفة بالمدينة ، بعد أن أصبح الاسلام فى عزة ، والدعوة سائرة بقوة ، وقوافل الايمان تسير بسرعة ، وأفواج القبائل تدخل فى الاسلام بكثرة ٠

وهنا قد أحس المنافقون بالخطر ، وتوقعوا من المسلمين الضرر ، فلم يستطيعوا المجابهة والجهر ، ومن عادة الجبناء ان يلجأوا الى الكتمان والتستر ، فهم يسايرون المسلمين فى المظهر ، ويخالفونهم اذا انفردوا وزال الخطر ، واذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين المخلصين قالوا : آ منا بما آمنتم به فنحن مؤمنون نصدق الرسول ودعوته ، ونحن معكم فى الاعتقاد ، وطاعة رب العباد ، واذا انصرفوا عنهم واجتمعوا بأصحابهم الذين يشبهون الشياطين فى الفتنة ، والفساد والمخادعة ، قالوا لهم : انا معكم على طريقتكم وعملكم ، وانما كان قولنا للمؤمنين ما قلناه لهم استخفافا بهم ، واستهزاء بحالهم، وسخرية منهم ، وقد لعبنا لعبة الخبث معهم ، اذا واجهناهم نبتسم لهم ، واذا انصرفوا عنا وانفردنا سخطنا عليهم ، فكنا غمازين لمازين ، ننهش الاعراض ، نهش الحانق المغتاظ ٠ وقد رد الله عليهم وأوعدهم بأشد العقاب ، وسوء العذاب ، فقال : « **الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون** » فيدعهم الله يتخبطون على غير هدى، تتعذب ضمائرهم ويكتب عليهم الشقاء والهوان ، ويمهلهم فى تيه الضلال عميا لا يجنون الا غيا ، جزاء حماقتهم التى كانت تدبر المكايد ، وتروج الاكاذيب ، وتزعزع المؤمنين ، وتفسد روابط المحبين ، فهؤلاء هم أرذل المنافقين الذين نزلت فيهم سورة كاملة وسميت باسمهم، وقد اهتم القرآن بالحديث عنهم ، والتحذير منهم ، ولفت الانظار اليهم ، لمعرفة أوصافهم، قال تعالى : « **ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم**

فى لحن القول ، هذه أفعالهم فى الدنيا،أما جزاؤهم فى الآخرة قال ابن عباس رضى الله عنهما : (اذا دخل المؤمنون الجنة ، والكافرون النار ، فتح الله من الجنة بابا على الجحيم فى الموضع الذى هو مسكن المنافقين ، فاذا رأى المنافقون الباب مفتوحا أخذوا يخرجون من الجحيم ويتوجهون الى الجنة ، وأهل الجنة ينظرون اليهم ، فاذا وصلوا الى باب الجنة فهناك يغلق دونهم الباب،فذلك قوله تعالى : « **ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، واذا مروا بهم يتغامزون** » الآية ·

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب ، وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين ·

أهـــل الضـــــلالة
عمي عـــن الهدايــــة

سليمـــان المـــدنى
عضو هيئة التوجيه الدينى
بوزارة الشؤون الدينية ـ الجزائـــر

الحمد لله الذى أمرنا باتباع السنة والكتاب ، فقال : « **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** » وأشهد أن لا اله الا الله الذى توعد أهل الضلالة بالعقاب ، وكل من حاد عن الصواب ، واشهد ان سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى جاءنا بالشريعة المطهرة ، للقضاء على الضلالة ، وما يفضى الى الكفر والجهالة .

أما بعد أيها المسلمون،فيقول الله تعالى فى كتابه الكريم : « **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** » هؤلاء هم المنافقون المشار اليهم ، وقد تأصل النفاق فيهم ، فلا يطلق الا عليهم ، ولا ينصرف الا اليهم ، فاختص هذا الاسم بهم ، واستقر فيهم ، فتوارثوه أبا عن جد ، فأصبح الاحفاد ، نسخة من الاجداد ، وعرفوا جميعا بالمكر والفساد ، وبالخبث والالحاد ، وبنشر الفتن لتمزيـــق الروابط بين العباد ، وقد أعماهم التعصب والطغيان ، وأمد الله فى ضلالهم فكانوا أتباعا للشيطان ، وتحجرت قلوبهم فليس فيها شىء من لرحمة أو الايمان ، ومن كانوا كذلك فهم عرضة للافلاس والخسران : « **ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم** » ،

(*) خطبة الجمعة ليوم : 10 رجب 1398 هـ (16 يونيو 1978 م) .

وها هم استحبوا الضلالة على الهدى لانهم عمي البصيرة ، فاسدو العقيدة ، مرضى العقول بالتشكك والوسوسة ، وقد شبه الله حال تلك الجماعة ، بمن أفلس فى التجارة، حيث عدلوا عن الايمان الى الضلالة ، فصدق فيهم قول الله : « **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى** » أى الكفر بالايمان ، اذ أخذوا الضلالة وتركوا الهدى ، فهم بذلك قد تشبهوا بأهل ثمود ، فى الكفر والجحود « **واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى** » هكذا كان اختيار المنافقين الضلالة على الايمان ، وان تباعد بين هؤلاء واولئك من فواصل الزمان ، فقد تشابه الفريقان ، فى الكذب والبهتان ، وفى التعصب وعدم الايمان ، فلا علاج فيمن فسد طبعهم ، وأعمى الله بصائرهم ، وظنوا لجهلهم ، انهم يخادعون الله ورسوله والمؤمنين . فاتخذوا من الايمان المزور رداء ، ومن البشاشة المصطنعة ذكاء ، ومن عنوان الاصلاح مداهنة ودهاء ، ومن مظاهر روح الاستقامة رياء ، ومن المجاملة اطراء وطلاء، واذا خلوا الى شياطينهم قدموا لهم ولاء ، وتعهدا صادقا ووفاء ، قائلين لهم فاطمئنوا ، ان ما جاء وفق حال المسلمين كان سخرية واستهزاء ، جعلوا النفاق وسيلة لتحقيق الاطماع ، فتكيفوا حسبما تمليه الاوضاع ، ويعود عليهم بالانتفاع ، وآثروا الصمت على الكلام ، ليتمكنوا من الانتقام ، وآثروا السعى فى الظلام ، وهكذا فضل المنافقون الاختفاء على الظهور ، والظلام على النور ، للمزيد فى الكيد والحسد والشرور ، « **فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** » فباءت تجارتهم بالخسران ، وما انتفعوا بما انزل الله على نبيه من آى القرآن ، فكانت خسارتهم من ناحيتين : ناحية خيبة الآمال ، فى تحقيق الارباح وزيادة الاموال ، وناحية الفشل وضياع رأس المال ، وما أسوأ ذلك المآل ، الذى يفقد الانسان فيه رشده ويشقى بالضلال ، ونقل ابن جرير هذه الاستفادة ، التى رواها ابن ابى حاتم عن قتادة ، فى قوله تعالى : « **فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** » (قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى الى الضلالة ، ومن الجماعة الى الفرقة . ومن الامن الى الخوف ، ومن السنة الى البدعة) « **فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين** » .

ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين .

الخطبـــة الثانيـــة

الحمد لله الذى هدانا الى اليقين،وأكرمنا بالاسلام الذى هو افضل دين،وأشهد أن لا اله الا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ٠ واشهد ان سيدنا محمدا عبده ورسوله الصادق الامين،صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن والاه ٠

أما بعد أيها المسلمون،فقد سبق لنا فى الآية السابقة ما عرفناه عن حالة المنافقين ، الذين اتخذوا من الاسلام شعارا ، ووقاية لهم وستارا ، وطفقوا يعملون سرا أو جهارا ، فهؤلاء قد وصفهم القرآن بالتذبذب والخذلان ، وضرب مثلا شبيها بحالهم فقال تعالى : (**مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون**) شبه الله حال تلك الجماعة المنافقة السابحة فى ضلالها ، الفالسة فى ايمانها ، المتلاعبة بدينها ، المحتارة فى اختيار طريقها، العاجزة فى تحديد اتجاهها،فحال هؤلاء فى نفاقهم كحال من أوقد نارا لينتفع بها مع قومه ، فلما أنارت ما حوله من الاشياء ذهب الله بنورهم،وترك الذين أوقدوها قصد الانتفاع بها فى ظلمات كثيفة لا يبصرون شيئا مما حولهم من الكائنات ، لأن الله قدم اليهم أسباب الهداية فلم يتمسكوا بها ، فصارت بصائرهم مطموسة ، فاستحقوا أن يبقوا فى الحيرة والضلال جزاء نفاقهم وكيدهم للمسلمين ٠ ويكفيهم عقابا انهم أصبحوا كالصم ، لانهم قد فقدوا منفعة السمع ، اذ لا يسمعون الحق سماع قبول واستجابة ، وهم كالبكم الخرس ، لانهم لا ينطقون بالهدى أو الحق ، وهم كالذين فقدوا ابصارهم لانهم لا ينتفعون بها فى اعتبار و انزجار ، فهم لا يرجعون الى الحق ، ولا يؤوبون الى الرشد ، ولا يهتدون الى النور ، لانهم اختاروا الضلالة على الهدى ، والنفاق والبهتان،على ما جاء به الرسول من سنة وقرآن ، فكان اختيارهم هذا شؤما عليهم ، ومثارا لاتعابهم ، وقد نبه الله رسوله والمؤمنين الى ان يحترسوا من هذه الفئة الضالة ، وان لا يغتروا بها أو بمظهرها وان لا ينخدعوا بأكاذيبها وتمويهها ٠

وفى هذا المثل العضة البالغة والاعتبار ، لمن تذكر واعتبر من أولى الابصار ، كما أرشد الله سبحانه وتعالى الى ذلك فقال : (**ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون**) وقال:(**هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولوا الالباب**) وقال:(**فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين**) ٠

اللهم أعنا على معرفة طريقك المستقيم، واهدنا الى سواء السبيل، واعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ٠

توضيـــح حـــول نشر محـاضرات الملتـــقى

ننشر هذه المحاضرات طبقا لمبدأ نشر كل محاضرات الملتقى الذى أعلنا عنه فى العدد الاول من « الاصالة » تعميما للفائـدة ، ولطلب الكثير ممن تصلهم المجلة ولا تصلهم كتب الملتقيات .

وقدقررنا أن ندرج فى كل عدد على الاقل مقالين .

ونرجو أن يكون السادة الاساتـذة الذين أرسلوا الينا بمقالات لم نصل بعد الى نشرها وعاتبونا على نشر القديم المتمثل فى هذه المحاضرات من ملتقيـات سابقة،وترك الجديد من الانتاج ، قد فهموا الآن قصدنا مـن هـذا .

كما سندرج فى المستقبل فى كل عدد ، بانتظام ، نصا أو نصين من المحاضرات التى درجت الوزارة على تنظيمها خلال القطـر منذ سنوات باسم المركز الثقافى الاسـلامى .

موقف الاسلام من العقـــل

الاستاذ كمال التارزى
مدير الشعائر الدينية والتعليم الدينى
لدى رئاسة الحكومة ــ تونس

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمـد اشرف المرسلين

حضرات الفضلاء العلماء ،

سيدى وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ،

سيداتى سادتى • • أبنائى بناتى :

انى لاشعر بشرف كبير عندما دعيت من طرف حكومة شقيقـة اكبرنا جهادها وبطولة شعبها واستماتة ابنائها للتخلص من الاستعمار وأكبرنا حماسها وجهدها فى تشيد نهضتها ، وتركيز دعائم سيادتها وبناء مجدها ، وان تنظيم مثل هذا النوع من الملتقيات من طرف رجال عرفناهم جنودا فى الثغور يستميتون للدفاع عن الجزائر العربيـــة المسلمة ، وأبت همتهم الكبرى الا أن يستمروا للدفاع عن الجزائـر العربية المسلمة ، وأبت همتهم الكبرى الا أن يستمروا فى نوع جديد من الجهاد ، حتى يركزوا دعائم هذا الاستقلال على أسس ثابتة (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) أمثال صديقنا الاخ مولود قاسم وزيـر التعليم الاصلى والشؤون الدينية، والاخ أحمد طالب الابراهيمى وزير الثقافة والاعلام • قلت ان تنظيم هذا النوع من الملتقيات ليبعث فى نفوسنا الامل لان ينتهى هذا اللقاء بنتائج ايجابية تتقوى بها الثقافة الاسلامية فى هذه الديار ، وتتعزز بها صفوف الحركات الاسلامية الاخرى ، وان ما سمعناه من السيدين الوزيرين من توجيهات مركزة حول مسائل جوهرية من التفكير الاسلامى ، هى من مشاكل الساعة والتى لا تهم الشعب الجزائرى فحسب ، بل تشغل بال جميع المفكرين فى كافة أنحاء العالم الاسلامى ، لمما يبعث على التفاؤل بمستقبـــل

(*)محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ــ 10/19 اوت 1970 م•

الثقافة الاسلامية فى البلاد العربية والاسلامية . وان ما شاهدناه فى هذا الملتقى فى أوساط الطلبة من جدية فى تتبع المحاضرات ومناقشة المشاكل التى يعيشونها ، واهتماما بالمواضع التى أختيرت لحل هذه المشاكل القريبة أو البعيدة ليبعث فى نفوسنا الامل على اننا أصبحنا بهذا الاتجاه نسير شيئا فشيئا نحو الطريق المستقيم يستجيب لرغبات الامة الاسلامية فى حفظ دينها وتراثها وأمجادها ، ويحقق الاطمئنان فى نفوس الشباب والاجيال الصاعدة .

وسوف تكون هذه الكلمة المتواضعة التى اخترتها بعدما اطلعت هنا فى الجزائر على عناوين محاضرات هذا اللقاء حول واحدة من مجموع تلك المشاكل التى يجب أن تحضى بعناية المسؤولين والمربين فى ميادين الثقافة الاسلامية والفكر الاسلامى ، وموضوع هذه الكلمة هو «موقف الاسلام من العقل ، وأثر ذلك فى التطور والتجديد» وسوف لا تكون هذه الكلمة دراسة شاملة لجميع جوانب هذا الموضوع الطويل الذى كتبت فيه الكتب ، وألقيت فيه المحاضرات ، وعقدت حوله الملتقيات ، بل مجرد أفكار سأحاول أن أركز فيها اهتمامى حول بعض المسائل أشعر بخطورتها فى هذا الموضوع .

أيها السادة :

ان الدين يدعوا فى نصوص كثيرة من القرآن والسنة العقل الانسانى الى التفتح والنمو والتحرك حتى يبتعد عن الخرافات والاباطيل ، ويتمكن من النظر فى هذا الكون وما حوله فيدرك الحق ، ويتمتع بنور الله وهدايته ، وتنكشف له أسرار الحياة والازول ، ذلك انالانسان بفطرته السليمة محمول علىاتخاذ عقائد لدينه يطمئن اليها ويهتدى بنورها،ولكن كثيرا من المتدينين انحرفوا عنالفطرة السليمة واتبعوا أهواءهم،ومالوا مع شهواتهم وقلدوا آباءهم،وقادة أديانهمبدون نقد ولا تمحيص فضلوا وأضلوا حتى جاء الاسلام فأراد أن يرجع الفطرة الى أهلها فحرم على أهله هذا الضرب من العقائد الزائغة وشرط أن يكون أساسها العقل وسندها الدليل وحكم العقل فى مظهر من مظاهر السلوك الانسانى ، ولاجل أن يرفع طريق العقل الخالص على ما يعترضه من العوائد الوهمية أنحى بالائمة على مبدأ التقليد فنقضه وعلى أصل تقديس القديم فهدمه ، ونص على الواقفين مع هتين العقبتين فقال : « **واذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول**

قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » ، وهذا الاتجاه في الاعتماد على العقل لا عهد للانسانية به الا في العلوم الكونية ، فليس على المسلم بموجب الاصل الاسلامي أن يتناول عقيدة بدون أن يحكم عقله فيها ويدلل عليها حتى ساغ لاصحاب الأصول من المسلمين أن يفرضوا أن ايمان المقلد لا يقبل منه ، لان العقل من صفاته التمييز لان صفات التمييز بين الحق والباطل ، والحسن والقبيح ، والخير والشر كما أناطوا التكليف في جميع الفروع الشرعية بالعقل فاذا تعطل فلا تكليف ، ولهذا وصف الاسلام بأنه دين الفطرة اذ هو يتماشى مع النظام الذى أوجده الله في كل مخلوق كامل فهو يساير مقومات الانسان الجسمية والعقلية في آن واحد ، بل يعمل على تقويتها وبروزها حتى تقوم بواجبها الفطرى فلا يعطل غريزة ولا يقف سدا أمام الطاقات الفطرية بل يقوى فيها نوازع الخير ، ويكشف عما في الحياة من نفع وضر وبذلك امتاز الاسلام على غيره من الاديان ، لانه دين العدل بين مطالب الروح ومطالب الجسد ، فهو لا يأمر الآخذ به أن يحرم نفسه من متعة مادية ولا ملذة جسدية ما دام يتناولها عن طريقها المشروع وبحدها المعتدل حتى أن أكثر الآيات القرآنية التى تحض على نيل منزلة روحية ، تحض في آن واحد على نيل مكانة مادية ، الله سبحانه وتعالى يقول : « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما احسن الله اليك** » فانّ انحرفت النفوس عن الفطرة عمل هذا الدين بتشريعاته الجالية على وفق ما يدركه العقل ويشهد به ليرجع تلك النفوس الضالة الى حضيرة الفطرة السليمة ويهدى الى اتباع الطريق المستقيم ، قال تعالى : « **فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون** » ، والفطرة المرادة في قوله تعالى : « **فطرة الله التى فطر الناس عليها** » هى كما عرفها شيخنا العلامة الطاهر بن عاشور هى الحالة التى خلق الله عليها عقل النوع الانسانى سالما من الاختلاط بالعادات الفاسدة ، والاوهام والاباطيل ، صالحا لصدور الفضائل عنه كما شهد به قوله تعالى : « **لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ، فالتقويم المراد في الآية انما هو تقويم العقل الذى هو مصدر العقائد الحقة والاعمال

الصالحة وأن المراد برده : (أسفل سافلين) انقال الناس الى اكتساب الرذائل بالعقائد الباطلة والاعمال الذميمة ، واذا كان العقل السليم هو طريق الاهتداء الى العقائد الحقة والمنهج الصحيح بادراك معنى الخير والشر والحق ، والباطل ، والحسن ، والقبيح ، فان دور الدين فى تقرير هذه المعانى هو المحافظة على الفطرة السليمة ، وابراز المعانى المثالية وتحقيق الحياة الفاضلة واحاطتها بالثواب والعقاب لان العقل وان كان من صفاته التمييز بين الحق والباطل ، والحسن والسيىء ، لكنه فى حاجة الى نور خارجى يهتدى به وتظهر له الامور على ماهى عليه فى الواقع ، وتقيه شر الانحراف وتبعده عما ركن اليه من الاهواء والشهوات والاباطيل ، وللعقل والفكر منزلة سامية فى القرآن ، الله كرم ابن آدم بما أعطاه من عقل وحمله الامانة التى أبت السماوات والارض حملها ، واختاره للخلافة فى الارض لما له من قوة التمييز والادراك والحكم ، أما عدم التدبير فهو جمود وانغلاق ، والله تعالى يقول : « **افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها** » ، ولذلك جاءت الدعوة الاسلامية تحمل حملة واحدة على ما كان عليه الناس من عقائد ومقاييس للخير والشر حتى يتأملوا وينظروا هل فيما اعتبروه عقيدة يصح أن يكون عقيدة حقة أم فيما أعتبروه تقليدا ماهو جدير بأن يؤخذ به ويحافظ عليه ، وهل فيما اعتبروه شر هو شر فى نظر الحق ، وكانت هذه الدعوة التى نادى بها الاسلام دعوة واقعية أساسها المعرفة ، تلك المعرفة التى تعتمد على العقل ، ولا تنعزل عن الواقع الحسى ، لان جميع المدركات العقلية عنده تستند الى المداركات الحسية ، اذ علم الانسان ليس مصدره العقل فقط ، بل العقل المعتمد على المشاهدة الصحيحة والاختبار ، لان العقل لا يستطيع أن يقوم بوظيفته من التفرقة بين الامور الفاضلة وغير الفاضلة والشؤون النافعة والضارة الا اذا ارتكز على أمرين أساسيين هما :

اولا : المعارف بجميع فروعها ،

ثانيا : التجارب على اختلاف أنواعها ،

لان العقل الخالى من العلم والمجرد من التجارب يتعقل الاشياء تعقلا ساذجا ، ولا يميز بين الحسن والقبح الا تمييزا سطحيا ولذلك تباين الناس فى عقائدهم وشرائعهم ومبادئهم على النحو الذى هم عليه اليوم .

ومن أجل هذا حث الاسلام على وجوب طلب العلم ، قال تعالى : « **هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** » ، وصرح بأن بين المؤمن الجاهل والمؤمن العالم درجات فقال تعالى : **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** » ، قال البيضاوى : يرفع الله الذين آمنوا منكم بالنصر وحسن الذكر فى الدنيا وايوائهم فى غرف الجنان فى الآخرة ، وقال فى قوله تعالى : « **والذين اوتوا العلم درجات** » ويرفع العلماء منهم خاصة درجات بما جمعوا من العلم والعمل فان العلم مع علو درجاته يقتضى العمل المقرون به مزيد الرفعة ، ولذلك يقتدى بالعالم فى أفعاله ولا يقتدى بغيره ، وفى الحديث الشريف قال (ص) «**فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب**» ، وكلما انحرف الناس عن الفطرة السليمة وحادوا عن الجادة وانطمست فيهم البصيرة بعث الله رسلا من حين الى حين ليرجعوهم الى الجادة وعبادة الله ، قال تعالى : **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** » ، وتتابعت الرسالات وسايرت التطور البشرى فكان الرسول يبعث الى قومه يختصهم بدعوته ويرشدهم بهديه ، قال تعالى : « **لقد أرسلنا نوحا الى قومه ، والى عاد أخاهم هودا ، والى ثمود أخاهم صالحا ، والى مدين اخاهم شعيبا ، وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ، ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملائه ، واذ قال عيسى بن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول الله اليكم** » ولما تطورت البشرية فى بوتقة العقل والآداب بعث الله محمدا (ص) بدين الاسلام الى الناس كافة يهدى للتى هى أقوم فى جميع مسالك الحياة وينظم حياة الانسان فى مختلف أجورها وعامة نواحيها ، قال تعالى : « **قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا** » ، ولهذا يعتبر الامام الغزالى الانبياء أطباء العقول وله فهم خاص لكلمة الميزان الواردة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : « **الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان** » ، فهو يفهم انها ميزان الآراء ويرى أن الوحى لا بد أن يشتمل على ميزان يميز بين الحق والباطل ، وقد خص الغزالى كتابه «القسطاس المستقيم» لبيان ان القرآن قد تضمن أشكال القياس المعروفة ، وكان من الطبيعى الا يحكم هذا الدين الخالد الا الى العقل والمنطق والعلم ، اذ هو آيات

بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ، واذا نظرنا الى مصدرى التشريع الاسلامى وهما الكتاب والسنة نلاحظ مدى اهتمام هذين المصدرين بالعقل والفكر ، أما القرآن فمن سماته انه لفت أنظار الباحثين من المسلمين وغيرهم الى شدة العناية بالعقل ، فقد دعا القرآن الكريم بطريق مباشر وغير مباشر الى تعظيم العقل والرجوع اليه ، كما تناول مسائل العقيدة او التكاليف او التشريعات او المواعظ ، بينما تشير كتب الاديان الكبرى الى العقل بكامل التحفظ ، فالقرآن لا يذكر العقل الا فى مقام التعظيم والتنبيه الى وجوب العمل به والرجوع اليه ويشير القرآن الى العقل بمعانيه المختلفة مستخدما فى ذلك الالفاظ التى تدل عليه أو تشير اليه من قريب أو بعيد عن : التفكر ، والفقه، والذكر ، والرأى ، والتدبير ، والقلب ، وأولى الالباب ، الى غير ذلك من الالفاظ التى تدور حول الوظائف العقلية على اختلاف معانيها وخصائصها ، وأرى من المناسب أن نلقى نظرة احصائية على عدد الكلمات الموحية أو الدالة على العقل فى القرآن حتى تعطينا صورة واضحة عن هذا الموضوع لاعتقادى ان عمليات الاحصاء أصبحت فى هذا العصر من الدعائم التى يرتكز عليها الحكم على الاشياء فى البحث العلمى ، وأهم هذه الكلمات هى العقل : وردت هذه المادة بصيغة المضارع فى خمسين (50) آية من القرآن • التفكر : وردت مادة التفكر فى سبعة عشر آية من القرآن•التدبر : وردت بصيغة المضارع فى أربع آيات • أولى الالباب : وردت كلمة أولى الالباب فى ستة عشر آية بصيغ مختلفة كقوله تعالى : « **وهيء لنا من أمرنا رشدا** » الحكمة : وردت كلمة الحكمة فى ستة عشر آية • الفقه : وردت كلمة الفقه فى عشرين آية • مذكر : وردت كلمة مذكر وهى من صيغ الذكر أو التذكر ست مرات فى القرآن • الرأى : بمعنى التفكر ويزيد عدد الآيات التى وردت بهذا المعنى عن الثمانين • العلم : وردت كلمة العلم فى القرآن فى أكثر من خمسمائة آية ، وليس المفهوم بها علم خاص وانما قصدت بها كل علم نافع يفتح آفاق العقل ويمكن الانسان من ادراك الحق •

هذه بعض الالفاظ التى وردت فى القرآن الكريم لها صلة وثيقة بالعقل والتفكير ، وهى فى مجموعها تقيم الدليل بطريقة محسوسة لا شك فيها ولا غبار عليها ، ان الشريعة الاسلامية استطاعت أن

تؤاخى بين الدين والعقل وان تجعل من هذه الفطرة فطرة مستقيمة سليمة .

أما موقف السنة من العقل فقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن الرسول (ص) جمعها الامام الغزالى فى كتابه «احياء علوم الدين» فى باب شرح العقل ، ولا نتكلم فى أسانيد هذه الاحاديث فان ما ذكرنا من الآيات القرآنية يساعد المعنى الذى اتجهت اليه صحت هذه الاحاديث أم لم تصح ، فمن هذه الاحاديث ما رواه أبو أمامة وأبو معين عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله (ص) : **اول ما خلق الله العقل ، فقال له أقبل فاقبل ؛ ثم قال له أدبر فادبر ، ثم قال الله عز وجل وجلالى ما خلقت خلقا أكرم على منك ، بك آخذ وبك أعطى وبك أثيب وبك أعاقب»** ، وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله (ص) : «**لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله ، فبقدر عقله تكون عبادته ، أما سمعتم قول الفجار فى النار : «لو كنا نسمع او نعقل ما كنا فى اصحاب السعير** » ، بتلك الآيات القرآنية وما جرى مجراها من الاحاديث النبوية الشريفة والهدى المحمدى تمكن الاسلام من أن يوجه العقل الى التفكير والى التأمل والتدبر حتى تزول الحجب الكثيفة التى تحول بينه وبين الرؤية الصحيحة فى الاشياء ، وأمكنه كذلك أن يبعث أمة جديدة تعتمد العقل والتفكير والبحث وتستخدمها فى مختلف شؤونها الحياتية ، فتفتحت بذلك أمامها آفاق غير محدودة فى هذا العالم الكبير، وكيف يتعارض الاسلام مع العقل وهو يشتمل فى جملته على ثلاث شعب رئيسية :

أولها : العقائد :

ثانيها : محاسن الآداب والاخلاق ،

ثالثها : الاعمال المتعلقة بأفعال المكلفين .

أما العقائد وقد أسسها الاسلام على أوطد الدعائم وأعلى المثل فى التوحيد الخالص ، والالوهية الحقة مثبتا بذلك وحدة الالوهية ومبطلا التعدد ، قال تعالى : ((فاعلم أنه لا اله الا هو)) ، وقال : « **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا** » ، وهكذا اهتم القرآن بأمر العقيدة فوصف الله تعالى بكل كمال ونزهه عن كل نقص ، كما اهتم بما وراء هذه الحياة من حياة أخرى وما فيها من ثواب وعقاب ، قال

تعالى : « **يومئذ يصدر الناس اشتاتا ليروا اعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** » .

أما محاسن الآداب ومكارم الاخلاق فقد عنى بها الاسلام عناية شديدة وطلب الى المسلمين أن يتخلقوا بأخلاقها ويخالطوا الناس بأحسنها وأجملها وان يكونوا جميعا أمثلة حية وصورا ناطقة بالعدل والاحسان والوفاء بالعهد والصبر فى الشدائد والعفو عند المغفرة ، وما الى ذلك من الخصال الجليلة ، وهذا النمط العالى من التهذيب الكامل والادب السامى لا يمكن أن يتناقض بحال مع العقل لانه هو عين الفطرة السليمة .

وأما ثالث الشعب : وهى الاعمال المتعلقة بأفعال المكلفين فقد شرع الاسلام منها ما كان خير مظهر من مظاهر الانقياد لله تعالى وأكفل وسيلة لمساعدة الفقراء والمعوزين والترفيه عنهم،والمساهمة فى مصالح المسلمين العامة ، والقيام بأعباء ما تتطلبه حالة الجماعة ، فلا غرو ان الاسلام فى كل ناحية من هذه النواحى الاساسية الثلاث قد أتى بأرقى النظم ورسم أعلى المثل ووضع خير الاسس موافقة لطبيعة العمران وروح الاجتماع وهذا أيضا لا يمكن أن يتناقض بحال مع العقل لانه يتماشى مع الفطرة السليمة ، والله سبحانه وتعالى يقول : « **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى** » ، وقد أحيطت كل المعاملات فى الاسلام برباط أخلاقى من العدل والتيسير والرحمة ودفع أسباب التشاحن والبغض وربط أفراد المجتمع برباط المحبة والتعاون على البر والتقوى ، لا على الاثم والعدوان .

ولجميع هذه الاعتبارات المتعددة اعتبر العقل من المصالح الضرورية فى الاسلام تلك المصالح التى لا يستقيم عمران الكون وازدهاره ورقيه الا بها ، فكان حفظ العقل ثالث المقاصد الضرورية التى عناها الشارع بعد حفظ الدين والنفس ، ولذلك أوجب علينا تنميته بالتمرين والتفكير الصحيح وصقله بالتوجيه السليم حتى تتكون له قوة التمييز بين الحق والباطل ، وقوة التفريق بين الحسن والقبيح، كما أوجب علينا من ناحية أخرى حمايته من كل ما يدخل عليه خللا فى سيره أو اضطرابا فى عمله ، لذلك حرمت الشريعة شرب الخمر وتعاطى المخدرات وبيعها وترويجها لان الخمر مذهب للعقل ، محطم لآلة التمييز عند الانسان .

واذا اقتنعنا ان الدين يعتمد على العقل الصحيح في جميع أحكامه وتوجيهاته ، بل هو يفتح أمام العقل آفاقا بعيدة للتطلع والاستطلاع ، ويكشف له جوانب الحياة للبحث والدرس ، ويدفعه دفعا الى التجديد والابتكار ، فهل يسوغ لنا بعد ذلك أن نعتبر أن الاسلام دين جامد كبقية الاديان ؟ وهل يصح بعد ذلك أن نشك في كونه يستطيع أن يساير التطور البشرى وانه يساير كل ما يحقق سعادة الانسان وكرامته، وانه لا يعرقل سير تقدمه،لان من خصائص هذا الدين الدعوة الى كل ما يحقق سعادة الانسان وكرامته ليتبوأ مركز خلافة الله في الارض ، ومع الاسف الشديد فان كثيرا من شبابنا من طلاب الجامعات او من غيرهم الذين أغشتهم حضارة الغرب وتقدمه الصناعي والمادى وفكروا في التخلص من رواسب الماضي أصبحوا يتساءلون : هل ان الشريعة الاسلامية تستطيع أن تواجه تيار التقدم المادى في عصرنا الحاضر ؟ هل انها شريعة الحياة تستطيع أن تحقق للانسان سعادته في الدنيا كما وعدته بسعادة الآخرة ؟ أو بالاحرى هل الاسلام قابل للتطور والتجديد ؟ ما دمنا نرى ان الحياة قد تطورت في جميع مظاهرها وان رواسب العهد الماضي قد أخذت تتقلص شيئا فشيئا ، وهنا يجب على كل رجال الفكر الاسلامى ألا يبقوا متفرجين ، فعليهم أن يعالجوا المشكل من أساسه، ويواجهوا هذا الخطر بما يستحقه من عناية وحكمة ، لأن التطور سنة من سنن الله تعالى ، وهو قانون من قوانين الحياة التى لا مفر منها والتى تجرى علينا وان لم نرد ، فالخير ان نريد هذا ونعمل له جادين ، وان نوضح ضوابط التطور في الاسلام وأماكن التجديد منه حتى نمنع عبث العابثين ونقطع دابر المفسدين ، فالتطور في التشريع هو حركة الانسان المستنير القادر على ابتكار أحكام لحوادث جديدة ملائمة والظروف التى تمر بتطور الزمان مستندا الى كتاب الله وسنة رسوله ومبادىء الاسلام العامة ، وهو ما سماه الفقهاء من قبل: «الاجتهاد» وهو الموضوع الذى حلله بعض المحاضرين من قبلى ، فليس التطور اذن هو تغيير الدين ، أو التحول عن مبادئه وأهدافه القارة ، أو التبعية لجميع التيارات الفكرية أو المادية ، أو الذهاب مع الاهواء والشهوات ، لان هذا لا يسمى تطورا أو تجديدا بل يسمى هدما وتحللا وتفككا وذوبانا ، وموتا والحادا ، واذا كانت الاحزاب

السياسية والمذاهب الاجتماعية الكبرى الموجودة فى العصر الحاضر لا تقبل التحول عن الاهداف والمبادىء التى رسمتها لنفسها ، ولا تبيح لأى شخص من أتباعها الانفلات عما يسمونه دستور الحزب ، ويعدون كل من تحدثه نفسه بمخالفة بعض فصوله أو مبادئه، منحرفا أو منهدما أو مهدما ، وتعقد له المجالس التأديبية مع العلم أن كل ما فى هذه الدساتير موضوع من طرف عقول خاصة متأثرة بالزمان والمكان والظروف والتيارات ، وكيف يسوغ لنا أن نبيح لمن لم يدرس الاسلام أن يتطاول علينا ؟ ولمن لا يشم له رائحة أن ينتقده أو ينتصب له خصما أو معارضا تحت ستار حرية الفكر ودعوة التطور والتجديد ومحاكمة العقل ، فيجب أن نتفق أولا لا فى هذا المستوى فحسب ، بل حتى فى المستوى الادارى والحكومى ، على أن احترام الدين أمر واجب لانه عقيدتنا وشريعتنا فلا يجوز فيه الا من كان عارفا به ، عالما بأحكامه ومبادئه ، مدركا لأحكامه الصريحة الواضحة التى دلت عليها نصوص القرآن والسنة ، والاحكام الاجتهادية المبنية على علة متبدلة أو عرف متغير أو تحقيق مصلحة او دفع مفسد ٠

فميدان التطور والتجديد لا يمكن أن يتناول كل ما جاءت به الشريعة الاسلامية من مبادىء وأحكام ، لان العقيدة مثلا وهى قائمة على العقل لا مجال للتطور فيها اذ هى مؤسسة على مبادىء ثابتة ، وحقائق لا تقبل التغيير والتبديل بحال ٠ الايمان بوحدانية الله مثلا مبدأ أصيل وحقيقة يقينية لا مجال لتغييرها ، والعبادات كذلك كلها قربات لله تعالى ، وقد حدد الله بواسطة الوحى وعمل النبى (ص) الطرق التى يرتضيها من المسلمين فى تقربهم اليه ، فتغييرها يعتبر خروجا عما رسمه سبحانه من الطرق الخاصة التى ارتضاها لعباده ، أما أحكام المعاملات والاحكام الدستورية فان مجال الاجتهاد فيها مفتوح فيما لا نص فيه لان الوقائع والحوادث لا تنحصر ، والادلة التى وردت فى الكتاب والسنة أو نص عليها العلماء منحصرة، وأما تقرير حكم الله فيما سيحدث من المسائل لا يمكن أن يبت فيه الا اولوا العلم من المسلمين ، المخلصون فى دينهم ، الذين يعملون على أن تكون شريعة الله حاكمة لا محكومة ، وموجهة لا موجهة ، وهادية لا مهدية ، والله تعالى يقول : « **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت**

وسلموا تسليما » ، ومجال هذا العمل الفسيح الذى بقى أمامنا يحتاج بدون شك الى استخدام قوة العقل التى وهبها الله لنا فنكون بالاعتماد عليها ناظرين كما أمرنا الشارع باحثين فى الاحكام ومناطها ونصوص ومجالات تطبيقها ، والمستحدثات وما يليق بنا فى دستور الشريعة الاسلامية من وجهات النظر التى تحقق مصلحة الامة الاسلامية وتدرأ المفاسد عنها ، وليطمئن شبابنا فاننا لسنا ممن يقول بغلق باب الاجتهاد ما دمنا قد قررنا أن الاسلام يدعو الى العقل واعمال الفكر فان باب الاجتهاد مفتوح على مصراعيه ، وشريعة الاسلام متطورة ، والذى أعتقده ان الاجتهاد اليوم أيسر منه فى العصور السابقة اذ ضبطت قواعد العربية ودونت الاحاديث وفسر القرآن الكريم ، ونشرت الكتب بين الناس ، وأصبحت فى متناول كل باحث ، ولو قارنا حالتنا اليوم بما كان يتكلفه العلماء من رحلة وقطع مسافات لجمع الحديث وروايته أو الرجوع الى القبائل العربية لفهم لفظة أو تصحيح اعراب بما نملكه من امكانيات ثقافة اليوم لقلنا من غير شك ان الفقيه اليوم أقدر على الاجتهاد مما مضى .

والواقع أيها الشباب أن باب الاجتهاد لم ينغلق ولكن الهمة العلمية فقدت وزهد الناس فى التبحر فى هذه العلوم ، وفقد العالم القادر على غوص غمار التشريع الاسلامى ، وهذا هو الذى دفع ابن قيم الجوزية والمراغى الى القول بأن الاجتهاد يتجزأ وهو الذى دعا اليه علامتنا الشيخ الطاهر بن عاشور فى كتابه «المقاصد الشرعية» منذ ما يزيد عن أربعين سنة وسماه «الاجتهاد الجماعى» لان ما اتسم به هذا العصر من الاختصاص يدفعنا على أن ينكب جماعة من العلماء الثقاة يكمل اختصاص كل واحد منهم اختصاص الآخرين وينكبوا على المسائل المستحدثة دراسة وتتبعا واستنباطا ، وهذا يستجيب فى نظرى لمطالب الحياة والتطور السريع الذى يجرى فيه العالم الاسلامى اليوم ، وهذا تقريبا هو ما يقوم به مجمع البحوث الاسلامية بالازهر الشريف منذ ست سنوات تقريبا فقد أفتى هذا المجمع فى عدة مسائل كالتامين ورؤية الهلال وتوحيد الشهور ، وهو نفس المبدأ الذى حاولته دولة ماليزيا فى مؤتمرها الاسلامى الدولى الذى انعقد فى السنة الماضية فى مدينة كوالا لمبور . .

وبهذا نعلم ـ أيها الاخوان ـ ان الذى ينقصنا هو المجامع العلمية

التى ستخرج هذا النوع من العلماء ، وينقصنا اخبار النخبة على هـذا النوع من التعليم ، وتحمس الحكومات الاسلامية للعمل بالتشريـــع الاسلامى حتى يكــون دين الــدولة فى الحيــاة وفى الخــارج ، وفى اعتقادى ان هذا اللقاء وأمثاله من اللقاءات فى البلدان الاسلاميـــة الاخرى سيعمــل من غير شك على ازالة الشبهات أمام الشبــاب ، وسيدفعهم حتما الى مراجعة موقفهم من التفكير الاسلامى ، ومستقبل الحضارة الاسلامية ، فعلى الحكومات الاسلامية أن تراجع اختياراتها فى الثقافة والتعليم حول البرامج الدينية من المدرسة الابتدائية الى الجامعة ، وحول المربى والواعظ وامام الجمعة والاذاعة ، والتلفزة ، والمسرح ، والسينما ، والنوادى ، والملتقيات وكل وسائل الاعلام لان كل هذه الاشياء مجتمعة تكون المجتمع الاســلامى فى نظرى وان كل انحلال او انحراف فى أى عنصر من هذه العناصر يكون له أثــره من قريب أو بعيد في مستقبل تفكيرنا ، فاذا استطاعت اى حكومة اسلامية أن تتحكم فى اختياراتها حسب مبادىء الاسلام الصحيـــح نكون قد حققنا بهذا اللقاء خطوة ايجابية موفقة فى تصحيح التفـكير الاسلامى وتركيز الثقافة الاســلامية ·

والســلام عليكم ورحمــة اللــه ·

وايمانا بان من الواجب الاوكد أن يبقى بلدنا العزيز هذا الغالى المحبوب دائما وأبدا الى أن يرث الله الارض ومن عليها مترشحا بنور العربية والاســـــلام ·

وبعد هذا أحاول على حد تعبير اخوانى المشارقة ، (أحاول على الماشى) يعنى من دون أن يستعد الانسان او يتهيء أو أن يقوم بعملية تجميع لعناصر الموضوع ، ولكن لا أعتقد بأن مؤتمرا مثل هذا يعنى بالتعريف بالفكر الاسلامى لا يخوض ولو بطريقة مختصرة فى وضع الوجه الثانى من هذه العملة الذهبية ، الوجه الثانى للفكر الاسلامى والاسلام ، أعنى به اللغة العربية ، وانا اذ أحاول أن أبذل جهـــدا متواضعا لاحدثكم اليوم بعض الشىء عن مكانة لغة الضاد فى جنــوب شرقى آسيا اذ أحاول أن أعمل هذا ، فبغيتى أن يدرك اخواننا العرب فى المشرق وفى المغرب مدى ما قام به وما بذل فى سبيله اخــوان لنا فى العقيدة اخوان لنا فى الايمان عبر القرون وعبر الاجيال فــى الحفاظ على لغة القرآن وأنا طبعا فى حديثى عن جنوب شرقى آسيا وانتم تعلمون أن جنوب شرقى آسيا هو اصطلاح غربى أطلــق على البلدان التى تمتد من باكستان غربا الى زلندا الجديدة شرقا ويشمل باكستان الغربية ، والهند ، وباكستان الشرقية ، وبورمة وسيلان وتايـلانـد وماليـزية والهنـد واندونيسيا والفليبيـــن واستـراليا ونيوزيلانده ، وهناك مثل الامريكان من يضيفوا اليها حتى اليابان ·

ففى هذه الرقعة الممتدة على آلاف من الاميال توجد هناك أمكنة تعيش فيها اللغة العربية ولها مكانتها ولها قدسيتها ، وذلك لانهـا لغة الاسلام·اللغة العربية هى كما تعلمون ، والاسلام فى ظنى أمران جميلان حسب المشاهدة والاختبـار ، ظل كل منهما عبر القـرون والاجيال يناغم الآخر ويستصحبه بل يستلزمه ولا غرابة فى ذلـك ، لو لم يكن هناك قرآن ولم يكن مثلما قال فضيلة الشيخ أمس بالليل مستشهدا بان الله سبحانه وتعالى تكفل بأن يحفظ الى يوم الـدين ما نزله على رسوله الامين اذ يقول : « **انا نحن نزلنا الذكـر وانا لـه لحافظـــون** »

اذن فبالرغم من الكوارث ومن المهالك التى حلت بالمسلمـين من أواخر القرن الخامس عشر الى أن أهل فجر الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية بالرغم من كل هذا فالعربية والاسلام بقيا على قيـد

الحياة ونراهما اليوم يتمتعان بمنزلة مرموقة ذلك بأن الحكومات والدول والاسر حسب نظرية ابن خلدون والكندى وغيره من علماء الاجتماع أو المؤرخين تزول الا أن كلمة الله (القرآن) باق حى لايموت.

ولا يخالنى أغلو فى حديثى هذا ، وقد أجد سندا مؤيدا لما أقوله الآن وأجمع حوله بحضور عالمين فاضلين من علماء الشام أتيح لهما زيارة أندونيسيا ، وجنوب شرقى آسيا ومنها فضيلة مفتى الديار الشامية الذى منح وكان شرفا له ولنا ولجميع المسلمين دكتوراه فخرية فى حفل بهيج فى جامعة اسلامية من ضواحى جاكارتا، لقد شاهد فضيلته مثلما شاهدت أنا أن دين الاسلام هناك قوى ، وان العربية قد يستلذ الانسان ويستمتع بسماعها فى كل مكان من جنوب شرقى آسيا لاسيما فى ماليزية وفى اندونيسيا ، ومكانة اللغة العربية بما أنها لغة القرآن مكانة يشار اليها بالبنان بالرغم من أن هذه البلاد ذات ثقافة عريقة وذات حضارة مؤثلة وذات لغة قائمة بذاتها لغة انتصرت بعد ان انتصرت البلاد على المستعمر الدخيل وأصبحت لغة المدرسة ولغة الجيش ولغة الحكومة ولغة الادارة ولغة الجامعات الى غير ذلك ، هى اللغة الملاوية التى بحكم اعتناق الملويين والاندنسيين وكلهم من أصل ملوى بحكم اعتناقهم للاسلام فلغتهم تحوى العديد من الالفاظ العربية من الولاية ودائرة الى استراحة الى منفعة الى كرسى الى مائدة الى غير ذلك بصرف النظر عن المفردات والالفاظ الدينية وغير ذلك ، وقد يتساءل سائل عند ما نشاهد مدى حماس اخواننا سواء كانوا من جنوب الفيلبين فى جزيرة (مندوناو) التى يسكنها ما يناهز الاربعة ملايين من المسلمين أو من ماليزيا أو من أندونيسيا أو من باكستان أو غير ذلك عند ما يرى حماسهم واندفاعهم للدفاع عن اللغة العربية ، ومحاولة جعلها لغة عالمية ولغة دولية ، قد يتساءل المرء أو يتساءل العربى لماذا هذا الحماس وهذا الاندفاع لجعل اللغة العربية لغة رسمية فى هيئة الامم المتحدة أو فى هيئة البريد العالمى ، فى منظمة الصحة العالمية،أو فى اليونيسكو خاصة ، ولعلكم تتذكرون بانه بناء على مبادرة جزائرية ، مبادرة قام بها وزير تربيتنا السابق ، الدكتور أحمد طالب اذ تقدم باقتراح ، بمجرد انضمام الجزائر الى هيئة اليونيسكو بجعل اللغة العربية لغة رسمية فصودق على هذا الاقتراح ـ وأكثر الذين تولوا الدفاع عنه

باستماتة وصدق واخلاص ليسوا هم العرب اذا ما رجعتم الى الكلمات التى قيلت فى تلك المناسبة ، بل هم الفرس ، هم ممثلوا الباكستان هم بالخصوص ممثلوا اندونيسيا وماليزيا ؛

فهؤلاء الناس مؤمنون ايمانا لا يرقى اليه الشك بحكم اسلامهم وما داموا مسلمين فهم لا يتصورون الوجود الا مبنيا على مفاهيم الاسلام ولا يمكن بأى وجه من الوجوه مهما كانت حضارتهم السالفة وكنوز تراثهم وغير ذلك ، لا يمكن أن يستمروا أو يصبروا أن يروا الاسلام وتعاليم الاسلام تتوطد وتترسخ وتينع من دون أن يكون هناك لسان عربى مبين ، وهم اذ يفعلون هذا لا يفعلونه بصورة ذاتية ، بل يقومون به عن وعى وبصيرة وارادة اعتقادا منهم أن الحضارة العربية الاسلامية التى ينتمون اليها ، والتى هم من حملتها اذا ما أرادوها أن تنتصر وتحتل مكانتها فى العالم من جديد بعد ان حاول المستعمرون وحاولت السيطرة الغربية فى شتى صورها وأشكالها أن تجتثها من الاصول ، هم يعتقدون اعتقادا جازما بان دفاعهم عن اللغة العربية واعمالهم المخلصة فى سبيل احيائها هو عمل شريف بغية احياء الحضارة والثقافة العربية الاسلامية ·

قد يظن ظان بمراجعته للتاريخ أن العرب لاسيما الحضارمة الذين نشروا الاسلام هناك والعربية ، يظن ظان بانهم عند ما حلت بهم الكارثة وغزاهم البرتغاليون والاسبان ، وغزو البرتغال والاسبان كما تعلمون ما هى الا عملية صليبية جديدة ، كانت ترمى الى القيام بحركة التفاف استراتيجية حول الجناح الاسيوى من الدولة الاسلامية وانكم تذكرون جيدا وهذا لم يكتبه عرب ولا مسلمون بل كتبه من لا يكن كثيرا من العطف على الاسلام ، مثل الهندوس وغير ذلك ، تذكرون بان أول ما احتل البرتغاليون شبه جزيرة (ملقة) أول عمل اقدموا عليه هو جمع كل من هناك له نسب بالعرب وأجهزوا عليهم الى آخرهم ، وبعثوا برؤوسهم الى أمبراطور البرتغال فى ذلك الوقت، ولكن قتلوا الاجسام وأفنوا الرجال ولكن الغرسة المباركة التى غرسها هؤلاء ومنهم من أجدادنا من سافر بالرغم من المخاطر من المغرب ومن الاندلس ومن شمال افريقيا ، ومنهم من يسمى الشيخ عبد العزيز المغربى الذى نزل فى سنة 1272 ·· على الشط الغربى من جزيرة (ملقة) وهو أول من نشر الاسلام ، والآن فماذا تراه والبذور التى

زرعها لازالت الى يومنا هذا تأتى أكلها ، وما الروح الاسلامية والعقيدة الاسلامية بالرغم مما أصابها وبالرغم مما ذاقت وبالرغم من كل ما شوه بعض جوانبها لازالت هناك حية ولازالت هناك تعمل وهذا ما يفسر لنا حب هؤلاء المسلمين من غير العرب للغة العربية لانها لغة الاسلام ولانها لغة القرآن ٠

فاللغة كما تعلمون ان لم تكن لغة حضارة ولغة ثقافة ولغة فلسفة فاقت الفلسفة التى كانت متطورة جدا قبل الاسلام مثل الفلسفة الهندية والبوذية وغير ذلك ، ولكن صفاء التعاليم الاسلامية ونقاءها ووقعها فى النفوس فى أول الاستماع اليها جعلت كل الفلسفات أو تلك المذاهب تنزوى وتعتزل لانها لا تقوى على مواجهة الاسلام وتعاليم الاسلام وروح الاسلام وزكاء الاسلام وصفاء الاسلام وعطاء الاسلام لان الاسلام والمسلم المتشبع بروح الاسلام علة وجوده العطاء،فهذا كله يفسر لنا لماذا المالزيين ولماذا الاندونيسيين وغيرهم ولماذا حتى أهل الفيلبين فى الجنوب بالرغم من أنهم ولربما هم أبعد الناس شيئا ما عن التعاليم الاسلامية السليمة بالرغم من الكوارث ومن الاستعمار الاسبانى وتذكرون ان الفلبين كانت كلها مسلمة وان حل بها الاسبان ، واما كل الجزر بما فى ذلك جزيرة (لوزن) وهى أعلى وفى المنتهى الشمالى وكانت بوصول الاسبان سنة 1572 م كلها مسلمة بفضل ما يسمى بالاخوة السبعة ، وهم ليسوا بأخوة من صلب واحد أو من أم واحدة ، أو من أب واحد ، وانما كانوا اخوة فى الدين وفى العقيدة الاسلامية ٠٠٠ الى ان وصلوا الى تلك الشطوط وراحوا بسيرتهم وبتعبدهم وبمحاولتهم ، فهم الناس وبتقواهم وبجهودهم فراحوا يعملون على نشر الاسلام ، وهم نشروا الاسلام فى أواخر القرن الرابع عشر على ما أذكر ان لم تخنى ذاكرتى ، فهم يحبون ويجلون العربية ويدافعون عنها ، ويطالبون حكومتهم بأن يكون لهم شيخ من الشيوخ يعنى «سيناتور» فى حكومة مانيلا من الجنوب من مندوناو ، ويطالبون دائما حكوماتهم بأن تؤيد القضايا العربية ، ولا أكشف لكم سرا أو أطلعكم على شىء جديد اذا ما قلت لكم ، فبعد الهزيمة التى حلت بنا فى حزيران 1967 م هناك آلاف من المتطوعين سجلوا انفسهم وأرادوا أن يسافروا للقتال ، لا دفاعا عن عرق أو غيره ولكن دفاعا عن الاسلام وعن عالميته ، فكل هؤلاء الناس مجندون

للدفاع عن الوطن ولكن يعتقدون بأن مصالحهم ومصيرهم مرتبط ارتباطا عضويا بالاسلام والمسلمين ، لا كأفراد مثلما قال لى أحد الاسيويين المسلمين المتضلعين فى اللغة العربية ، لا تظننا أيها السفير بأننا نحب اللغة العربية لانها لغة أبى جهل ولكن نحب العربية ونقدسها ونموت دونها لانها لغة محمد ولغة سلمان الفارسى ولغة بلال.

وهنا عالمية الاسلام L'UNIVERSALISME هذا هو السر حسبما شاهدت وحسبما خبرت وربما يوجد من الافاضل ومن العلماء من أعرف وأدرى منى بالاسلام وانتشاره وغير ذلك ، أعرف وأدرى بكثير ، وربما كذلك قد توصلوا الى نفس النتيجة التى توصلت اليها أنا بجهد متواضع ، فاقول كل هذا لا لألقى عليكم درسا حاشا ماعدا الله،فأنا أعرفكم فأنا أولى بأن أتلقى عليكم كثيرا من الدروس ويعلمنى كثيرا من الاشياء أجهلها جهلا تاما ، وقد تعلمت زيادة على الشىء الضئيل الذى تعلمته من الفقه المالكى أن اخواننا هناك على مذهب محمد بن ادريس الشافعى الذى قال رضى الله عنه كلما تعلمت ازددت علما بجهلى ، فاخوانى ، أقول لهذا ولربما لحاجة فى نفس يعقوب ، أقوله لاننى جزائرى فنحن عرب وعند ما نقول عرب عندنا فهو مسلم بالضرورة ، وعامتنا الى أمد قريب جدا لا تفرق بين العربى والمسلم عند ما يأتى أى أحد بعمل لا يليق يقول «هم ليسوا عرب أم كيف ؟ » يعنى «أليسوا مسلمين ؟» فحبهم هذا للعربية لانهم يؤمنون ومتمكنون منها كل التمكن ويبذلون جهودا جبارة لتعلمها الى جانب لغتهم ، لانها لغة الحضارة ، ولغة التقنية ، ولغة الفلسفة وغير ذلك ، وكثير منهم تعلم عند ما يتحدث وينتقل من لغته الى اللغة العربية ، هم مثل من قال فى حقهم الجاحظ عند ما تصدى للحديث عن أحد الائمة والعلماء فى فارس فى وقت من الاوقات وكان يلقى دروسه بالعربية وبالفارسية ، وينتقل من هذه الى تلك ، ومن تلك الى هذه حتى كان لا يدرى بأى لسان هو أبين ، فحقيقة نجد هناك من اخواننا غير العرب ومن الاسيويين بصرف النظر عن من هم مولدون ومن أصل عربى من فى قدرته وفى امكانه أن يعلمنا لغتنا ، ولا يشك فى صلاحيتها اطلاقا أن تكون لغة العلم ، ولغة الحضارة ، ولغة الثقافة والتكنولوجية ، أو لغة الفلسفة والعلوم والتشريع وغير ذلك ، لا يخامره شك مثلما يخامر ـ والعياذ بالله ـ كثيرا من اخواننا وهم ينتسبون الى العربية،

وأنا أقول مثلما قال أحد المصلحين أعتقد أنه الامام محمد عبده رضى الله عنه قال : أرزء ما يبلى به الاسلام هم المنتسبون اليه ، وأرزء ما يصيب العربية فى كثير من الاحيان هو بسبب المنتسبين اليها ٠

فاللغة العربية بحكم الاسلام كما قلت لكم أيها السادة والسيدات أيها الاحياء لها مكانتها ولها مركزها، وقد يجد الانسان فى أصغر قرية من قرى أندونيسيا وماليزيا من يجيد قراءة القرآن أو شىء من الفقه ، بل كذلك من يجيد اللغة العربية ويتكلمها وكثير منهم من يكتب بها نثرا وشعرا ، ويتلهفون الى ما يصدر من العالم العربى ، وأنا أذكر جيدا بأننى أوزع فى نطاق المطبوعات التى تصلنى من بلدى كالمجاهد الثقافى ومجلة القبس كعدد محدود وكلما وصلت الى احد عرفها الى الآخرين ، وتهاطلت على سفارتنا عشرات الرسائل تطلب أن نزودهم بهذه المجلات ، وبهذه المطبوعات العربية حتى نكون على صلة ، ونكون على بينة من التطور العلمى والعقلى وغير ذلك ، وهذا دليل على مدى اهتمامهم باللغة العربية ، وانكم مثلما شاهدتم بافضيلة مفتى الديار الشامية انه بالرغم من وجود اختلافات سياسية فالشىء الدائم السرمدى الذى لا يمكن لأى أحد أن يفرط فيه هو صلة الاسلام والعربية ، وان كثيرا من الاسر والعائلات يتجشمون صعابا ومتاعب كثيرة ليعلموا أبناءهم العربية وليرسلوهم سواء الى القاهرة أو الى المدينة المنورة ، او الى بنداد ، وأعتقد أن دور ومسؤوليات الحكومات المدينة المنورة ، أو الى بغداد ، وأعتقد ان دور ومسؤوليات الحكومات عن تطوير وعن تدعيم هذه العلاقات لانها هى الدائمة ، أما الحكومات أما الاتجاهات فهى تزول أو تتحور أو تتغير،ومن مصلحتنا نحن العرب وانتصار العربية والاسلام فى تلك الربوع على أيدى عشرات ومئات الملايين هو بلا شك انتصار نبع من معنى ، وبالنسبة لاخواننا الجزائريين أريد أن أروى لكم رواية لانكم أنتم مثل الذين يقولون فى الشرق أو غير ذلك «اذا اردت أن تتعلم الفرنسية روح الى الجزائر» نعم نحن نعرف الفرنسية بحكم ظروف كثيرة ، نعرف الفرنسية تخاصمنا بها وجادلنا بها ودافعنا بها عن انفسنا ، ومن عرف لغة قوم أمن شرهم ، وأنا كذلك طبعا من انصار اللغة العربية ومن المنتصرين اليها بدون تحفظ ، هذا الحديث معروف جدا ، وكالاخ الوزير طبعا والحمد لله ان الرئيس الذى أعطى للغة العربية ووفى لها حقها ولانها

مطلب شعبى ومن اعز أمانى أمتنا وشعبنا ، فبالرغم من هذا كما قلت لكم باننى أنتصر اليها فأنا كذلك من دعاة معرفة اللغات الاخرى لا الفرنسية وحدها بل الانجليزية وغير ذلك ، وتعلمون أن الفرنسى مثل الجزائرى الذى لا يعرف سوى الفرنسية ، أو التونسى أو المغربى المتوسط وجاء الى لبنان ومر على سوريا ووصل الى العراق ، فبحكم معرفته للفرنسية وحدها يصير أميا أوتوماتيكيا أميا بأتم معنى الكلمة فالفرنسيون أنفسهم مضطرون الى أن يتعلموا اللغة الانجليزية أو لغات أهل تلك البلاد حتى يتمكنوا من التفاهم أو من الدفاع عن مصالحهم ، أو من بث دعاياتهم وغير ذلك ، وليس أدل على هذا قبل سنتين كان (طبعا فرنسا بالنسبة لنا دولة أوروبية ولها من الامكانيات مالم يتسن لأى بلد عربى آخر) فالى جانب سفارتها هنا كانت عندها مركز ثقافى فرنسى ، كان عندها مركز ثقافى ، فهم يدعون الناس ويعطون المنح ويعرضون أفلاما ومغريات كثيرة ،ولكن ليس هناك الا بضعة سيدات متحذلقات من الطبقة الراقية تريد أن تتفاصح بشيء من اللغة الفرنسية لانها سمعت أشياء كثيرة عنها ما عدا هذا لا تسمع للغة الفرنسية ولمن يتحدث لك بها لا تسمع لها ذكرا على الاطلاق ، أما العربية فانك تستطيع أن تجد مترجما اذا أردت أن تعمل اعلانا فيترجم لك من العربية الى الاندونيسية أو الهلندية أو الالمانية أو اليابانية ، أما الفرنسية يجب أن تبحث عليه بالمجهر حتى يأتيك وتحصل عليه وفى بعض الاحيان يتساءلون : الجزائر دولة عربية تنتمى الىالامة العربية ولغتها الرسمية الوطنية اللغة العربية فلماذا يبحثون عمن ينقل لهم من الاندونيسية والانجليزية أو الفرنسية وغير ذلك ولكن هذه الدهشة تزول عند ما نشرح ونفسر لانهم ليسوا على اطلاع بما أصابنا فى مدة من الظلام والتسلط الاجنبى طولها كما تعلمون مائة واثنان وثلاثون عاما .

قلت لكم بانه على الرغم من ان العلاقات طيبة فى العهد القديم وفى العهد الجديد ، فاللغة الفرنسية ما كان لها وزن ولا قيمة ولا يحتاجها الناس ، واذن يستغربون كيف يضيع الناس أوقاتهم فى تعلم اللغة الفرنسية ، فمنذ سنة تقريبا عينوا مستشرقا هو معروف ، والحمد لله ، فالمستشرق هذا من المستشرقين الفرنسيين ومن الاساتذة الذين لهم دراية غير قليلة باللغة العربية ، بل كان

استاذا للغة العربية،وهو من تلاميذ «ماسينيون» وكان هنا فى الجزائر ومن المنتصرين للقضايا العربية واثبتت أفعاله ومواقفه انه يكن مودة للغة العربية ، وعلى ذكر يكنون المودة للعربية ، يخطر الى ذهنى بيت من الشعر :

ولا يقتل اللـه من دامت مودتــه

والله يقتـل أهل الغـدر أحيـانا

بالفعل من الامكان استعمال اللغة العربية لغة عمل مثلما تستعمل الفرنسية والانجليزية وغير ذلك ، فأنا لا أعرف شخصيا أعضاء هذه اللجنة التى كلفت وأنيط بها العمل للنظر فى هذه الامور ، ولكن يخيل الى بعد نشر تقريرها بأنها فعلا أراد ت أن تلقى باللغة العربية مـن النافذة بعد أن دخلت من الباب الواسع الى اليونيسكو ، والعربيـة وأبناء اللغة العربية عليهم أن يدافعوا وان يخوضوا معارك للدفاع عنها ولحمل الغير على احترامها ، اننا لا نريد من الغير أن يحبنا لان الحياة الدولية والعلاقات بين الدول وبين البشر ليست مسألة غرام أو خصام نحن لا نريد من أحد أن يحبنا ، بل نريد الاحترام كما نحترم الغيـر فجاءت اللجنة وأصدرت تقريرا بأن العربية تشغل عندما نترجم مثلا . . . واستشهدوا على صحة أقوالهم المزعومة بأن سجل الميزانية للعام الماضى لليونيسكو المكتوب بالفرنسية والانجليزية نقلوه الى العربية وقالوا انظروا الى ما هو موجود فى ثلاثمائة صفحة بالفرنسية او فى مائة وخمسة وسبعين أو ثمانين بالانجليزية لابد من ثمانمائة صفحة بالعربية ـ لا اله الا الله ـ سبحان الذى يقدر أن يجعل الحبة قبة فى لمح البصر ، وهؤلاء طبعا مثل ماليزيا مثل أندنيسيا لهـا ممثلين فى اليونيسكو وغير ذلك ، فالحمد لله أن العرب ما سكتوا عن هذه الدسيسة على هذا الغدر باللغة العربية ، وأعتقـد أنـه قـامت مشاورات وأعمال بين المجمع العلمى بدمشق والمجمع العلمى فى القاهرة وفى بغداد والادارة الثقافية للغة العربية ، ووضعوا تقريرا هادئا لا دعاية ولا تهريج ولا تسويف ، وهذا من علامات الخير بالنسبة للتفكير العربى ، وأثبتوا فعلا بالدليل القاطع الدليل العلمى والدليل العملى بأن ما قيل فى تقرير الخبراء هو افتيات على اللغة العربية وانه اذا سلمنا بأن استعمال اللغة الانجليزية أكثر ايجازا واختصارا مـن الفرنسية ، فاللغة العربية لا من حيث الايجاز ولا من حيث التركيب

ولا من حيث البنية ولا من حيث شغل المساحة لجملة معينة مقابل الفرنسية وبخير مساحتها دائما أضيق وأقل ، فكلماتها وألفاضها مثل الجواهر لا تنتشر يكفيها أن تحتل حيزا ومنه تظهر وتبرز ، ولا يمكن الا أن تراها كل عين ، فوضعوا تقريرا يأخذون فيه وينحون عن اللغة العربية على ما أعتقد وقالوا ثلاث قضايا : قضية طبيعة اللغة العربية وقضية الطباعة باللغة العربية ، وقضية الترجمة والمترجمين ، طبعا يقال أن قيمة الشرائع بقيمة القائمين عليها ، وقيمة الترجمة هى مرهونة بقيمة المترجمين ، فأى واحد قادر أن يترجم وأن ينقل ، وكل واحد قادر على أن يستوعب معانيها ويصبها ويصوغها الصياغة اللائقة وأكبر دليل على هذا ما قاله الاستاذ مالك بن نبى يعرف هذا من المستشرق الانجليزى «جيب» من كتابه «الاتجاهات الحديثة فى الاسلام» فالانسان يحار فى التركيب العربى واللغة القرآنية ، وأعتقد أنه لو جاء شكسبير وغير ذلك على أن ينقل اللغة العربية لا سيما لغة القرآن الى اللغة الانجليزية لعجز كل العجز واستشهد بالآية الكريمة « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » فقال هذا التكرار « **انا نحن نزلنا** » بهذا التكرار ، ولم يقل نحن نزلنا الذكر فقط ، فقال بأن هذا التكرار وهذه الاعادة ، من أوجه الاعجاز فى القرآن الكريم « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » وهذا التكرار له من الرنة وله من المعانى وتنبجس منه أفكار وينبجس منه شيء فريد من الخصوبة للخيال ما يعجز الانسان بالفعل وينحنى اعجابا ان لم يكن ايمانا عاما .

لا أعتقد أن من يجيد لغة القرآن ويعرفها وهو متمكن منها يعجز عن ترجمة سجل ميزانية اليونيسكو فى صفحات أقل من الصفحات التى نشر فيها باللغات الاخرى ففندوها ودحضوها بطريقة علمية مركزة واستشهدوا بأشياء كثيرة كالطباعة مثلا وأوردوا كلمات باللغة الفرنسية وما يقابلها من الكلمات العربية ليتبين بأن الكلمات الفرنسية أطول والمساحة التى تشغلها أضيق من الفرنسية ، ونكتفى بهذا ومن ناحية الطباعة وغير ذلك ، وقالوا فى ختامها ، وهذا الختام هو التقرير الذى تبناه الاندنيسيون ، وراحوا يتداورون فيما بينهم من اندونيسيين وغير ذلك يدافعون عن اللغة العربية ويريدون رفع عقيرتهم ضد من يريد أن ينزل بها الاذى والضرر ويغمط حقها ويستمر فى أجحافها وفى ..نها،وانا ما سمعت عن هذا التقرير ولاسمعت عنه

الا عن طريق اخواننا الاندونيسيين الذين لغتهم الملوية وأصلهـا سنسكريتي وغير ذلك ، وراحوا يدافعون ويستشهدون بفقرات مما جاء في هذا التقرير حتى تعود اليونيسكو عن غيها وتفسح المكان للغة العربية مكانها التي تستحقه عن جدارة • لا يمكن أن يجادل فيه أحد ومن جملة ما نشروه وما علقوه عليه ، وما كان حـديث النـاس في بيوتهم وفي المساجد وغير ذلك هي تلك الفقرة التي تقول : «ومـن هذا كله نخرج بنتيجة واضحة هي أن اللغة العربية تنحو الى الاختصار في بناء كلماتها والايجاز في بناء جملها» وأيا كان الامـر فان هـذه الجملة المركزة التي اكتسبتها اللغة العربية بكلماتها وجملها حتى أصبحت جزءا من طبيعتها تؤدي بالضرورة الى اختصار الزمن الذي يستغرق الاستعمال الشفهي لها حديثا أو خطابة أو ترجمة مثلما تؤدي الى اختصار الحيز الذي يستغرق الاستعمال الكتابي لها باليد أو بالآلة الكاتبة أو المطبعة وغير ذلك وهلم جرا •

وكذلك ركزوا وأنا سمعت بأنهم أثاروا هذه القضية مع لجنتهم الوطنية في اليونيسكوا حتى يبعثوا بتعليمات لمن يمثل أندونيسيا في اليونيسكو ويدافع عن اللغة العربية وعن هذا التقرير وحتى يكفـوا عن الغمز واللمز ، وافتعال الاسباب لابعاد اللغة العربية ع نمكانها واستشهدوا بالخصوص بهذه الفقرة الاخيرة من ذلك التقرير •

وأخيرا ولعل تلك الدراسة التي جمعت بين البحث الاكاديمي والدراسة المقارنة والتطبيق العلمي تقدم الدليل الموضوعي على أن اللغة العربية ذات كلمة موجزة البنية وجملة مختصرة التركيب ، وكتابة قصيرة الحروف وعلى أن لها من الخصائص والصيغ الاشتقاقية وفي استخدام الضمائر وفي استعمال أساليب التعبير ما يفسح المجال للاختصار على نحو قد لا يتسنى لغيرها من اللغات ، ولعلها ان لم تكن لغة اختزال حقيقي فهي على الاقل لغة ايجاز فعلي وعلى أنها ان لم تفق غيرها من اللغات في الوفاء بالتعبير الموجز السريع فلا أقل من ان تسامتها وتقف معها على قدم المساواة وعلى أنها نتيجة لذلك كلـه أصلح ما تكون لغة الترجمة بوجه عام والترجمة الفورية بوجه خاص على المستوى الدولي والعالمي ، يشهد بذلك ويدل عليه خبـرة المؤتمرات الكثيرة التي عقدت في أفريقيا وآسيا واستخدمت فيها اللغة العربية لغة عمل فكانت لا تستغرق وقتا أطول من الوقت الذي

تستغرقه الترجمة الى اللغة الانجليزية أو اللغة الفرنسية ، فهذا كله طبيعي جدا بالنسبة الى لغة لا تزال الحياة تتناولها منذ مـآت السنين بالاستعمال للتعبير عن مطالبها العادية اليومية حديثا وحوارا وخطابا وعن أغراضها العلمية زراعة وتجارة وصناعة وسياسة، وحكما ، وحربا وسلاما • وعن حاجاتها العلمية بحثا وعلما وتفلسفا وعن أنشطتها الوجدانيــة دينا وتصوفا ، وهكذا ركزوا على هذه الكلمة التــى لفتت الانظار فعلا وكانت دليلا على حبهم وعلى تشبثهم وتمسكهم بلغة القرآن وباحياء سلطانها فى العالم ، وهكذا نستطيع أن نرفع الصوت ونطالب عن ثقة واطمئنان عن ضرورة استعمال اللغة العربية لغة عمل لا فى منظمة اليونيسكو وحدها بل فى سائر المنظمات الدولية مؤكدين عن يقين وبرهان أنها من أصلح ان لم تكن أصلح اللغات لاداء هذه المهمة ، هذا ما ركز عليه والحمد لله ولحسن الحظ ان كانت هذه الوريقة معى استصحبتها لانه من الصعب على لان ذاكرتى بـــدأت تخوننى كثيرا ، لان أؤكد على مدى حب اللغة العربية والدفاع عنها وأقول كيف هؤلاء النا ـ س، لان لغتهم وهى لغة الجامعة ، ولغة الادارة ولغة العلم ، ولغة الجيش وغير ذلك فهى لغة أجنبية أو لغة دين عندما يريد الانسان أن يتعبد أو يعتقد بأن دعاءه يصل بطريقــة أسلــم أو أسرع الى الله سبحانه وتعالى ، عليه أن يدعو ويتكلم باللغة العربيــة لكن ايمانا منهم بأن أكثر من هذا فهى لغة حضارة ولغة ثقافة ، ولغة وجودها وظهورها ، واحتلالها المكان اللائق بها هو افصاح وتعبير عن مفهوم للوجود وعن مفهوم للحياة والعلاقات البشرية والاجتماعية فقد أطلت عليكم كثيرا فى الحديث وطبعا هذا الفضل فى نشر اللغة العربية ، وفى جعلها محبوبة عند شعوب تربطنا واياها وشائج العقيدة والثقافة والحضارة والتاريخ ، فهذه الامور كلها طبعا وهذه الاشياء التى نرى ثمارها وقد زرعها المصلحون من أجدادنا ومن سلفنا ، فبدأنا نحصد نحن ، وفى اعتقادى أن علينا وعلى قادتنا المصلحيــن وعلمائنا العاملين الذين سيكون لهم اليد الطولى ولا شك فى القيــام بهذا العمل الشريف أن يزرعوا لمن يأتى بعدهم جزءا وفاقا •

وختاما أقول بايجاز أن شعورى والحالة هذه أن أعرب عن رجائى ولا شك رجاء الجميع والجزائريين ألا يكون اهتمامنا بالتعريف بالفكر الاسلامى فى هذا الظرف الحرج من تاريخ أمتنا أقل من اهتمامنـــا

بالنظر الجدى فى الوجه الآخر من هذه الحضارة والثقافة وهى اللغة العربية وما يكون نظرا.حائرا فى متاهات المنـاظـرات بل يكــون استفسارا تتبعه عزيمة تنبجس عنها أعمال من شأنها استكمال انبعاث المجتمع الاسلامى الذى لا ينشده الشعب الجزائرى وحده بل تنشده جميع المجتمعات الاسلامية التى يقدر أهلها بما لا يقل عن 600 مليون نسمة فى العالم اقتناعا من هذه المجتمعات ، اقتناعا لا يرقى اليه الشك بأن قيام هذا المجتمع ولو على المدى البعيد ضرورة انسانية وحتمية تاريخية وخصوصا تلبية لنداء السواد الاعظم من البشرية فى ساعة العسرة هذه وشكرا ،.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركـاتـه .

الكنـــز ، الكنـــز

محمـــد نسيب
نائـب مــدير
المركز الثقافي بالجزائر



كان علال رجلا ثريا يحب المال حبا شديدا •

لقد طغى عليه هذا الحب وهيمن على قلبه وسيطر على حياته واستولى على تفكيره وشعوره وأحاسيسه وامتزج بدمائه ، حتى صار المال هدفه وأمله المنشود فى هذا الوجود ، لا يفكر الا فى تكوين الثروة وتكديس الاوراق النقدية عن طريق الربا والحرام ، ويستغل عرق العمال الكادحين ويشيد بنيانه على ضحايا البؤس والحرمان •

لقد كان علال مضرب الامثال فى البخل والتقتير ، ويشار اليه بالبنان وهو لا يسمع الا لرنين الدينار ، ولا ينقاد الا للطمع شره لا يعرف القناعة وله مقهى يشرف عليه هـو نفسه فاذا دخلته لاحظت نسيج العنكبون فى كل زواياه والكراسى مرقعة بالمسامـير و مربوطة بالخيوط والاسلاك وهو قابع خلف الدرج يحسب ويعد في أصابعه يثور من حين لآخر ، وينفعل لاتفه الاسباب ، وتسمع صياحه من الشارع ، تارة مع عماله وتارة مع الزبائن •

انه خشن الطبع غليظ الجسم قاسي القلب شرس الاخلاق موسوس القلب كثير الشكوك والظنون يشك في زوجته وفي أولاده لا يثق بأي انسان مهما كان صدقه واخلاصه ويعد في نظر علال لصا خائنا .

ليس له صديـــق ولا قريب .

ان زميله وقريبه ورفيقه يجتمعون كلهم في شخص واحد في نظر علال هو المال ، تراه طول النهار قابعا حول درج الدراهم لا يكاد يفارقه كانه مغروس على الكرسي أو مشدود الى ذلك الدرج الذي كان يلتهمه بنظراته الجائعة .

أما عمال المقهى فلا يدفع لهم أجرهم الا بعد الالحاح والمعارك أحيانا . فالدارهم اذا دخلت خزانته فلا تعود ترى النور ولا تخرج للحياة مرة أخرى فيحكم عليها بالسجن طول العمر ، اذا سألته عن حالته أجابك حالا في حزن وانكسار :

أنا أشقى الناس فوق الارض وافقر العباد في هذا الوجود ، وهو يشكو دائما من الفقر والعوز حتى لا يطمع فيه أحد .

غلبه الجشع واستبد به الطمع فلا يعرف الشبع ولا القناعة لا يملأ جوفه الا التراب والحجـــارة .

وكانت عصابة النشالين تترصد علال وتنصب له الكمائن في كل مرة .

وكان رئيس هذه العصابة من أمهر النشالين في العاصمة وأخطرهم يحتال كـــل الحيل للاستيلاء على ثروة علال ولكن علال ينفلت من قبضة النشالين في كل مرة وينجو من خطرهم ويخرج من الورطة ظافرا منتصرا وتفشل العصابة وتخيب آمالها .

وتعجب النشالون من أمر هذا الرجل ، وعندما يئسوا من الوصول الى ثروة علال قال رئيس العصابة لرفقائه :

مستحيل أن نصل الى أهدافنا ونحصل على أدنى شيء من مال علال بهذه الطريقة العقيمـــة .

لقد فشلت جميع الحيل والمحاولات ، فلم يبق لنا سوى تجربة واحدة وصاح رفقاؤه جميعـــا :

ما هى التجربـــة ؟

وقال لهم : ثقوا اننا لا نحصل على ثروة علال الا عن طريق السحر والشعوذة ٠

قالوا : كيف ذلك ؟

قال لهم : يجب علينا أن نتدرب أسابيع على التكلم باللهجة المغربية واستعمال بعض الرموز السحرية ونعرف أسماء العقاقير والبخور ونرسل اللحية ونرتدى القشاشيب ونتزى بزى المغاربة ونتظاهر بأننا جئنا من فاس أو مراكش ، ثم نذهب الى علال ٠

واتفق النشالون على هذه الخطة وتدربوا على تنفيذها ٠

وها هم النشالون فى مقهى علال وهم فى زى المغاربة يتحدثون باللهجة المغربية ، وهم يسألون عن علال ثم تقدموا اليه وهو قابع خلف الدرج كعادته وسأله رئيس العصابة وقال له :

أنت هو علال صاحـــب الكنز يا مولاى ؟

وثار علال فى وجهه وقال لـــه :

اخـــرج من هنـــا ٠

وأجابه النشال : بهدوء وبرودة يلتمس منه العذر ٠

عفوا يا مولاى لا تغضب ولا تقلق أهدأ نفسك ولا ترهق أعصابك نحن مبعوثون اليك من مدينة فاس ٠

كم تحملنا من أتعاب ومشاق من أجلك يا مولاى لنستخرج لك الكنز ونغنيك اذا أغناك الله يا مولاى وتصبح فى أقرب وقت من الاثرياء الكبار فوق هذه الارض بعد ما كنت من أفقر الناس لن تعود بعد ذلك علال صاحب المقهى بل تصبح علال صاحب الكنـز صاحب الذهب الوهاج والجواهر الثمينة ٠

واندهش علال من هذا الخبر العجيب وقال له :

اقترب منى واخفض صوتك حتى لا يسمك أحد .

وتقدم اليه النشال وقال له :

اذن أنت علال ؟ وقال له :

نعـــــم .

تسكن فى حى الابيار .

نعـــــم .

شارع الفـــلان .

نعـــــم .

رقـم كـــذا ...

نعـــــم .

فيلا كـــذا ...

نعـــــم .

فيها حديقة و ...

نعـــــم .

فيها فوارة وبقربها كرمة كبيرة لها جذع غليظ .!!

وقال عـــلال :

من أخبرك بهذا يا سيدى ، وابتسم النشال ابتسامة النصر والفرح وأخرج الكتاب من المحفظة وقال له :

هذا يا مولاى الذى أخبرنى عنك ودلنى على الكنز .

ثم خرج اليهم علال وصافحهم ورحب بهم ، فقادهم الى احدى زوايا المقهى وتداوروا هناك على المنضدة ليواصلوا حديثهم فى سر وكتمان حتى لا يسمع لهم أحد واحضر لهم ابريقا من الشاى ، واستأنفوا الحديث وكلما أفرغوا الكؤوس ملأها من جديد ،

وعلال يتابع حديث النشالين المشوق بعناية واهتمام وكلما سمع كلمة الكنز سال اللعاب من فمه حتى صار عجينة مرنة فى أيديهم يصنعون بها ما يشاؤون ٠

ثم فتح رئيس العصابة كتابا وقال لعلال :

لقد وجدنا اسمك فى التاريخ مقرونا بهذا الكنز العظيم المملوء بالذهب الوهاج والجواهر الثمينة لو علمت يا مولاى ما لقيناه من أجلك من تعب وعناء وما أنفقناه من مال وما ضحيناه من وقـت وما قطعناه مـن مسـافات وما سهـرنا مـن ليـال وما لقيناه من شدائد وأهوال بحثا عنك فى كل مكان ٠

وقلب علال تكاد نبضاته تسمع من بعيد من شدة الفرح ، وتفتحت فى قلبه شهية المـال ٠

لم يعد يتحكم فى نفسه وصار كل شىء فيه يرقص ويتحرك لان الفرحة هزته هزا ، حتى كاد كاس الشاى يسقط من يده ، وقال له رئيس العصابة :

والآن يا مولاى يجب أن نبدأ العمل ٠

وقال له علال هيا بنا الى المنزل ، وامتطوا سيارة الاجرة ولاول مرة يركب علال سيارة الاجرة ويدفع ثمن الركوب ، وعندما وصلوا الى المنزل تناولوا الغداء ثـم استراحوا حتى جاء الليل وخرجوا الى الحديقة يبخرون ويحرقون العقاقير ، وهـم يتخاطبون بلغة غريبة ليست عربية ، ولا عبرية ولا صينية بل ليست لغة البشر ، واستمرت العملية حتى الصباح ٠ ونفدت لهم العقاقير وقالوا لعلال :

ان القضية صعبة تتطلب العقاقير كثيرة لان الكنز استولى عليه رئيس العفاريت لا نزحزحه ولا نبعده عن الكنز الا بكثرة البخور واحراق العقاقير وهذا يتطلب مالا كثـيرا ٠

وقال لهم علال : فالمال لا يمنعكم عن مواصلة العمل خذوا ما تشاؤون ٠٠٠ المهم أن نحصل على الكنز مهما كانت التكاليف ٠

وقالوا له نعم يا مولاى ان الكنز كنزك ونحن فى خدمتك لا نغادر هذا المكان الا اذا استخرجناه لـك ٠

ثم قدم لهم مبلغا كبيرا من المال لشراء العقاقير ونزلوا الى المدينة ، وفى المساء عادوا الى دار علال ليواصلوا عمليتهم كالعادة ·

وهكذا استغرقوا أسبوعا كاملا فى التعازيم والبخور وحرق العقاقير وعلال فى كل يوم يدفع لهم مبلغا ضخما من المال لشراء العقاقير ، وقد نسى تجارته وأهمل مقهاه ولا يفكر الا في الكنز ·

أما النشالون فعندما حصلوا على جزء كبير من ثروة علال ، قالوا له :

الآن كدنا أن نصل الى الكنز ولكن تنقصنا يا مولاى بعض العقاقير ، اذا حصلنا عليها انتهى المشكل ووصلنا الى الكنز وطردنا العفريت عنه طردا نهائيا ·

وقال لهم علال ماذا يمنعكم من الحصول على العقاقير :

فقالوا له : تتطلب مالا كثيرا يقدر بالملايين لان هذه العقاقيرغير موجودة فى الجزائر بل نحضرها من المغرب بعضها من مدينة فاس وأخرى من مدينة مكناس ·

وصـــاح عـــلال :

المال موجود المهم أن تجدوا العقاقير وتحضروها حالا اذا كان الكنز ذهبا وجواهـر لا حاجة لى بهذه الاوراق ·

وصاح النشالون جميعا : أفى ذلك شك يا مولاى ؟

وفتح علال خزانته وأعطى لهم ما طلبوه ثم زودهم بزاد وودعهم على أمل اللقاء القريب ·

وغادر النشالون دار علال بعد انتهاء المهمة وحصلوا على ثروته التى قضى أيـــام شبابه فى جمعها وبقى علال ينتظر عودتهم فى شوق وقلق ، وهو يعد الساعـــات والايـــام ·

مضى أسبوع على سفر المغازبة فلم يعودوا ولم يأت نبأهم واخذ القلق يساور علال ولكنه لم ييأس وانسلخت الاسابيع يتلو بعضها بعضا وعلال لا يزداد الا قلقا وحيرة واضطـــرابا ···

وطال الانتظـــار ·

وخرج الى المدينة وراح يجول فى شوارعها ويدور فى إحيائها يفحص الوجوه فحصا . ويسأل عن المغاربة ، وكلما لمح رجلا لبس القشابة أو مسترسل اللحية هرع اليه يسأله .

أنت (مروكى ؟)

من أين قدمـــت ؟

من فاس ؟ من مكناس ؟

وهكذا حتى يئس من العثور عليهم ، وعاد الى منزله بعد أن فقد ثروته وراح يحفر الارض باحثا عن الكنز المدفون فى الحديقة وكلما اصتدم الفأس بالحجارة اتقدت النار ، وطارت الشرارات وقلب علال يخفق طمعا وفرحا ورمى الفأس على الارض وأسرع يبحث التراب بكلتا يديه ظنا انه وصل الى الكنز وعثر على الجواهر .

وقضى أياما وأسابيع وهو يحفر ويبحث وكلما سألته زوجته .

ما تصنع يا علال ؟ أجابها :

الكنـــــز .

الكنز ، ولكن زوجته لم تفهم منه شيئا سوى انه يخرب الحديقة .

فعلا لقد خربها وصارت كلها خنادق كأنها جبهة المعركة وليست حديقة المنـــزل عمل مستمر لا يثنيه الحر ولا يقفه الظلام يعمل والعرق يتصبب من جبينه لا يشتكى جوعا ولا عطشا ولا عياء ، ولا تسمع من علال الا كلمة (الكنز) (الكنز) .

وهكذا حتى فقد عقله وذهب وعيه ثم خرج الى الشارع يجرى خلف السراب ويطارد الاشباح وهو يصيح :

(الكنـز الكنز) .